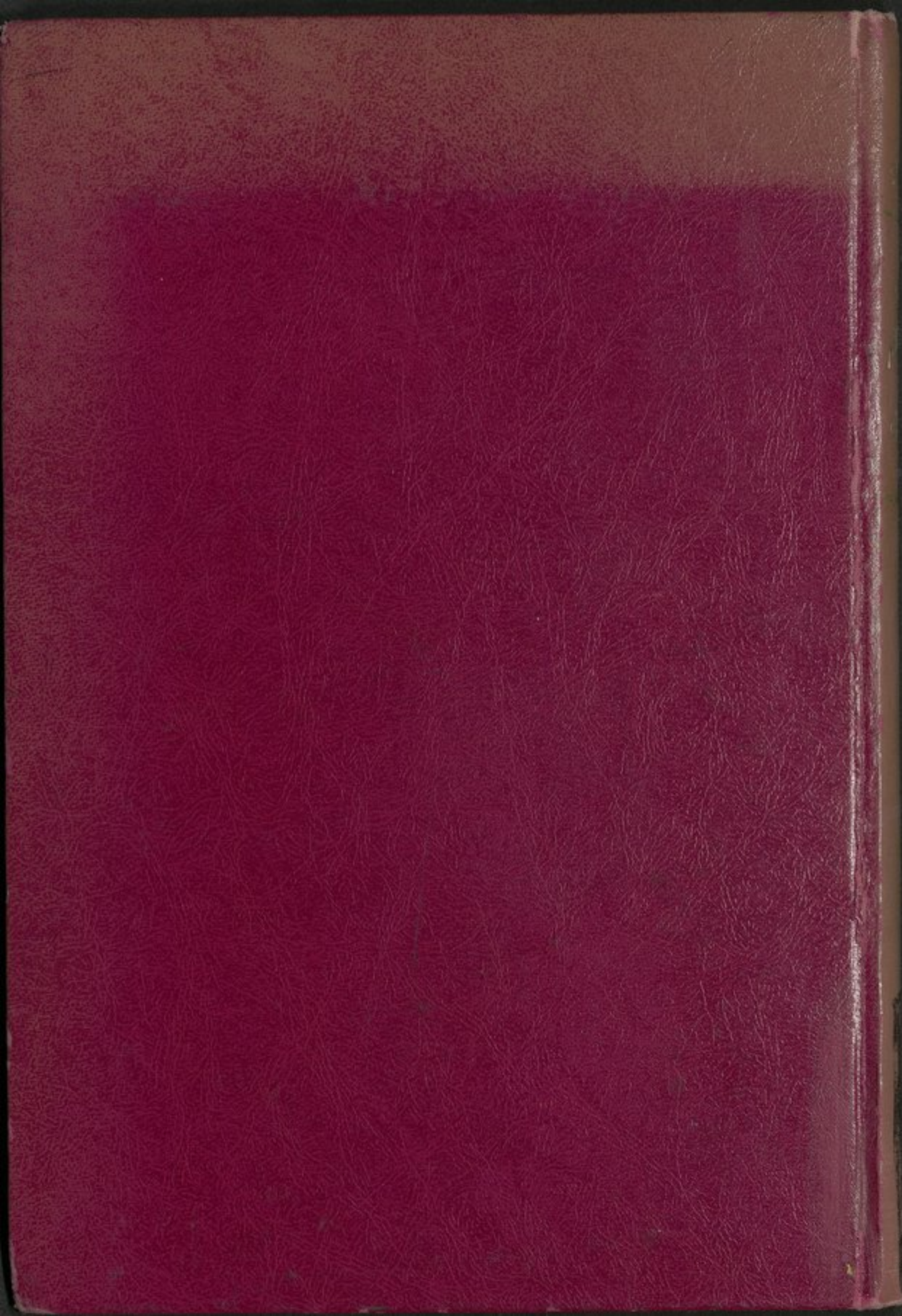




قصيد
صالح النور
بيروت - المزرعة

297.04:G41mA

• الغزالي، محمد •

• من معالم الحق •

FEB 3 1-M

FEB 14 A1174

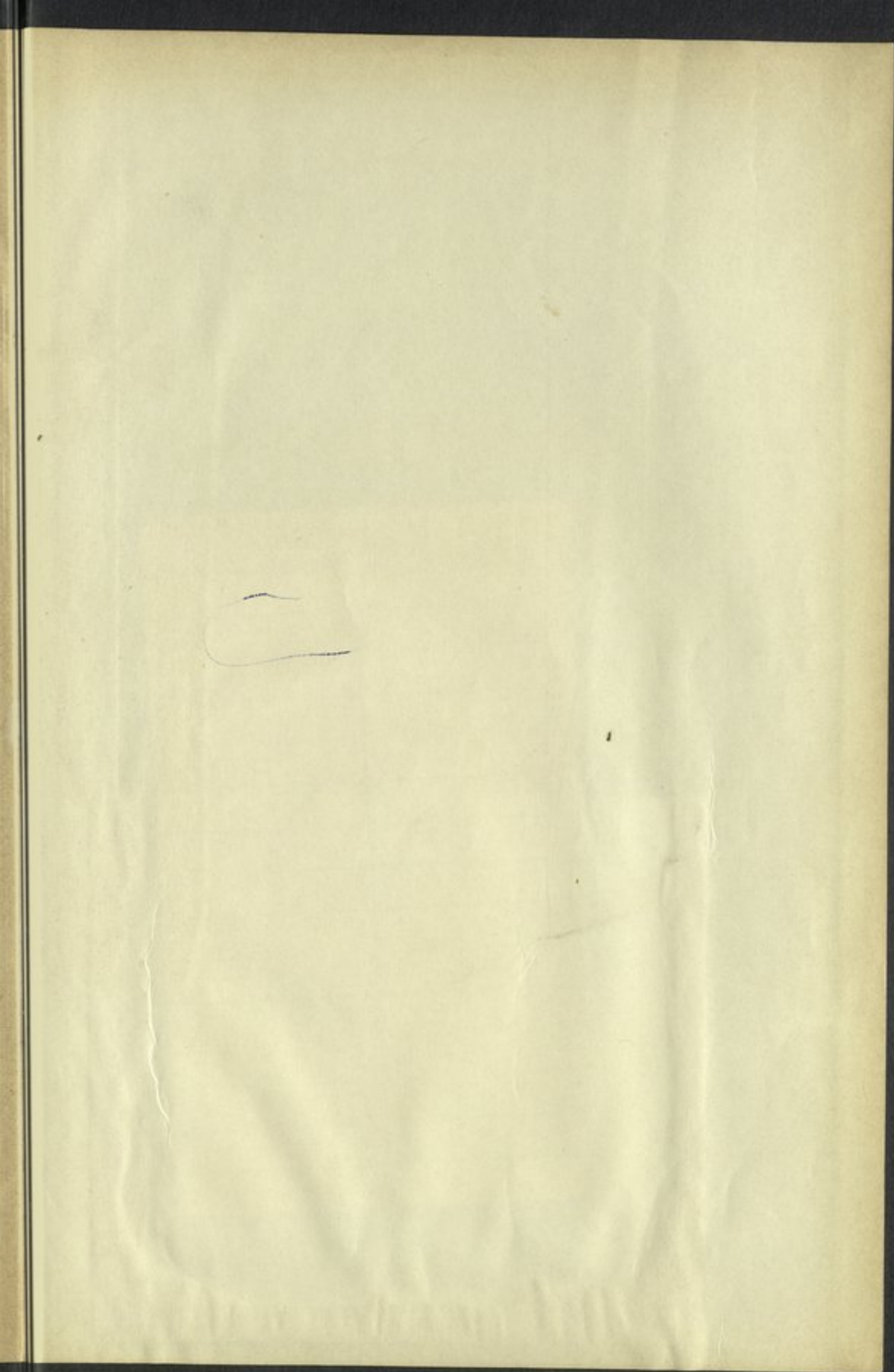
297.04
G41mA

~~15 SEP 69~~

~~56 Jul 69~~

21 ~~1969~~





297.04
G41m1A
محمد الغنّزالي

من معالم الحق



الناشر
دارالكتاب العربي بمصر
محمد بن أبي النضار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م

مقدمة

إن التجارب التي بلوتها في الأيام الأواخر ردت إلى الصواب فيما يحس تقدير الناس وتقويم منازلهم واكتشاف خباياهم . . .

عرفت لماذا أحس رسول الله أن الرجال قليل ، وأن نسبتهم فيمن ترى لا تنكاد تبلغ الواحد في المائة . ولذلك قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » .

أجل . إن الذين يؤمل عليهم في اقتحام الصعاب وتحطيم العقاب وإدراك الغايات أندر — إلى حد بعيد — مما يفرضه حسن الظن وتوقع الخير .

وما أحكم قول الله عز وجل « وَإِنْ تَطِيعُ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » . . .

وإلى جانب قصور المهم وهن المناكب وضعف الإدراك وما إلى ذلك من رذائل المعجز المبعثرة بين العامة والممل ، تجد رذيلة أخرى إذا لحقت بالأقوياء شانهم وحطتهم ، وهي سوء النية ، أو بتعبير أدق ، غش النية .

فإن القصد المدخول يحمل الرجل يأتي عمل الأخيار — وهو بضميره بعيد عنهم — فيخرج منه ضعيفاً لا يصل إلى هدفه ، أو منحرفاً لا ينتهي إلى موضعه .

ثم إن صاحب هذا العمل محسوب على قوى الإيمان والإخلاص في حين أنه دسيسة مقحمة فيها . أو هو في الحقيقة جرثومة تعمل ضدها وتثير داخل كيائها الملل . . .

ولم أعرف نفاسة قول رسول الله : « إنما الأعمال بالنيات » حتى خالطت المئات والآلوف فوجدت في سيرتها الأعاجيب .

طلما بحثت عن الإخلاص المحض لله ولرسوله لآنس به وأستمع ، أو لألؤذه وأستجير ، فكانت سوءات الهوى المستور تفجؤني فتزدني محزوناً لا ألوى على شيء . . . !

هناك ناس فاتهم من حظوظ الدنيا ما يكسبهم الوجهاء المنشودة ، فالتحقوا

بعيدان الدعوة إلى الله يرجون فيه العوض الذي فقدوه . فتحول الميدان الظهور بهم إلى مضمار يتهاresh فيه فرسان الكلام وطلاب الظهور وعشاق الرياسة .

وانتقلت موازين الحياة الدنيا وتقاليدها ومؤامراتها وأساليبها تبعاً لذلك إلى ميدان الدعوة فماذا تنتظر من هذا الخلط إلا أن تقع فتنة في الأرض وفساد كبير ؟ لقد خلصت من تجارب هذه الأيام التي مرت بي إلى أن العمل للإسلام لا يقبل إلا ممن يعمل به . وأن الذين يفشلون في إقامة أمر الله بينهم أعجز من أن يقيموه بين الناس ، وأن الله لا يمكن لأمة باسمه إلا إذا نضجت في هذه الأمة عناصر الخير وربت منابع البر ، حتى إذا ملكت نضجت على العالمين من طبيعتها العالية ، فأشاعت الرحمة والعدل ، وعلمت الطاعة والتقوى ، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ! وذلك مصداق قوله سبحانه : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » .

إن الإيمان الصحيح يجعل نفس المسلم تستجيب لدواعي الخير المختلفة كلما أهابت بها . فهو في السلم والحرب ، في الصحة والمرض ، في الأمن والروع ، في الخصب والجذب ، في كل حال يقدرها الله له ، يواجهها بما يفرض اليقين عليه ، لا ينكص ولا يزيغ . . . !

يصبر في الضراء ويشكر في السراء ، ويكرم عند النفقة ويقدم عند الروع ، ويقيم الفرائض الموقوتة ويهجر المعاصي المحرمة ، ويبغض المبطلين ويشغب على ضلالهم ، ويحب المصلحين ويشد أزرهم . . . !

ذاك شأن المسلم . إن الخضوع لأمر الله والمبادرة إلى إنفاذه استعداد كامن دائم فيه . « إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون » .

وقد تلت هذه الآية آيات أخرى تفصل حقيقة الطاعة المطلوبة ، وتبين أن مشاعر الخضوع لله ، المستكنة في نفس المسلم موصولة لا تنقطع متأسكة لا تنفصم . وأن الزعم المجرد عن العمل لا قيمة له في حقيقة التقوى .

هب رجلاً أعجبه دفء الفراش ساعة الفجر وآثر لذة النوم على غيرها من ذكر وقربى أحسب ذلك يقدر على جهاد خشن في ميدان غليظ ؟

هب رجلا أغراء فتون الفاحشة فقلوث بها في أيام الرخاء والسعة أترأه يطيق مرضاة الله في الانحلال عن الدنيا لو طلب إليه أن يفتدى أمته بنفسه يوما ما ؟
 إن الرجال الذين يسيئون في القليل لا ينبغى تصديقهم إذا أقسموا في الكثير .
 وهذا ما بدأت الآيات الكريمة تفيض فيه « وأقسموا بالله جهنم أيمانهم : لأن أمرتهم ليخترجن . قل : لا تقسموا ، طاعة معروفة » ، إن الله خير بما تعملون .
 نعم ، طاعة معروفة ! إن المتكاسلين في الصلاة ، الباخلين بالزكاة لا يقبل منهم حلف على الفداء والتضحية .

إن الناكين عن خدمة الحق بكلمة هادئة لا يحلفون على خدمته ببذل الدم .
 طاعة معروفة .

ما أحز هذه الكلمة في جلود الخادعين المخدوعين ، الذين يظنون محالهم منطليا على الله . . .

ثم شرعت الآيات تجر أولئك إلى صراط الله الذي يزعمون أنهم أوغلوا فيه وهم لما يهتدوا إلى مطالعته « قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » .

والطاعة المعنوية هنا قوامها تصحيح العقيدة وتطهير القلب وإدامة الصلاح وزوم التقى .

وتجلية هذه المعاني يحىء في إبانته . فإن الآيات نزلت في المدينة . والنبي الكريم يكافح قوى الشرك ويُرسي قواعد الدولة التي يريد بناءها .

وفي هذه الظروف يقبل المغامرون من طلاب الدنيا ليشاركوا في الجهاد طلبا للغنيمة . وقد يتطلعون إلى الحكم رغبة في الإمارة لا إقامة لدين الله . فتعلما لهؤلاء أطردت الآيات تنذر وتبشر ، وتمد بالنصر والتمكين الطائمين المخلصين وحدهم .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

لكن ما شرط ذلك ؟ وما مقدماته الصحيحة ؟

« يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . . . » .

« ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

وعادت الآيات تكرر أوامر الخير وأسباب الفلاح « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » .

وهذه مدارج الفضل والسناء . وأي مجتمع تهتدى فيه عُرَا الأخلاق ، وتضعف فيه مقومات النفوس الكبيرة هيئات أن يوفق إلى تأسيس دولة مكيّنة أو إقامة حكم رشيد . . .

إن النفوس الدنيا لا يمكنها أن تقيم أحكام السماء ، ولا تستطيع — وهي مُخلّدة إلى الأرض — أن تستجيب لتعاليم الوحي ، أو تستقيم مع جوه النقي الطهور .

أرأيت امراً خليعاً يشرع دساتير الأدب ويطبقها . أرأيت امراً خوّاراً يشرع دساتير الكفاح ويؤججها ؟

إن ينابيع الخير التي اخضبت بها الحياة وازدانت . . لم تنبجس من نفوس متحجرة ، بل فارت بالرى العذب من نفوس مفعمة بالكمال ، فياضة بالبر والسكينة والجمال .

وغيوم الشر التي لوئت الآفاق وأذت البلاد والعباد . . لم تنفخها أنفاس لاهثة يقطعها الإعياء والوجل ، بل عصفت بها نفوس لها في الحياة فعل الاعاصير المجتاحة ، كانت قوتها في الخير هي السبب الأول في اندحار الشر أمامها . . .

والنفوس التي انحصرت في أهوائها الصغيرة لا تفقه الدين ، ولو فقهته ما أصلحت به شيئاً فضلاً عن أن تصلح هي به . .

إن الحقيقة الأولى في الإسلام زكاة النفس وسناؤها ، وفقدان هذه الحقيقة فقدان الأصل الذي لا يسد مسده عوض ، ولا يغني مكانه صلاة ولا صيام ولا جهاد ولا قيام . . بل فقدان هذا الأصل يجعل العبادات التي يأتيناها البعض نوعاً من الفساد الملفوف ، فإن النيات المدخولة والقلوب الخالكة لا يصلح معها عمل أبداً . .

إن الله أمر الناس أن يزكوا أنفسهم وأن يزكوا بيثتهم ، ومن ثم يكون

جهادهم العام في ترقية الجماعة جزءا من جهادهم الخاص في تهذيب غرائزهم وتقويم مسالكهم . .

فإذا رأيت رجلا يشتغل بجهاد الناس وهو مدهول عن جهاد نفسه فاعلم أنه خطاف يريد الاشتغال بالسلب والنهب تحت ستار الدين .

إن تقوى الله عز وجل لباب الدين وسياج نظمته الدقيقة والجليلة ، ورباط تعاليمه في المجتمع والدولة . ولو أفلحنا في إقامة هيكل كبير يمثل شرائع الله كلها وتبرز فيه صور الإسلام الممهودة والمنشودة ثم حفت بهذا الهيكل نفوس خلت من الله وضامرا لا تحسن رقابته ما كننا بهذا كله قد أقننا إسلاما ولا خدمنا إيمانا .

ولسنا ننكر قيمة القانون في حراسة ظاهر الحياة ، ولكننا ننكر أن يسكون للقانون أثر يذكر في موازين الخير والأمانة والتهوض والوفاء وحسن التقدير وسلامة القصد . .

بل إن القوانين أعجز من أن تحاكم الإيمان والنفاق والرياء والإخلاص .
وهذه لها ما لها في قيادة الجماعات إلى النى أو الرشد . .

في عصرنا هذا نظم القضاء ، ورتبت محاكمه ، ووزعت أعباء الدفاع والالتزام والموازنة والتمحيص على رجاله ، وهيئت الفرص لتدارك الخطأ ، واتسعت ضروب التقاضي فأمكنك محاكمة الدولة والفرد جميعا . بيد أن هذه الوسائل العديدة لتوفير العدالة وإشاعة السكينة لا تجدى شيئا إذا التأت النفس الإنسانية وأضلها الهوى فإن النفوس المجرحة لا تمسك الحق إلا كما تمسك الماء الغرايبيل .
ولذلك يقول الله لداود - وهو نبي وحاكم .

« يا داودُ إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يوم الحساب » .

وكل مستخلف في الأرض يكون قربه أو بعده من الله على قدر بصره بالحق وانصياعه له وأخذه نفسه والناس به .

ونحن لو تركنا الهوى يقيم حدود الله لقطع المسروق وترك السارق
وقدم المفلوك وآخر الماجد ، وأعطى حيث يجب أن يمنع وخفض حيث يجب
أن يرفع .

أفتحسب ذلك ديننا ، أم ذلك هو الفساد المبين ؟

إن أولى الناس بالله من حكموا الله في أنفسهم ، وخضعوا لدينه في طواياهم ،
وعاشوا له في شئونهم التي لا يراها إلا هو — جل اسمه — قبل أن يتظاهروا بالعيش
له في كل زحام ، والغضب له في كل خصام .

هبك فتحت المصحف فوجدت فيه قوله الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا
قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . . »
وقوله أيضا « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى . . »

إنك — كأي مسلم — مطالب باحترام النداءين ، واجابة الأمرين ، على أن في
مقدورك هذه الساعة قبل غيرها أن تقيم العدل بين من تحب ومن تكره ولو بكلمة ،
أما إنفاذ القصاص الواجب فقد تقيمه غدا إن عجزت عنه اليوم فهل تحسبني آمنك
على هذا الإنفاذ المنشود لو رأيتك تهدر النص الأول وتجحد كلمة حق تقر بها
العدالة وتقوم بها مخلصا لله رب العالمين !!

لا يا صاحبي . . إن أولى الناس بالله من يقيم في جوانب نفسه سلطان الحق
ويهزم نوازع الهوى فإذا أذنت له الأقدار بامتداد كان البر بعباد الله أول ما ينتظر
منه ، وكان الجور عن الطريق آخر ما يرمى به . .

من خمسة عشر عاما وهذا القلم يكتب للإسلام يشرح نظامه ويبرز أحكامه
ويغري الناس بالأخذ به والدخول فيه ومذ حلت عرا الحكم الإسلامي في عصرنا
وسقطت دولته تطلع المؤمنون إلى يوم أغر يعلو فيه لواء الدين وتسود شريعة الله . . .
وأى مسلم لا يداعب نفسه هذا الأمل الخلو ؟ وأى مسلم لا يعمل له وعلى لسانه
قول الشاعر :

منى إن تسكن حقا تسكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا
لكن من يقيم هذا الحكم المرغوب ؟ وما هي الأدوات التي تمكن له ؟
إن الدولة المسلمة لن تجيء إلا ثمرة أمة مسلمة ، وإذا صدقنا أن الوثنيين يقيمون

حكماً للتوحيد صدقنا أن يقيم الدُّعَاة حكماً للفضيلة ، وأن يقيم المهازيل نظاماً للرجولة ، وأن يصنع العبيد منهاجاً للسيادة . . .

إن أول ما ينتظر في جماعة تبغى الحكم بما أنزل الله أن يصحب بعضهم بعضاً على هذا الأساس ، وأن يعامل بعضهم بعضاً بهذا المنطق .

لذلك جزعت عندما رأيت بعض من يتنادون بدستور السماء يعيشون في وسوس الأرض وأوحالها .

لقد كان القرآن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى أن ما دعا الناس إلى اتباعه جملة صقال روحه وملاك أمره ومعقد شمائله ودعامة سيرته . .

كان محمد عليه السلام نقي السر والعلن . ظهور الظاهر والباطن ، لا يوجد بين حياته الخاصة وحياته العامة حجاب . فسيرته في نفسه وفي بيته كسيرته بين الناس ، ودعوته التي يعرض على الناس أصولها كان أول الناس احتكاماً إليها وأخذاً بها ، وقد ظل بارزاً للأصدقاء والخصوم سنين طويلة ، فما عرفت عنه ريبة ولا وقع تناقض بين سلوكه الخاص وسلوكه العام .

إن الرسالة التي نادى بها هي الرسالة التي عاش فيها ، وهي التي ضبطت أحواله كلها سواء الذي اطلع عليه الناس والذي خفي عن أعين الناس .

ومثل ذلك لا يطيقه الأعداء من أصحاب الشهوات ومن ذوى الرجولة المريضة والأخلاق المتتوية . ولقد حاول خصوم رسالته أن يستدرجوه إلى المداينة والمسلك المزدوج فأبى وهو القائل : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجهياً » .

وفي ذلك يقول القرآن « فلا تطع المكذبين . وُدُّوا لو تدهن فيدهنون » . والحق أن صاحب الرسالة العظمى قد زوده الله بزاد من الشرف والصرامة والثبات هي كفاء ما حمل من أمانة وبلغ من رسالة .

ولن يصل صاحب رسالة نبيلة إلى غايته إلا إذا مشى في هذه السبيل المشرقة . ثم إن هذا الرسول لم يفرط أدنى تفريط في صبغ النفوس بتهاليمه وضبط المجتمع بأدابه ومحكمة الصغير والكبير إلى معاله .

بل إنه لم يتساهل في تطبيق ذلك على جثث الموتى ، ففي معركة أحد كان يسأل

— وهو يستعرض رفات الشهداء — : أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فيدينه منه في الصلاة ويقدمه على غيره في الالحاد !

فانظر ماذا صنع المحسوبون على دعوة الله في زماننا هذا ؟ داسوا موازين الإيمان والأمانة وجاءوا برجل لا يدري من شرائع الله شيئاً ليقود ركب الدعاة إلى الله ! فكان أن قادهم إلى مواطن الحزى والندم . . .

إن المسلم الذي يفقد ضميره لإيثار شخص بمنصب كيف يرجى منه أن يحكم بما أنزل الله حين يتولى مهام الدولة ويملك أزمته الكبرى ؟

فإذا غلغلت النظر في خبء هؤلاء وجدت تقرباً سره الزلفي ، وإغماضاً سره الجبن ، وفصلاً سره الحق ووصلاً سره الإدلال ، وصداقة سره الهوى !!!

فأين « ما أنزل الله » بين قوم هذه حالهم ؟

إننا لن نوفق إلى الحكم بما أنزل الله حقاً إلا إذا نمت أعوادنا في مغارس الفضيلة فكفنا عدولاً مع أنفسنا قبل أن نكون عدولاً مع الناس . . .

وتربية الأجيال الجديدة لتكوين أخلاق عظيمة ومسالك رائعة خطوة لا بد منها في هذه السبيل .

وقد هيمنت على مرارة الإحساس بهذه الحقيقة فجعلتني أصرخ بالألم في كثير من المقالات المثبتة هنا .

إن الاضطراب الشديد داخل الجبهة الإسلامية والغارة الشمواء على العالم الإسلامي جعلاني مؤزعا بين الدفاع والهجوم .

دفاع ضد أعداء أقوياء متربصين .

وهجوم ضد أعوان بله وانين متقاعسين ! .

دفاع رجل يخشى أن يصاب من ظهره لأن المنتمين إلى الإسلام ينالون منه ، وكأنه عدو ، وهو الصديق الودود ! !

وهجوم رجل يُعَيَّرُ ببهالات غيره وهو يكافح فكرة « العيش بلا دين » .

تلك الفكرة التي ترحف وسط أمواج دافقة من العلم المادى والحضارة

المدنية البحتة ؟

محمد الغزالي

سنة مطردة

[يجب على المسلمين أن يستوعبوا هذه الحقائق
قبل جولة أخرى مع بني إسرائيل . . .]

(١)

قد تكون نعمة الله على أمة ما بالتمكين والنصر ، كفاء ما حملت من عناء
وأبدت من صبر ، وعندئذ تبقى هذه النعم مابقيت الأعمال التي أهلت لها والأحوال
التي قادت إليها . .

إن الرجل إذا حصل على منصب كبير بمواهب عرفت له وكفايات قدرت فيه ،
فهو مقيم في هذا المنصب ماضل مطيقاً لأعبائه قائماً على حقوقه موصول الماضي
والمستقبل بالجد والإخلاص . .

أما إذا وصل المرء إلى القمة ثم فقد القدرة على الصعود فإنه سوف ينحدر عنها
حتماً ليعود من حيث أتى . .

إن المحافظة على المجد ليست أيسر من بلوغه ، بل قد تكون استدامة النعمة
أصعب من تحصيلها ! .

ألا ترى الثمرة قبل بُدوِّها تحتاج إلى جهود متلاحقة في غراسها وسقيها
وتعهداها حتى إذا نضجت احتاجت إلى جهود أخرى في المحافظة عليها من آفات
العفن وأسباب التلف ! .

وشر ما يمتري النعم بعد اكتمالها أن يحسب أصحابها أنها جاءتهم اتفاقاً من غير
مبررات اكسبتها ولا مقدمات ساقتها ، أو يحسبون أنهم نالوها بمحاجة من الأقدار
أو اختصاص مبهم أو بدعوى العظمة الكاذبة والاستحقاق الباطل كما قال قارون :
« إنما أوتيته على علمٍ عندي » ! .

هذا كله مما يبحث أصول الخير ويستعجل نقمة الملك الأعلى .

لقد ذكر القرآن بنى إسرائيل في آيات شتى فأبان أنهم بلغوا من منازل الفضل
ومعارج الارتقاء ما سبقوا به أهل الأرض قاطبة ، وانظر إلى قوله تعالى :
« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذابِ المُهِينِ من فرعونَ إنه كان عالياً
من السرفين .

ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين » .

أى أن الله اصطفاهم لاعن محابة بل عن عدالة وحكمة ، فلولاً أن الشعوب الأخرى فى زمانهم كانت أبخس حظاً فى المعرفة والقدرة ما حملهم القدر رسالة ولا آتاهم من الآيات ما آتاهم « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر » .

وإن الإنسان لينظر إلى اليهود أيام محنتهم فيرى بقايا الاختيار القديم لأمة فى سيطرتهم — وهم قلة — على أموال العالم ، واستمرار عنصرهم يفالب الحياة ويتشبث بها رغم سياسة الاستئصال المنظم التى تبعها العالم حياتهم . .

وإن القرآن الكريم لينذكر هؤلاء اليهود بأجسادهم الأولى ويذكرهم بإمكان العودة إليها لو أطرحوا الغدرات والأباطيل فيقول : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفى بعهديكم » ثم يقول : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين » .

ما الذى جعل أمور هذه الأمة تنقلب رأساً على عقب ؟

ما الذى جعلها بعد أن كانت النبوات تزحم ديارها وأنوار السماء تخطط طريقها وبركات الله تنهمر فوقها وتحتها تتحول إلى أمة أخرى تحذرنا شعوب الأرض وتتربص بها الدوائر وتتواصى بالنيل منها والكيد لها ؟

ذلك أن بنى إسرائيل ظفوا إكرام الله حقاً مكتسباً لهم بحكم الجنس فهو مقرون بهم لاحتالة مهما صنعوا . .

أجل لقد ظنوا إيثار الله لهم ضربة لازب كما يؤثر الرجل بنيه عن غريزة غالبية وعاطفة دافعة . .

ثم نادى بهم هذا الظن إلى التفريط والتكاسل ، بل إلى الحيف والتحاميل فأمسوا يتفاسدون ويتجاهلون وهم مع ذلك موقنون بأن كففتهم على سائر الناس أرجح ودرجتهم عند الله أعلى وأعلى . .

والغريب أن هذا الوهم سرى إلى من بعدهم ممن ورثهم فنعى الله عليهم جميعاً هذا الغرور بالمعاصى وهذا الانباء إليه بالزور « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل : فلم يعد بكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشرٌ من خلق الله » .

والبشر جميعاً يتساوون في أصل الخلق ويتفاضلون بعدئذ بحسن العمل وليست بين الله وبين عبدٍ مَّا ، أو أمةٍ مَّا ، صلة خاصة تبيح المروق من الدين أو تسقط الحقوق المنوطة بأعناق المكلفين . .

ورب العالمين يختبر عباده بالعسر واليسر ويبعث بالرخاء بعد الشدة لا ليخرج المروعون من اللجج المخوفة ويسيروا على شاطئ الأمان مرحين معربدين ، كلا بل ليعتبروا بماضيهم ومستقبلهم معاً ، وإلا فالأمر كما ذكر الله في كتابه : « وإذا أذقنا الناس رحمةً من بعدِ ضراءٍ مستهم إذا لهم مكرٌ في آياتنا قل : الله أسرعُ مكرًا إن رُسُلنا يكتبون ماتمكرون » .

وربما وهل الناس إن أجلّ نعماء الله على بني إسرائيل هذا الإغداق السمح الذي يسر لهم أطعمتهم من السماء موائد حافلة باليمن والسلوى ! كلا . . إن تأمين أمة على أرزاقها شيء عظيم حقاً ، فكم تذل الأمم بالسنين المضوض . ولكن اليهود ظفروا بمكاسب روحية كبيرة إلى جانب ما نالوا من إشباع وتأمين ، فإن الله تعهدهم بالأنبياء يعلمونهم بالوحي ويقودونهم بتوجيه السماء ! وكان وعظهم ومدرسوهم رجالاً معصومين يدعون إلى الله على بصيرة ويستعملون على أهواء الدنيا عن عصمة ! .

وتلك نعمة لا تدانيها نعمة . .

كم يشعر الإنسان بالحاجة الملحة إلى إمام حكيم يؤنسه بالله ، ويُعده للقائه إعداداً حسناً ، ويلقى على روحه رواء طهوراً يجعله في هذه الدنيا ملكاً يفكر في الخير وحده ويهفو إليه أبداً . .

إنك تريح نصف الطريق إلى الحق يوم توفق إلى الهادي المدرب اللبيب ، وفي طريق الدعوة إلى الله يوجد علماء وخطباء وقادة وساسة وعباد وتقدة ومتهدون ومقلدون ، وفي الطريق كذلك يوجد الأغرار والمهرة والأتقياء والفجرة والمحدثون والمجازيب ، ترى كم من الجهد يوفر والعناء يقتصد ، يوم يقع المرء على قائد استدرج النبوة بين جنبيه في شبه شعاع ينطق بالحكمة وفي ضميره روح يلهم الصواب ؟ إن صحبة الأنبياء والاستماع إليهم والاهتداء بهم مجدٌ نال . . وقد غمر الله شعب إسرائيل بهذه الأجداد ، إلا أن كل مبذول مملول ، وكل مرتخص مهممل . .

ألف اليهود مئات الرسل يفسدون بينهم ويروحون ، فما أ كبروا لهم قدراً ولا اقتبسوا منهم خيراً ، بل لقد تجرأوا عليهم ، وغمطوا حقهم ، فإذا وقف نبي أمام هوى جامع ليرده ويحمي الأمة شره لم يجد الأشقياء حرجاً من التخلص منه « لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رُسُلًا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا ، وفريقاً يقتلون ، وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا — كثير منهم — والله بصير بما يعملون » .

قال رسول الله : إن الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ، أن يعمل بها وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كأنه كاد أن يبطل بها فقال له عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإذا أن تأمرهم بها ، وإما أن آمرهم أنا بها ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب . . فجمع الناس في بيت المقدس فامتلا المسجد وقعدوا على الشرف . . فقال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأن آمركم أن تعملوا بهن ، أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً . . فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله . . بذهب أو ورق . . وقال : هذه داري وهذا عملي . . فاعمل وأد إلى . . فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ! !
فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ .

وإن الله تعالى أمركم بالصلاة . . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . . فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت . .

وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرَّة فيها مسك كلهم يعجبونه ريحها . . وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . . فقال : أنا أفدى نفسي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم ، وأمركم أن تذكروا الله . . فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم .

وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى . .

أتدري ما كانت نهاية الرجل الذى أسدى لقومه هذا النصح ؟ إن صدودهم عن الحق وقلة انتفاعهم بالتذكير جعلاه يبطيء - أو كاد - فى تبليغهم فلما ثابر على دعوتهم . . وكافح الفساد الشائع فيهم أهدروا دمه ، وقتلوه . .

وتبدلت حال الأمة الكبيرة فبعد أن كانت تحمد فى العالمين ، وتعد أفضل أهل الأرض تنزل السخط عليها فى الآفاق وسارت بمذمتها الركبان ، فإذا هى ملعونة حيث حلت وحيث ارتحلت ، وعلى لسان من طعنت هذه الأمة ؟ إن الحملة عليهم لم يقدها صحافيون مرتزقة ولم تتوسع فيها دعايات مغرضة ، كلا ، إن أنبياء الله أنفسهم هم الذين تولوا قمع هذه الأمة وإذلال كبريائها وفضح خباياها « لئن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

ثم غرست هذه اللعنة فى أرض إسرائيل لشمر الغضب والنقمة على كره الدهور ، ولتنقل من الأجداد عدوى الخسة والقدرة إلى الأحفاد ، ولتنشر الكراهية ، فى أنحاء الدنيا للذرائع النابتة بعد الأجيال المنقرضة .

وكما تجمعت مشاعر المقت فى أحد العصور ثار بها مغامر جبار فقاتل اليهود واستباحهم استجابة للنعنة الخالدة ، وتمشيا مع قول الحق فى كتابه « واذ تأذن ربك ليعمّنَّ عليها إلى يوم القيامة من يسوءهم سوء العذاب . . إن ربك لسريع العقاب وأنه لغفورٌ رحيم » .

إنه على قدر عظمة النعمة تكون بشاعة الجحود وتكون صرامة العقاب ، وليس ذلك قانونا خاصا بجنس ، أنه عدل الله فى أهل الأرض طرّا . . فإيؤثر الله أمة إلا بمقدار ما تنطوى عليه من خير ، وما يهين أخرى إلا بمقدار ما تسلف من إثم « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » . . . « ولكل درجة مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » .

ومدخل الشر إلى نفوس الأفراد ، الجماعات هو ظن السوء بالله ، أعنى الظن بأن الله يخفض ويرفع دون حكمة باعثة على الخفض والرفع . وهذا ضلال كبير .

عند ما يتوهم الطائر أنه يحلق من ذاته لا من جناحيه فيخلمهما عنه . فسوف يبق في مكانه لا يريم . ولن يرتفع عن الأرض قيد أنملة .

وقد حدث الله عن موسى فأبان أنه وهبه الحكم والعلم بعد ما اكتملت قواه ونضجت ملكاته .

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكما وعلمنا . وكذلك نجزي المحسنين » فكان إحسان موسى هو الذي رشحه لهذا الإكرام الأعلى .
أفترأه ينال شيئا من ذلك لو بدا عجزه وظهرت فجأته ؟

وقال الله عز وجل مبينا — سنته في قيادة الأرض ووراثته خيرها : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . إن في هذا لبلغا لقوم عابدين » فهل يعنى ذلك إلا أن وراثته الأرض هى من حظوظ الصالحين وحدهم — وأن الذين فسدت عقولهم بالجهل وفسدت قلوبهم بالهوى لن يمكن لهم أدنى تمكين في شبر ضيق من أقطار العالمين !!

الحزن في تاريخ الأفراد والجماعات أن العصاميين يظنون معترِّين بفضائل الكفاح والعمل صاعدين إلى القمة بأساليب التقدير الصادق والتفكير السليم حتى إذا استقروا ، تغير المنطق القديم ! فإذا بهم يكرمون المناصب والأنساب ولو كانت إلى جانب الصم البكم الذين لا يعقلون . . . !

ولقد نسى اليهود نشأتهم الأولى والأحوال التي نالوا بها رضوان الله . وحسبوا أنهم لو تغيروا فلن يغير الله ما بهم ، فكان من عقابهم ما رأيت . .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خبيرا بطبائع الأمم وأسرار المجتمعات يوم اخترق أسداف الغيب ، ثم تصور أن أمته قد يعتربها ما اعترى غيرها فقال — منفرا محذرا — لياثين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان فيهم من يصنع ذلك . . . »

وقال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم ! قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : من ؟؟ . .

فهل درنا في الدوامة نفسها التي أغرقت الأولين ؟ إن تمثال الخلافة الإسلامية في الآستانة سقط من ثلاثين سنة ، أما الأمة نفسها فهي - من قبل ومن بعد - قد قطعت أمما يتنادى اللثام على أكلها ، فإذا فتحت عينيك على مصير المسلمين الكالح لم نلبث أن نغمضهما على القذى ! فكيف كان ذلك ؟

(٢)

هل يدري الخمور ما يصنع عندما يفقد وعيه وتترنح خطاه ذات اليمين وذات الشمال ؟ لا . إن صوابه الضائع يخيل إليه الأمور معكوسة . فقد يفنى ويضحك حيث يجب عليه أن يبكي ويحزن !!

لكن الذين يرقبونه عن قرب أو بعد يعرفون ما يقع منه ، ويبنون أحكاما على مسلكه أدنى إلى الحق من أحكام هذا السكران على نفسه ومن تصوره لما يفعل ويترك . . .

وحال المسلمين ومن قرون قريبة المشابه من حال هذا المخبول الذي دارت العقار برأسه .

فقد انطفأت مصابيح الإسلام بأيديهم وأمسوا يسرون بلا خطة ويحكمون بلا شرعة ، ويفكرون بلا عقل ، فلو قست مسافة ما بينهم وبين الرسالة التي آلت إليهم لكانت بعد ما بين المشرقين !

كانوا في عالمهم الحالم لا يدركون ما انتهوا إليه من ضعف في أفكارهم وفي أعمالهم وفي وسائلهم وفي معاشهم .

لكن أعداءهم الأبقاظ لم يغفلوا عن هذا المصير ، فوقفوا يتربصون به ومعهم المعاول التي يحفرون بها قبره . . .

وهل غفل أعداء الإسلام يوما عن الكيد له ؟ إن الغزو الصليبي الأول ظل طيلة قرنين عنيدا في محاولاته اليائسة يعني أن يبحث أصوله ، فلما ارتد مدحورا عاد أدراجه ليتأهب لا ليستريح . . . فلما كر بعد إعداد طويل لم يكن في المرة الأخيرة وحده ، بل كانت معه الصهيونية الحاققة ، وقد حشدت بني إسرائيل معها . . . نعم ! بني إسرائيل !

قد تقول : ومن أين جيء بهم بعدما مزقوا شر ممزق وحاقت بهم لعنة الله فنبت بهم البلاد ، وأوغرت عليهم صدور العباد ؟

والجواب أن اليهود لم يفكروا منذ كسر الصحابة شوكتهم في القرن الأول أن يدخلوا مع المسلمين في حرب ما ، ومرت أحد عشر قرناً من تاريخ الإسلام ، واليهود لا يخطر بأنفسهم — ولو مع الأمانى الطائشة — أن يدخلوا مع المسلمين في حرب أبداً ، كيف وحسبهم النجاء حيث كانوا ؟ حتى رأوا بأعينهم الأمة المرهوبة تضمحل . وتذوى فضائلها . ويدل جانبها ، وتهز الفتى الساحقة كيائها ، فعملوا أن أمرها أدبر ، وأن غضب السماء إذا كان قد نزل بهم مرة ، فقد نزل بعدوهم مرة ومرة . ومن ثم تحرشوا بالمسلمين ، وما زالوا يناوشونهم حتى اغتصبوا منهم فلسطين ، ثم تهادى الفرور بهم حتى صاروا يزعمون أن أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل . ! أرايت كيف كنا وإلى أين انتهينا ؟ فهل ظلمنا ربك ؟ كلا . ولكنه أنزلنا على سننه الخالدة ، كما أنزل غيرنا من الأمم .

إن الله لم يكره من اليهود أنهم دم معين ، وإنما كره منهم أخلاقاً إذا تحولت إلى غيرهم تحولت معها الكراهية إليهم

لقد انتصر السابقون الأولون من المسلمين لأن أسباب النصر المادية والأدبية ترعرعت في بيئتهم حين صفت منها بيئات أخرى . فانظر إلى أحوال أمتنا من خلال هذه الصور التي أعرضها عليك .

لم يبخل اليهود بالمال لإنجاح قضيتهم . بل عرفوا كيف يكسبونه كثيراً وفيراً ، وينفقونه كثيراً وفيراً كذلك لبلوغ مآربهم وتحقيق آمالهم ، فعند ما نهض زعيم الصهيونية الكبير « هرزل » لينشر دعايته في ربوع العالم التقى « بالبارون دى هيرش » الذى أسس جمعية الاستعمار اليهودى وغرضها إسكان مشردى إسرائيل في بعض أقطار أمريكا وكان قد رصد لذلك عشرة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص . ! ! ! رجل واحد ينخلع عن هذه القناطير المقنطرة كلها في سبيل عشيرته ؟ في الوقت الذى يرضن فيه أصحاب الثراء الواسع عندنا عن بذل عشر معشار ذلك في سبيل ربهم

وأمتهم ! بل في الوقت الذي تستغل فيه معارك الجهاد لاقتناص المال سحتا من المتاجرة بالسلاح المغشوش !

والعاطفة التي بعثت اليهود على أن يجودوا بأموالهم جعلتهم يمتلكون الأرض عن طريق الشراء السهل ، قبل أن يمتلكوها عن طريق الغصب المسلح .

إنهم على البعد شرعوا يصوغون قصائد الغزل في أرض فلسطين ، ويقصدون خصبها وجديها ، ويملقون الأفئدة بحبها والفناء فيها ، وانظر إلى أغانيهم في تعشق الوطن المفقود « إن للحجامة البيضاء عشاً صغيراً ، وللشعلب وكراً ، ولكل إنسان وطنه ، إلا اليهود فلهم القبور ! » .

وجاء على لسان البطل في إحدى الروايات « تسأليني عن أعز أمنية عندي ؟ وجوابي : هي أرض الميعاد ! وتسأليني عما يداعب أحلامي فأقول : أورشليم ! وتسأليني عما يستهوى فؤادي ، فأقول : أنه الكنعيس ! أجل ، أريد كل ما فقدناه في سالف الزمان ، وما تهفو إليه نفوسنا ، وما جاهد آباؤنا وأجدادنا في سبيل استرجاعه . . بلادنا الجميلة وعقيدتنا القدسية وعاداتنا البسيطة وتقاليدنا القديمة » .

هذه الحرارة التي نشيء عليها بنو إسرائيل قبل هجومهم علينا ، أين غابت عنا ؟ وكيف يقاس بها الشعور البارد الميت الذي جعل أناساً من العرب يفقدون إعزازهم للأرض التي عاشوا عليها دهوراً ، فيتركونها لخصومهم بضمن بخس ؟ أعرف أن الفتى ورجال الفقه أصدروا أحكاماً مشددة بارتداد من يبيع أرضه . بيد أن تكوين الأمم لا يجيء عن طريق الفتاوى المخوفة .

إن الأمم قبل كل شيء قلوب تهزها المواطن الجياشة وعقول تقودها الأفكار السليمة .

ويوم تجمد القلوب فلا تنبض بماطفة . ويوم تقف العقول فلا تتحرك بفكرة ، فما تراه موضع الفتوى منها ؟ .

إن المسلمين في تخلفهم الهائل عن قافلة العالم كانوا لا يدرون شيئاً ذا بال عما يقع في أقطار الدنيا القريبة منهم بله البعيدة عنهم ! .

أكانوا يتابعون أنباء المؤتمرات التي يعقدها اليهود بين الحين والحين ؟ والتي كانت مطامعهم تثب فيها إلى الأمام وثباتاً .
كم كنت أضحك محزوناً وأنا أقرأ أن العمال العرب كانوا أحظى عند المزارعين اليهود من غيرهم ، لرخص أجورهم ! .

وأمس قرأت النبا الضخم في صدر إحدى الصحف « الجنود المراكشيون يتمردون على ضباطهم الفرنسيين » فصحت مرة أخرى أسفاً . إن هذا الخبر لا يدل على ميلاد الحرية في شعب مسلم مستضعف قدر ما يدل - في نظري - على الهاوية التي انحدرنا إليها ، إن هؤلاء المسلمين المسخرين في بلادهم للأجانب الطائرين ، والذين استأنسوا فصاروا عمالاً لليهود ، أو جنوداً للفرنسيين هم أشبه ما يكون بقطار من الجمال البلهاء يقودها طفل . . .

لقد مرحوا في بلادهم دهرًا وهم آمنون من مكر الله ثم صموا وقيود الهوان تغل أيديهم وأرجلهم . . .

أما ملوك المسلمين في هذه الأعصار الكئيبة ، فحدث ولا حرج ! .

حدث عن قردة وخنازير ، لا عن رجال أمناء مسئولين .

كم كانوا يقتتلون على الإمارة ويتواطئون مع المستعمرين ليطمئنوا على بقاء الملك في بيوتهم الرفيعة ! ولو ضاعت في سبيل ذلك شعوب مسلمة !

وقبل أن نذكر لذلك المثل من قضية فلسطين نفسها ، نذكر الحوار الذي دار بين زعيم إسرائيل ومنذوب حكومة إنجلترا حين كان الزعيم اليهودي يسمى في إيجاد وطن لقومه من أربعين سنة وفي سبيل ذلك أسدى لإنجلترا خدمات جليلة تستحق المكافأة فقال له لويد جورج : إنك أديت للدولة خدمات عظيمة وأود أن أطلب إلى رئيس الحكومة أن يوصي بك عند صاحب الجلالة فينعم عليك بوسام رفيع ! فأجابه قائلاً : إني لا أريد شيئاً لنفسى .

قال : ألا نستطيع أن نقدم لك شيئاً عرفانا لجميلك وما قدمت يدك لهذا البلد ؟
قال : بلى أريد أن تعملوا شيئاً من أجل الشعب الذي أنا واحد من بنيهِ .

كان هذا الحوار هو اللبنة الأولى في إعطاء فلسطين لليهود .

وبعد أن حدث بنيف وثلاثين سنة اجتمع برلمان إسرائيل في أرض الميعاد ليختار « حايم وايزمان » رئيسا للدولة اليهودية الأولى بعد ألفي عام !
والرجل لاريب أهل لهذه المنزلة في قومه .
وليت حكمانا - نحن المسلمين - في مثل هذا الإخلاص للأمم التي يرأسونها .
إن الجبهة الإسلامية يوم استصدر « وايزمان » ، تصريح « بلفور » كانت تمسة سقيمة .

حاف الترك على العرب .

وغدر العرب بالترك .

وتحركت البيوت النزاعة للشرف والسيادة ! تنشد مجد أربابها وتحاول إقامة ملك عربي لها .

كذلك فعل الملك حسين وأبناؤه بالمسلمين .

ولندع أحداث التاريخ تتكلم قال امرائيل كوهين : سافر « وايزمان » إلى العقبة لقاء الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة . وكان الأمير قد أعلن الثورة في وجه الأتراك بعد أن تصل « بمكهاون » المندوب السامي البريطاني في القاهرة وبعد أن وعده هذا المندوب أن يحكمته تمنح ! الاستقلال للعرب الذين يقدمون مساعدات فعالة للحلفاء (كذا) .

قال امرائيل كوهين : وادرك فيصل أن فلسطين لا تدخل ضمن الأراضي التي ستضم للدولة العربية الهاشمية . عندما زار لندن ووقع بصفته مندوبا عن الدولة العربية اتفاقا مع « وايزمان » بوصفه ممثلا لفلسطين !

قال : وفي ٦ فبراير سنة ١٩١٩ أشار الأمير فيصل رئيس وفد الحجاز في مؤتمر الصلح إشارة رسمية إلى فلسطين حينما ذكر أنه يترك مسالتها ذات الطابع الدولي ! يتولى دراستها أصحاب الشأن وفيما عدا ذلك طالب باستقلال المناطق العربية الواردة في مذكرة وفد الحجاز !

انظر كيف يبني زعماء امرائيل وطننا لقومهم ، وكيف يبني أمراؤنا ملكا لأنفسهم ؟

إن الفتنة المحيرة أن يتصدى لخدمة الإسلام أناس تجردوا من فضائل الإيمان ومن فضائل الرجولة جميعا على حين يتصدى لخدمة النزعات الأخرى قوم لهم عقول للاحقة وهم سباقه .

وما يكون مصير عراك تفاوتت أركانه وانصاره على هذا النحو ؟

حق تنصره الشهوة وباطل يشده الإيثار ؟

دين عطل من أولى الأيدي والأبصار وإلحاد يعينه العباقرة والمهالقة ؟

إن النتيجة المخزية لا محيص منها . .

والله عز وجل لا ينصر الحق بوضوح أدلته واستقامة طريقته . ولا يخذل الباطل بموج دعوته وسوء خاتمته وإنما يبلو أصحاب الحق بأصحاب الباطل . وعلى قدر ما يبذل كلا الفريقين من جهود ونضحيات تكون النهاية الحاسمة . . « ذلك ولويشاه الله لا تنصر منهم ، ولكن ليبلو بمضكم بيمض » .

ويؤلمني أن أقرر الحقيقة المرة أن الرجال الذين ساندوا قضية اسرائيل في غضون قرنين وخاصة في أثناء الحرب العالمية الأولى كانوا أصحاب عقيدة وجلد وبذل .

أما الأمراء الذين وقعت أزمة المسلمين في أيديهم فقد كانوا دون ذلك ، والأمركا قليل :

إذا جعلت أذناننا أروسا لنا غدونا بحكم الطبع نمشي إلى الورا

في ١٣ فبراير سنة ١٩١٩ وقف شكري غانم رئيس الوفد السوري في مؤتمر الصلح يطالب بإنشاء دولة ديمقراطية مستقلة في سوريا . أما عن فلسطين فقد صرح بأنها تعد الجزء الجنوبي من سوريا ، إلا أن الصهيونيين يطالبون بها ! ولما كان السوريون قد قاسوا من الألام مثل ما قاسى اليهود فإنهم يتركون لهم أبواب فلسطين مفتوحة مصاريحها ! وليأت كل من عانى الاضطهاد وذاق العذاب . ولتمنح استقلالاً ذاتياً على أن تنضم لسوريا في صورة اتحاد « فيدرالى » .

هل سمعت هذا الكلام السقيم وهذا التصور المخبول لتطور الحياة العامة ومطامع الآخرين في تراث الإسلام ؟

بهذا الفكر هزمت قضايانا وتقهقرت أمتنا وتضاعفت خسائرها وبهذا اللون من الزعامات السياسية عندنا سار اليهود قدما في إنفاذ برنامجهم الخطير .

وزعيم الوفد السوري يشير في كلامه إلى مآسى الحكم التركي وما أنزله بالعرب في مصر والحجاز وسوريا من هوان . . . وجدير بنا أن نقف قليلا لنمحص هذا الكلام ونستكشف خباياه ونستبين وزنه .

قد يكون من حق العرب أن ينقموا على الترك بطشهم بهم وجهالتهم عليهم . ولكن ليس من حق العرب أن يتدبروا بذلك إلى اهدار الوطن الإسلامي العام ووحدة المسلمين الكبرى . .

إن للجنسين العربي والتركي خصائص بعضها عظيم وبعضها تافه . .

وقد حكم العرب باسم الإسلام وحكم الترك باسم الإسلام فلم يخل كلا الحكامين من أعمال تسربت إليها النزوات الصغيرة وربما كان الأتراك أشد أثره وأقسى قلوبا غير أننا لا ننسى أن استبداد سلاطينهم قد أساء إليهم مثلما أساء إلى غيرهم .

وعندى أن فظاظة الترك في معاملة العرب جريمة ما كان قصاصها أن ينضم العرب للانجليز في حربهم للترك .

إن هذه الخيانة المظلمة أخذت — في ظاهرها — طابع الثأر من دولة الخلافة الجائرة . . بيد أنها في باطنها لا تعدو أن تكون مطامع أفراد دينهم هوام ووسائلهم كل ما أمكن من حلال أو حرام .

إن تصوير هذه الخيانة بأنها ثورات شعوب مضطهدة وانتهاء فرصة التحرر فتشبت بها أمر بعيد عن الحقيقة .

لقد أفلحت سلطة الاحتلال في مصر أن تجند نحو مليون ونصف عامل كانوا سندها في إبادة الجيش التركي في المعارك التي دارت بصحراء سيناء وجنوب فلسطين !

ووثب الأعراب المشايخون للشريف حسين على الحاميات التركية في الحرمين وأنحاء الجزيرة وأمكنهم أن يفنوها في مجازر رهيبة !

وأكمل اليهود هذه السلسلة من الهزائم الشائنة . فعندما دخل النبي مدينة « أورشليم » تألفت منهم عدة فرق اشتركت في مطاردة الغلول العثمانية المشخنة بجراح الفدر والوقية . قال اسرائيل كوهن : فلم تمض سنة حتى كانت فلسطين مطهرة من العناصر الأجنبية^(١) .

وهكذا انقضى عهد الأتراك بعد أن دام ثلاثة قرون . . !

وأنتم مصطفى كمال فصول المأساة فأعلن كفر الدولة بالإسلام والعرب . ونجحت سياسة انجلترا في إخراج المسلمين من هذه الحرب أمة لا وزن لها ولا مكانة .

لقد خان ساستنا القدامى دينهم وتاريخهم وحالفوا انجلترا ففدرت بهم .

ووفى اليهود لدينهم وتاريخهم وحالفوا انجلترا فاحتضنت قضيتهم .

ترى أى الفريقين كان أبصر بمواقع قدمه وأحفظ ليومه وأمسه وغده ؟ ؟

(٣)

لم يجيء غلب اليهود علينا صدفة عارضة أو معجزة خارقة أو قدرا قاهرا ، كلا ، بل جاء نتيجة متسقة مع مقدماتها كما يجيء حاصل الجمع أو باقى الطرح صحيحا فى حساب الأرقام .

كان المكس — لو وقع — وهو الأمر الذى يستحق التساؤل ويحتاج إلى ألف تفسير ! !

وصحيح أن جمهور المسلمين خاض المعركة وهو واثق من كسبها ، إنه فى طوفان الخطب الرنانة والمقاتلات الحاملة لم يحسن تقدير شيء مما عند خصومه ، بيد أن قوانين الكون لا تلين مع من يجهلها . .

هب قرية فى الريف تركت الحقول من غير غرس وسقى ، ثم اجتمعت فى المسجد تبتهل إلى الله أن يمنحها ثمرا طيبا .

(١) النصوص التاريخية المثبتة هنا منقولة عن كتاب « هذى هى الصهيونية » .

أوهب جماعة من العزاب ترهبوا وانقطعوا في صوامعهم وطلبوا من الله أن يرزقهم البنين والبنات .

إن هؤلاء وأولئك ستنشق حناجرهم بالدعاء ثم تعود أيديهم صفرا . . .

ولقد أحسست — بعد بلاء طويل — أن مافاتنا في مضمار الخلق الشخصي والتعاون الجماعي ، يشبه مافاتنا في ميدان العلم المادى ووسائل الكشف والاختراع ، والصناعات والإنتاج .

ولندع علماء الحياة في بلادنا يلهمشون وراء أساتذتهم في الغرب يقتبسون منهم وينقلون عنهم . ويحاولون جاهدين أن يرقوا بأوطانهم في نواحي المعرفة وآفاق الحضارة ، لندع علماءنا هؤلاء في جهادهم الحميد ، ولترقب يوما تشاد فيه المصانع الخفيفة والثقيلة لتمدنا بحاجتنا الماسة إلى ما يدعم جانبنا في السلم والحرب على سواء ولتغنى فقرنا الفاضح في شئون العمران كلها ، ولتضع نهاية لقول الشاعر :

إن الذين بنى « المسلة » جدم لا يحسنون لإبرة تشكيلا !!

نعم ، لندع هؤلاء في جهادهم ! ولنتجه — نحن المربين — إلى ميدان آخر لا تزال تتمتع في ساقته أو مؤخرته بينما ملك غيرنا الطليعة ومضى في سباقه لا يلبى على شيء .

يجب أن نصارح أمتنا بأن حصيلتها من أخلاق الحياة الصحيحة وتقاليدها الجماعات الموقفة أنفقه من حصيلتها في علوم الذرة . . . !!

وما بنا من عشق للأزراء على أمة نحن منها ، يزينا ما يزينا ، ويشينا ما يشينها !

إنما هي رغبتنا في الإصلاح ، وفي علاج الأدواء الدفينة ، تجعلنا نصيح محذرين أو نلكرز النيام موقظين . وخصوصا إذا كان العليل مخدوعا في نفسه ، لا يجهل علمه فحسب بل يحسبها بعض ما أوتي من قوى . .

وقديماً رأى العلماء أن الجهل المركب أغلظ من الجهل البسيط ، وأن الأدعياء — من كل لون — لا يرجى لهم خير . .

إن الأمثال تضرب لفساد « الزوتين » الحكوى عندنا ، وهذه الكلمة غطاء
لقصور أو تقصير جمهور الموظفين وتراخيهم المحزن في أداء واجبهم .
وذوولهم التام عما حملوا من أمانات ، وجروا من تبعات .
ومسلك كثير من الموظفين يظهر تقطع الأواصر بين الفرد والأمة التي نبت
فيها والدولة التي تشرف عليها .

وقد تنقلت في إدارات ومصالح شتى فوجدت العيب الأول في الموظف نفسه ،
لا في النظام المرسوم له مهما كان معقدا ، فهو يوم يريد إنجاز أمر يعنيه يوطئ له
الطريق ويسيره بسرعة البرق ، وإلا أداره في حلقة مفرغة لا يخرج منها أبداً . .
أى إن المشكلة في « الخلق » و « الضمير » قبل كل شيء .

ولما كانت أمعاء الدولة داخل هذه الدواوين الراكدة ، وبين أصابع مديري
وكتبة من هذا الطراز ، فلا عجب إذا أزمنا فيها « المغص » وتمغنت فيها
حاجات الناس .

وتعدو الأداة الحكومية إلى غيرها من نواحي مجتمعنا الأخرى ، فيروعك
في القرية وفي المدينة جميعاً أن المسلمين صرعى تقاليد بالية وأفكار مريضة .

فالعبادة في فهم القدر كسرت الهمم وأقعدت الآمال .
والعبادة في فهم التوكل أشاعت الفوضى وأغرت بالكسل .

ولما كانت الغرائز الدنيا أقوى من أن تكفها الأخطاء السائدة في فهم الحياة
فقد انطلقت تخط لنفسها مجالا بدائياً يسر ارتكاب الجرائم واقتراف الدنيا حتى بلغ
عدد الجنايات عندنا حداً مروعا .

وإنك - للنظرة الأولى - تلمح الانهيار والتفكك الغالبين على النفوس
مع أن ذلك - في حكم القرآن - من أمارات الكفران والبعد عن الله « ولا تُطعْ
من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً » .

وقد اضطرت - وأنا أعظ الناس أحياناً - أن أنفي القدر الذي يرادف
في أذهانهم الجبر .

وأن أنفى التوكل الذى يعنى فى أفهامهم السكون .

وأن أنفى الرجاء الذى يجعلهم يتوقعون رحمة الله بغير عمل ، ونصره بغير جهاد . .
إن تأخرنا الاجماعى يجب أن ينتهى على عجل ، وإنى أسوق هنا قصصا عرفتة
من تجوالى جنوبي فلسطين عقب محقتها الأخيرة ليقارن العقلاء بين أحوال اليهود
وأحوالنا . وليعرفوا سر انتصارهم وخذلاننا .

قال لى أحد رؤساء العشائر : خرب الدولاب الذى يستخرج الماء من البئر
فى حقنا . فذهبت إلى الإخصائى اليهودى فى المستعمرة القريبة كيما يأتى لإصلاحه !
وبكرت إليه أنمجله فإذا به يقوم بأعمال موكولة إليه فى المستعمرة فوقفت أحداثه
وأتبسط معه وناولته « سيجارة » ! فأخذها ووضعها على أذنه ثم قال : إن الوقت
إلى الساعة الثانية بعد الظهر من حق المستعمرة فلا أحب أشغله بشيء .

وعندما أنتهى منه أذهب إليك مساء .

وحسم الموقف ليستأنف خدمة أمته ورعاية شئونها . .

ونزع يهودى من « ألمانيا » إلى فلسطين فى أثناء اضطهاد « هتلر » لقومه ،
وكان الرجل ذا ثروة كبيرة ، تركها خلفه وهو هارب . فلما تغيرت حكومة ألمانيا ،
وعوض اليهود عما فقدوا أرسلت لليهودى النازح أمواله ، وكان آتئذ فقيرا يشتغل
خفيرا فى إحدى المستعمرات .

فقال له عربى يعرفه : إن الثراء هبط عليك فجأة ، فهل ستشتري المستعمرة كلها
لتصبح مالكا لها ، فقال اليهودى الخفير : ما أفعل بالمال لنفسى ! إن أولادى يتعلمون
بالمجان فى المدرسة ، وقد كبرت سنى ! فسأهب هذا المال كله لشئون المستعمرة
العامة ، ولن أطلب من المسئولين إلا أن يغيروا الكلب الذى يساعدنى فى الحراسة
فقد ضعف بصره . . . !

أرأيت إلى ما تحلى به هؤلاء الناس من إيثار وإخلاص ؟ ثم أرأيت إلى ما تخلفنا
نحن عنه من فضائل الكفاح وأدواته ؟

من أجل أى شيء ينصر الله الجاهل على العلم والفوضى على النظام ؟ ؟

لقد كان جند الإخوان المسلمين أحسن من تصدى لقتال اليهود والدفاع عن

الأرض المقدسة . ومع ذلك فلن أنسى أبدا تفاصيل أول معركة دارت بين شباب الإخوان ومستعمرات « ديروم » وهي المعركة التي فقدنا فيها اثني عشر شهيداً من خيرة أهل الأرض إيماناً وشجاعة ، ولم تفقد فيها المستعمرة الصهيونية إلا الرصاصات القاتلة . . . ! ! ولم ؟

لقد رسم خطة الهجوم طفل كبير ، لا يدري من فنون القتال إلا قراءة الأوراد وإطلاق المسدسات فكان ما كان . . ! !

يا عجباً ! تعوزنا أخلاق البذل والإقدام ، فإن وجدناها فقدنا مواهب القيادة الصحيحة !

لقد أسسنا مقاتلي اليهود رجال العصابات ، وكلمة عصابة تعني نفرا من اللصوص يشتغلون بالسلب والنهب ، يسطون على الأمنين . ويتحينون الفرص للغدر والفرار . . فهي على النقيض من كلمة حكومة التي رمز إلى رياسة محترمة وإدارة نابهة ونظام واضح ! ! وعندما اشتبكت عصابات اليهود مع دول الجامعة العربية السبعة لم يتوقع المسلمون إلا أن هذه الحكومات المهيمة ستؤدب العصابات الثائرة وتسترد منهم الأرضين والأموال التي أغاروا عليها وأخذوها .

فلما التقى الجمعان علم المخدوعون أن المناوين المزورة لا تنفي عن الحقائق الكريهة . إن باعة البصل ينادون عليه في أسواقنا بالزمان ، وباعة الترمس يصيحون عليه بالوز ! ! وهيئات أن ينطلي هذا الدلال على أحد . .

الوكالة اليهودية كانت حكومة مزودة بأذكي الخبراء وأقوى الجيوش وأعتى الساسة ، فلو سألت الجهة المختصة فيها عن شبر من صحراء النقب لأعطتك بياناً شافياً عن طبيعته وقيمته ومدى قربيه أو بعده عن الماء ، ولاستخرجت لك مصورات جغرافية وجيولوجية تشرح كل شيء فيه . .

أما رؤساء اليهود فهم رسامو العقائد الصهيونية وجامعو الشمل الممزق في المشرق والمغرب . .

وأما اليهود أنفسهم فقد أبنا لك طرفاً من الحياة التي جمعت بينهم وصهرتهم خلقاً جديداً . .

كانوا شعباً فتياً يطلب الحياة ويدنى مستقبله ..

فكيف كنا نحن ؟ اشتركت بعض دول المسلمين في القتال بقوى رمزية لأنها ..
لا قوة لها !! وقنع البعض الآخر بالدفاع عن حدوده وحسبه أن ينجو بجلده !!
والبعض الآخر كانت قيادته في أيدي أعدائه المحتلين ..

أما مصر ، كبيرة دول الجامعة ، وقطب هذه الحرب ، فقد كانت تحكمها عصابة
تشتغل بالسلب والنهب والاغتيال ..

ففي ظل دستور لم تحترم منه مادة . قتلت حسن البنا ، وأهدرت دمه ! وفي ظل
دستور يجعل الشعب سيد نفسه سلبت جميع السلطات ووضعت في يد غلام عابث
يسمى صاحب الجلالة الملك ..

ورصدت الألوف المؤلفة لتحرير فلسطين ، فسرقت شطرها وشرى بالشطرنج الآخر
أسلحة لاجدوى منها ..

ودارت الحرب ، فرسم خططها رجال لو التحقوا بالجيوش الأخرى لجرّدوا من
أوسمة القيادة لأنهم لا يحسنون شيئاً أبداً ..

فوقع ما لم يكن منه بد ..

وطارت القشور التي صنعها الخداع ، فإذا بعصابات إسرائيل جيش مخدور
الفتك ، وإذا بكثير من حكوماتنا عصابات سطت على الحكم فسلبته .
وغررت بالأمة الحائرة فأهانها وأذلتها ..

كيف تبارك السماء هذه المهازل ؟

إن المسلمين أحوج أهل الأرض طراً إلى أن تشخص لهم عيوبهم كي ينافوا
عنها ، فإن الذين يتجاهلون الحقائق ربما دفعوا ثمن هذا التجاهل اجتياح بقيتهم
واستئصال شأفتهم ..

إذا كانت بضاعتنا الوهن والخلط والنكوص ، وبضاعة أعدائنا الجرأة والأمل
والحكمة ، فأين نرجح ؟

إن القرآن عاب اليهود قديماً بأمور معينة ، وصف تخوفهم من الناس وحذرهم

من الخلق — مع جرأتهم على الله بالمعصية — فقال : « لأنتم أشدُّ رهبةً في صدورهم من الله . . . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

ووصف تقطع أواصرهم بالهوى واختلاف قلوبهم بالضعائن فقال : « تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » .

ووصف طمعهم في أموال الناس وحرصهم على أكلها سحتاً ، فلا يردونها إليهم إلا عن إلحاح ويقظة منهم . فقال : « وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بَيِّنَارٍ لَا يُوَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمَتْ عَلَيْهِ قَائِمًا » .

ووصف غرورهم بالانتساب إلى الله وأمل عاقبتهم في نيل النعيم المقيم دون عمل خطير وبذل جسيم فقال : « وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » .

ووصف تحاسد العلماء وغمطهم لصاحب الكفاية وتحقيرهم لما آتاه الله فقال : « وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كِفَارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ » .

ووصف تحجر طبائعهم ونضوب الرحمة من قلوبهم ولعهم بالنصوص التي نزلت لهدايتهم فقال : « فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ » . .

استقص هذه الرذائل التي أسقطت غيرنا ، ثم سل نفسك . أليست لها نظائر بيننا ؟
نظائر ؟ إنها هي بعينها . .

فر اليهود الأخلاف منها وتهاوينا نحن فيها . .

فإذا التقينا بهم في صدام عنيف فكيف يُدِيلُ الله لنا منهم ؟ .

والغريب أننا لا نعترف بعلمنا ونبدأ في التخلص من شؤمها .

وقف من شهور وكيل للإخوان يقول للسامعين : إن الشرق والغرب يأخذان

نظام الحياة من جماعتكم ويقتبسان الدقة من أعمالكم (!) وحملق أحد العقلاء

في صاحبه كأنه يسأله عن عقبي هذا الهراء . . إن المسلمين يُعدون جبهة مغايرة لكتلتا

الجهتين المتخاصمتين في الشرق والغرب ، ذلك بلا ريب ما تقتضيه تعاليم الإسلام ، وما توجيه آيات الكتاب والحكمة ، فافرض جدلاً أن زمام العالم أفلت من أيدي الروس والأمريكان لتتسلمه هذه الجبهة الثالثة ، ترى ما يحدث — والحالة هذه — ؟ .
إن حركة العلم والصناعة سيعروها توقف مبالغت ، والدنيا المأججة بفنون لا حصر لها من المشاعر النابضة والأفكار اليقظة ستشل !!

قد نقول : لكن الربانية والفضائل والطاعات ستفتش وتشتت ، وهنا لا أملك نفسى من الضحك ! إن مسلمى مصر والحجاز واليمن أمثلة حسنة ولاريب لهذه المعانى ! ! وإني لأتخيل هذه الأقطار في وضعها الراهن — تحتل أما كن الصدارة في العالم ، فتأخذنى حيرة مظلمة !! ..

إن فاقد الشيء لا يعطيه ، والذين عجزوا عن تحكيم الإسلام في نفوسهم وبيوتهم وصفوفهم لهم أعجز عن تحكيمه في حدود دولة صغيرة بله حدود العالم الكبير . .
ألا فلنعرف أنفسنا ولنصلح شئوننا ، يغير الله ما بنا ، وإلا فالأمر كما قال الله :
« وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم » . .

(٤)

في هذا الجزء المنكود المنزع من وطننا الكبير يحاول بنو إسرائيل ترسيخ أقدامهم ومضاعفة قواهم .

وإنهم ليقبعون وراء الحدود الموهومة التى أحاطوا بهادولتهم لا ينقصهم جد ولا عبوس ، يتأهبون ليوم آخر قد تفكش فيه هذه الحدود حتى تتلاشى وقد تنسع حتى ترضى أمانى الغيرين الغامرين .

وطالب الملك لا يأسى على مغرم ولا ينكص عن تضحية .

وكما قال امرؤ القيس قديما لصاحبه :

فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا . .

وعلى أطراف الأرض التى اقتطعها اليهود والتى لا تزال الدماء تقطر من حز السيف فى تمزيقها .

على هذه الأطراف المحزونة يسكن العرب اللاجئون . أصحاب البلاد
الطرودون ، وقد بلوا بأشياء كثيرة من الجوع والخوف ونقص الأموال
والأنفس والثمرات .

إننى عشت معهم ليالى وأياما ، عرفت فيها نفوسهم عن قرب ، وسمعت أزيز
البكاء الذى يغلى فى أجوافهم لغدر الأقارب والأباعد بهم ، وخسونة الحياة التى سحقت
كرامتهم وأكرهتهم أن يتسولوا الإعانات من قاتليهم وكانوا قبلأهل جاه ومنعة ..

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا وتصرّف

كنت بعيداً عن أسرتى . فكلمنا أقبل ولد من بعيد نفرست فيه ملامح أولادى
وكما انتحب طفل على ذراع أمه التى أنحفها الفقر الدائم وجفّ فؤادى . وقد أقارن
بين أولئك اللاجئين الحيارى وبين أهل الاسكندرية عند ما فروا من الغارات فى
الحرب الأخيرة فخرج النساء والأولاد والرجال يطلبون النجاة فى المدائن والقرى من
الرجوم المهلكة التى تهددت مدينتهم . . .

لكن الفرق بعيد ، إن أهل الاسكندرية وجدوا إخوانهم فى أنحاء الوادى
يخففون روعهم ويسكنون جأشهم . أما أولئك اللاجئون فهم محبوسون فى مخيماتهم
لا يدرون ما يأتى به الغد فرب رجل جثا بعد مهابة ، وأم تبذلت بعد احتشام ،
أما الأجيال الغابطة فى هذا التيه المائج فإن الخططة المرسومة لها أن تنمو وليس لها
صلة بأرض ولا ثقة بأهل ، ولا رضا فى حاضر ولا أمل فى مستقبل ، وهل يدع سمار
الحرمان فسحة فى قلب أو فسحة من وقت لشيء من هذا . .

إننى لا أعجب لشيء عجبى لأن اللاجئين بقوا إلى اليوم أحياء مع أن الاستعمار
الغربى هبأ كل شيء للإجهاز عليهم وإسلامهم لموت محقق . .

وما عقبى التحسر وما جدواه ؟ ؟ إن اليهود ماضون فى إعدادهم الرتيب القوى
للجولة المرتقبة ، وسوف يدفعون فرقهم يوما ما لقتالنا فى موقف حاسم ، وليس

أمامنا إلا أن نلقاهم ، فإما كشفنا السواد الذى صبغ وجوهنا بالعار ، وإلا . فبطن الأرض خير لنا من ظهرها . .

والدول العربية التى تحقق بإسرائيل لن يمجزها أن تحمى ذمارها وأن ترد الغزو الصهيونى من حيث جاء . .

بل إن دولة واحدة فحسب من دول العرب الكثيرة يجب أن تضطلع بهذا العبء واليهود فى البقعة التى احتلوها لن يزدوا عن مليونى نفس فهم لا يضاهئون أقل دولة عربية من حيث العدد !! إلا إذا اعترفنا فى صراحة أن الجنس الإنسانى قد انحدر فى دمائنا وخصائصنا إلى هاوية لا تغنى معها كثرة العدد واتساع الرقعة ، وقرب الوسائل وإمكان النجاح . . . !!

من الصدف العجيبة أن يقع فى يدي مقال رائع صادق كتبه الأستاذ « أحمد رمزى » قبل معارك فلسطين الأولى ، وشرح فيه سياسة « الصهيونية » فى كفاحها ضد العرب وأسباب الغلب التى استجمعتها قبل أن تسدد إلينا ضربتها .

وأجدى منساقا مع الكاتب الصادق إلى ترديد العبارات والمعانى التى هتف بها من بضع سنين ولم تجد وعيا صحيحا يتلقفها ويجعل منها نبراسا . . .

إن اليهود لم يربحوا الجولة الأولى ضد أمم العروبة مجتمعة لأن ملائكة السماء نزلت تعينهم ، أو لأن الخوارق القاهرة صنعت من أجلهم ، فقد علمت أن انتصارهم جاء وفق سنن مطردة ، وأن الوسائل التى رجحت كفتهم عادية بحتة ، وأننا يوم نعمل مثل ما يعملون ونجهد مثل ما يجهدون فلن يقر لهم قرار . . .

والحرب فى هذه الأعصار نضال شامل تحشد فى سبيله طاقات الشعوب كلها مادية ومعنوية ، ونظرة عجيلى إلى مالدى الصهيونيين من عناصر القوة ترينا ما ينقصنا قبل أن نتعرض لنتائج جولة أخرى ، وما ينقصنا الآن يتصل بكياننا الاقتصادى ، وإنتاجنا الصناعى ونهوضنا النفسى والعلمى .

وسأقل العبارات المطولة التى وصف بها الأستاذ أحمد رمزى أسلحة

اليهود في صراعهم الخطير ضد أمتنا وديننا لعلنا نتعرف منها ما نفتقر إليه من عدة الفوز .

قال عن الاقتصاد الصهيوني :

إنه ينفرد عن غيره بأشياء .

(١) بمزية الاعتماد على رءوس أموال طائلة لانحاسبه ، أى يفترض أنها تنفق في أعمال الإنشاء الضخمة فليس يراعى فيها نسب الدخل المعتادة ، بل لا تحسب للخسارة حسابا . فهي من قبيل الأموال التي ترصدها الحكومات لإحياء الموات من الأرض من غير نظر إلى فائدة عاجلة أو منتظرة .

والمفروض أن تبقى الأوضاع كذلك مادام العمل سائرا في طريق تحقيق وتوطيد الوطن اليهودى وغرس مظاهر الحياة فيه .

(٢) ثم ينفرد الاقتصاد الصهيوني بمزية لا نظير لها في الشرق العربى وهى سيره على خطة مرسومة وبرنامج منسق للشئون العمرانية المختلفة ، زراعة كانت أم صناعية بناء على نظرة إيجابية ودراسة شاملة ولا يعتور هذا السير تبديل أو تغيير إلا وفق ماتمليه التجارب الحاسمة ، ثم قال الكاتب :

« حينما سارت الوكالة اليهودية فى سياستها نحو دعم الاقتصاد الصهيونى معتمدة على هذه الميزات وضعت نصب أعينها من المبدأ الأخذ بأساليب التعبئة الاقتصادية الشاملة : فهى فى كفاحها الإنسانى سواء فى الناحية الزراعية أم الصناعية ، لم تعرف يوما ما مواجهة البطالة أو الإضراب ، لأن هذا الاقتصاد لم يؤسس على قاعدة العرض والطلب ، أو الخضوع لرغبات الأسواق ، ولم يرم إلى استيعاب العناصر الفلسطينية اليهودية وإيجاد العمل لها فحسب ، بل بنى وعمل على استيعاب قوات متزايدة متلاحقة من هجرة مستمرة لفئات من العمال اللاجئين روعى فى اختيارهم وتشجيعهم للهجرة تحقيق أهداف اقتصادية معينة .

فالاقتصاد الذى بنيت أسسه على هذا التوسع الإنسانى والذى لا يمكن حصر مداء أو تحديده جاء قويا ومتشعبا لدرجة أنه حقق هدفين باستمرار ... هما :

١ — إبعاد اليد العاملة العربية إبعادا تاما عن المنشآت اليهودية بأكملها .

٢ — إيجاد عمل مستمر دائم لآلية مجموعة من العمال تأتي من الخارج .

ولقد نجحت هذه الآلة المحكمة في السير بانتظام لمدة عشرين عاما بدون أن يعتورها ما يقفها عن تهيئة العمل لعشرات الآلاف من هؤلاء ومع تمسكها بمبدأ دفع اليد العاملة العربية بعيدا عن المصانع اليهودية والمنظمات العمالية تغلبت على الهزات الاقتصادية المختلفة ، سواء كانت محلية — أى مصدرها حركات عربية ، مثل المقاطعة أو الإضراب العام — ، أم كانت من تصرف سلطات الانتداب وجودها بسياستها وتشريعاتها ونوم مشاريعها المختلفة في وزارة المستعمرات البريطانية .

أقول :

وهكذا آماوت القدرة المادية والكفاية الأدبية على إنهاض الاقتصاد اليهودي وجعله أداة طيعة في أيدي بناء « إسرائيل » .

ولك أن تسأل . هل كنا نستطيع أن نطوِّع بالصدقات لإقامة اقتصاد عربي في فلسطين كما فعل يهود العالم وهم ملوك المال ؟

والجواب : نعم إن الله وضع في بلاد العرب من البركة ، وأفاء على أهلها من الأموال ما يجعلهم أملاً أهل الأرض غير أن التبذير المهلك في فنون اللهو جعل ما امتازوا به من فضل يذهب سدى كما تذهب أمواه الفيضان في أعماق البحر المتوسط .

أين تضع أثمان « البترول » السيال من يقاييع الجزيرة ؟

كم أنفق الإقطاعيون من أثمان القطن في ملاهى « أوروبا » ؟

إن المال في الشرق كثير لكن الشهوات أكثر ، ومن ثمَّ تبدد في مواطن العبث ما كان ينبغي أن يتحول أرصدة للإنشاء والتعمير . . . !

وإننا نرحب بكل ثورة تختم هذه المآسى ، وتقيم على الانقراض الأولى صرحنا الاقتصادي الجديد .

ولنعلم أن استمدادنا الحق لن يبلغ تمامه إلا إذا صحب توفير الأموال حُسْنُ

توظيفها وبذل الجهد في الإفادة منها ولا حرج علينا إذا استعنا بأولى الخبرة من الأجانب في هذه السبيل .

انظر إلى الأستاذ أحمد رمزي وهو ينصح العرب قائلا : على الذين يقدمون البذل والعطاء أن يتعرفوا الحقيقة الماثلة أمامهم في حياة صهيون الجديدة فيعملوا أن اليهودي القادم إلى فلسطين لا يدخلها كستحق في وقف خيرى جاء ليحيا حياة الصديقين بل يدخلها كحارب جاء ليحيا حياة المساكين ، وليُسهم في إنشاء هذا العالم الجديد حيث يعتمد الفرد على الجماعة ، وحيث يحيا المجتمع اليهودي معتمدا على نفسه مستقلا عن جيرانه العرب ، وعن حكومة فلسطين .

أصبح هذا المجتمع يدور حول فكرة واحدة ، وتحركة عقيدة واحدة ، وعقلية واحدة تملخص في العمل على إنشاء هذا الوطن في هذا العالم الأرضي لا في العالم الآخر ، وأن يكون إخراجهم من صنع أيديهم لاعتمادا على معجزات التوراة ونبوءات أنبياء بنى إسرائيل .

هذه هي القوة الدافعة التي لازمت العمل في المبدأ والنهاية ، وستلاحقه في السلم والحرب ، وستلازمه في الهزيمة والمطاردة ، والدفاع والهجوم .

والحديث عن الصناعة في الشرق الإسلامي يخزى له المرء ، ويندى له الجبين ! ! فنحن في هذه الناحية الجليلية من حضارة العالم الحديث لا نزال نحبو في دنيا يحوب أقطارها المالقة ، وبين أيديهم وأرجلهم وعن أيمنهم وشمالهم ، نتاج يبهز العقل والبصر ، من بدائع الآلات والمحركات . .

وأحسب أنه لو كان للتفوق الصناعي - في عهد الصحابة الأولين - من الخطر ، مثل ماله في عصرنا هذا - لعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم إدارة الآلات ، كما يعلمهم السورة من القرآن . . .

إن تطور الحياة يجرى بأسرع مما نتصور ، والشعوب التي تفقد المهارة الصناعية ، وتمعجز عن تشكيل موارد أرضها ومواهب بنيتها وفق مقتضيات التقدم الهائل الذي أحرزه العقل الإنساني أخيرا ، لا يمكن أن تجد لها مكانا كريما ، بل لا ينبغي أن يكون لها هذا السكان . .

ومن المؤسف أن صناعة السيوف عرفت في اليمن على عهد الجاهلية ، وتعنى

الفرسان بما في الصفائح اليمانية من قوة وبريق ! ولا أظن لهذه الصناعة وأمثالها
أثرا اليوم . . في حين تقذف المصانع بأدوات القتال في الشرق والغرب فنقف
أمامها حيارى مشدوهين .

إننا لم نقف حيث انتهينا ثم سار غيرنا !

لقد مضى غيرنا إلى غايته ورجعنا نحن القهقري .

واليوم دخلت الكهرباء البيوت لتغسل الملابس وتسخن الماء وتبرّده وتضيء
الحجرات وتكسبها ، ووسائل ذلك كله بعيدة عنا . تستورد من الخارج .

أما وسائل النقل فقد تشعبت وبلغت شأوا بعيدا من الجودة، في البر والبحر والجو .
ولا يزال في بلادنا من يشدُّ وراءه عربة تحمل البضائع ، وكأنه بدل دابة (!) .
ومصانع الغرب هي التي تغمر الأسواق بهذه المحركات . .

وقد شرعت مصر - بعد سنين من معارك فلسطين - تقيم المصانع الأسلحة الصغيرة .
وكان المفروض قبل أن يعتمد الجهاد الإسلامي على صناعات الكفار (!) .

أليس من حق الدنيا أن تضحك منا ؟

لقد أغار علينا اليهود وإنتاجنا الصناعي في درجة الصفر . فانظر ما يقوله الأستاذ
أحمد رمزي في وصف قوى اليهود الصناعية قبل الجولة الأولى ! ! .

« وفي اجتماع عقده حاكم الجزء الشمالي بمدينة حيفا ، صرح اتحاد أصحاب المصانع
اليهودية أن الصناعة الصهيونية مستعدة لمساعدة الإمبراطورية البريطانية بكل قواها
وأنها تلبى طلبات وسائل الدفاع اللازمة للجيش البريطاني ابتداء من خطوط التليفون
وآلات التراسل والتاريس والحصون الخفيفة والسيارات المدرعة وصهاريج المياه
وأدوات البناء وغير ذلك من لوازم الحرب ، وكان من نتيجة هذا أن وضعت الأراضي
اليهودية في المناطق العربية البحتة تحت نصرته الجيوش ، وأنشئت عليها المعسكرات
البريطانية وغيرها ، وهي المستعمرات المحصنة التي قاومت العرب ، ولولا الحرب
ما وصلت طلائع الصهيونيين إليها وما جرؤوا على زراعتها واستغلالها .

وحققت هذه السياسة ما يأتى :

- ١ - الاطلاع على أسرار الجيوش المحاربة وحاجاتها .
- ٢ - تسلم معسكرات كاملة الأهبة والتحصين عند نهاية الحرب .
- ٣ - الحصول على المواد الخام لصناعاتهم باعتبارها من ضرورات الحرب .
- ٤ - أن الصناعات التى كانت تمون الجيوش الأجنبية ، أصبحت تمون قوات الدفاع اليهودية ضد العرب بأحدث معدات القتال ولا تحتاج إلى الخارج للحصول عليها .

ثم إن هناك حقيقة يجب أن نذكرها تماما وهى أن الصهيونيين ينظرون للشعوب العربية والشرقية كافة ، نظرة الأوربي إلى الشعوب التى لم تنضج بعد ، ولم تستكمل وعيها أو فهمها لحقيقة الأشياء أو التى إذا فهمت بعض الأشياء تنقصها وسائل التنفيذ ، وإذا بدأت فى خطة أو عمل شغلها أشياء كثيرة عن إتمامها .

إذن فالدوافع الكبرى فى نفسية الشعوب العربية غير دأمة ولا مستقرة ، فى نظرهم وقدرة القادة على مواجهة الأمور قاصرة ، وهذا ما يجعل أطعاهم فى سيادة هذا الشرق غير محدودة ، وهم يعتقدون أنهم سيرثون السيطرة الأوربية على بلادنا . ونحن نجاهر بأن القول بإخفاء هذه الحقائق عن الشعوب جريمة لا تغتفر . بل يجب أن نذكرها باستمرار .

إننا إزاء قوة تتطلب حشد كل ما لدينا من وسائل ونُحتم علينا أن نقف لمحاربتها بعقل وفكر وإرادة ، ولا يكون ذلك بغير العلم : العلم الذى هو قوة ثورية هائلة والذى يمكن صاحبه من القدرة والغلبة والانتصار . نعم سيكون العلم سلاحا قاطعا فيصلا لحل مشاكنا معهم .

ولقد تعلمنا أن الظروف المحيطة بنا لا تخلق حسب أهوائنا حتى نحل متاعبنا ومشاكلنا طوع إرادتنا ، ووفق أهوائنا .

إن هذه الظروف نتيجة تطور بعيد المدى ، وإن الوصول إلى نتائج ثابتة ، يقضى بدراسة كل حالة وتعريفها ، على طريقة منظمة ، وتبعاً لمنهج منطقي تحليلي ، فالحوادث كلها يجب أن تدرس :

حوادث الماضي والحاضر والمستقبل ، ولو كانت نتائج الدرس ضد ما ألفتاه ، ولو كانت أحكام البحث تحملنا مسؤولية الأخطاء التي فرطت منا .

إن المنهج هو القوة الوحيدة النهائية الفاصلة التي لا تحدد ، والتي لا يمكن أن يقف أمامها شيء في الوجود من غير أن نجد له حلاً .

وقضية فلسطين أمام العمل والمنطق والمنهج العلمي يجب أن نجد لها حلاً ، والحل الفذ هو التغلب على الصهيونية ، ولا شيء غير ذلك .

إننا إزاء نسكبة من أكبر نسكبات التاريخ ، تتمثل في تعريض مليون عربي للهجرة من بلادهم .

إن القوات التي تحف على فلسطين بقلوب عامرة وتأتي من البر والبحر والجو ، طلباً للشهادة في الأرض المقدسة التي وعدنا بها ، تقوم بدور تاريخي فاصل : إنقاذ عروبة فلسطين ومنع العالم العربي من أن يشطر إلى شطرين .

وأهم من ذلك إثبات حق العرب على أرضنا وبلادنا ومنازل الوحي عندنا .

إنها عقل وإرادة وعقيدة وإيمان . وهي في روعتها توحى بكلمة موسى عليه السلام .

أنصت أيتها السموات فأنكلم . . . إنني إذا سللت سيفي البارق .

وأمسكت بالفضاء يدي أردت نعمة على أعدائي وأجازي مبغضي .

إنني أرفع إلى السماء يدي وأقول حي أنا إلى الأبد .

نعم حقنا حي إلى الأبد والعروبة حية إلى الأبد .

ذاك ما كتب من سنين نعيده للاعتبار والعمل الصحيح .

ضد الاسـلام

[إن أقلاما شتى تحارب الإسلام نفسه .
تحت ستار من محاربة التعصب]

(١)

من حق العقلاء أن يعقّوا الدين وينبذوا تعاليمه يوم يكون الدين مرادفا لجوهر الفكر وقسوة الطبع وبلادة العاطفة ! ويوم يكون استيلاؤه على زمام الحياة عودة بها إلى الوراء وانتكاسا عن الجادة وتغيرا لفطرة الله في النفس ومنطق الحق في الجماعة !! أجل إنه يومئذ لن يكون ديننا من عند الله ، بل أهواء من عند الناس ، ولن يكون السير عليه تقوى ومثوبة بل معصية وعقوبة . . .

إن الله عز وجل أبرّ بعباده من أن يتركهم على غير شرع ، وأبرّ بهم من أن يشرع لهم العنت والعسر ، والكبت والقهر . . .

وعندما بعث الله نبيه الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم جعل رسالته مددا لقوى الخير والنماء بعدما كادت هذه القوى تضمحل أمام شرور الوثنيات الطاغية ، الوثنيات التي ألقت عقل الإنسان في أفق العبادة ، وألقت حريته في ميدان السياسة ، وجعلت للخرافة محاريب مهيبية وسلطات مقدسة « تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزین لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم . وما أنزلنا عليك الكتاب ألا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى رحمة لقوم يؤمنون » .

ولذلك زحّب — نحن المسلمين — بأية حرب تعلن على الكهانة ، لأن بواعث الإيمان الصحيح هي التي تثيرها ، أو بواعث السخط على الجهالة المغرورة .
والأولى حق يرضى الله ، والأخرى عقل يؤيده الواقع .

إن الذي يكفر بالأصنام أحد رجلين ، رجل آمن بالله فجدد الطواغيت ، أو رجل لمّا يعرف الله بعد ، بيد أن له عقلا يعزف به عن الخنوع لمسخ من هذه الأرض .
ولو أن أصحاب الشهوات والمطامع نفّسوا عنها في جو صريح سافر لكان ذلك منزلة من الفساد أدنى من غيرها .

أما أن يتخذ الدين سترا لهذه الدنيا فإن الخطب جسيم .
وقد حذر الله المؤمنين من مسلك الكهان الذين عرف الدين في سماتهم البارزة ولم يعرف في شئائهم وأفعالهم فقال « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله » .

فالشيمة الأولى في الداعية ، التجرد والإخلاص . . .

والشيمة الأخرى الدلالة على الله بحاله ومقاله . . .

فإذا فقد الأولى ، بأن أغرته المنافع العاجلة فأقبل على أموال الناس يفتالها وإذا فقد الأخرى ، بأن هبت من سيرته رياح تنفر منه وتبغض الناس فيه وفيما جاء به ، فهو كاهن حطر ، يدل على الدين بلقبه ووظيفته ويصد عنه بعمله وطبيعته ! !

وأولئك هم الذين كلف إمام المرسلين بمجافاتهم وتهييب الجماهير من اتباعهم كما كلف المسلمون في كل عصر بالبعد عنهم ، لأن الإسلام غريب عن هذه الالتواءات النفسية كلها .

أنه طهر في العقل والقلب ، ونور في الخلق والسلوك .

واصطلاح مع الفطرة ، واستقامه مع العدالة والنزاهة . . .

وقد فرضت طبيعة الإسلام نفسها على تاريخه الطويل ، فلم تظهر بأرضه طبقات للكهانة ، ولا مجامع للمحترفين الذين يصنعون من ذواتهم همزة وصل بين الأرض والسما . . .

ولكن لما كانت الكهانة طبيعة في بعض النفوس التي تجيد المداينة والمداورة فإن شئون الدعوة والدولة معا ، لم تبرأ من رجال يخلطون نيات الجهاد بأعمال السوء ، ويعملون لأنفسهم وهم يزعمون أنهم يعملون لله .

وليست هذه هي الساعة التي ننهي فيها حسابنا مع هؤلاء ، بل نحن في هذه الكلمة نحاسب قوما آخرين !!!

ذلك أن بعض الكتاب الحاقدين على الإسلام اهتبل الفرصة السانحة ، فرصة الوهن الذي أصاب دعاية الإسلام في هذه الأيام — على ما توهم — فشرع يكيد للدين نفسه ، وينال من حكمه السابق واللاحق ، وتاريخه القريب والبعيد . . .

وأنا أفهم أن يعنف بعض المخطئين في جنب الله ، وأن يثار الغبار على تصرفهم الريب ، غير أن النفاذ من ذلك إلى تحقير الإسلام وإبعاده عن ميدان الحياة — كما حاول أولئك الكتاب — أمر دونه خراط القتاد . . . !!

والمعجيب أن خصوم الإسلام يبدون أمام الناس وكأنهم سدة التطور الواسع في أساليب الحياة وغاياتها ، وعشاق المعرفة الشاملة والتجديد البعيد .

وأن ركائزهم في نبذ الماضي بما حوى من دين وتقاليد هي احترام العقل وحده والاعتراف بما يقر ، وهجران ما ينكر .

أما الإسلام ودعائه فهم في واد آخر ، لا يُحسّون هذه اليقظة الإنسانية ولا يرحبون بأشعتها العامة .

ويعلم الله أننا أرحب عاطفة نحو الحياة والأحياء من هؤلاء الأعداء ، وأن الحضارة التي يُشيد المفتونون بمفاخرها ما خطأ مجراها في هذه الأرض إلا ظهور الإسلام وإزاحته للعوائق التي صنعها الكهان القدامى أمام العقل والفطرة . . .

ولا يزال الإسلام يوثق العلائق بين الإيمان والفكر ، ويجمل العقائد الصحيحة هي الحقائق الثابتة ولا يزال يزين البشر بالتقوى ويقومهم بالسمي وحده ! !

ونحن نعلم أن الخصومة التي تسود ضمائر البعض ضد الإسلام عُلَّتْها الدفينة هي الجهل الأعمى أو الجحود المكابر ، وأن محاولة القضاء على هذا الدين إنما ينشط فيها أقوام يعملون سرا أو علنا لجهات سوف نكشف عنها هنا . . .

نكتب ذلك تعليقا على مائثره الأستاذ سلامة موسى في جريدة الأخبار بعنوان « العراق يستيقظ . . » قال :

العراق ينتقل من سبات الشرق إلى يقظة الغرب .

فإن الدكتور علي الوردي يمثل في بغداد من المبادئ والأهداف والأساليب ما يمثلُه عندنا خالد محمد خالد .

كلّاهما يحمل على العادات الذهنية وال عاطفية القديمة التي أصبحت « تقاليد » ويحاول أن يوضح زيفها وأنها تعارض الحياة العصرية .

وكلّاهما يحاول أن يضع الحقائق مكان العقائد .

أقول هذا عقب قراءتي لكتاب « وعاظ السلاطين » الذي ألفه الدكتور علي الوردي . فإنه أشبعني فهما وروى عطشي إلى الحقائق وخلاصة الكتاب

إن ما نعرفه أو نظن أننا نعرفه عن تاريخ العراق إن هو إلا وهم وزيف وأن الخلفاء العباسيين والفاطميين لا يختلفون عن الخلفاء العثمانيين في حياة الفسق التي عاشوها وفي المظالم التي أوقعوها بالشعب .

فإنه يذكر لنا أن المتوكل العباسي كان يملك أربعة آلاف جارية وكان الخليفة الفاطمي يملك عشرة آلاف جارية وخادمة . وكان عند أخته « ست الملك » ثمانية آلاف جارية منها ألف وخمسمائة من الأبقار . . .

وكان عند الرشيد ألفان من الجوارى . . وطرب ذات ليلة فنثر على الحضور ستة ملايين درهم . كل هذا كان الرشيد يأخذه من أموال الدولة . ولا يبالى بعد ذلك أن يذهب إلى الواعظين يستمع إليهم ويمسح بين يديهم .

كلمات كأنها كي القار . ولا بد أنها ستوقظ النائمين الذين خدرتهم كتب المؤرخين الزائفة والذين لم يسألوا قط :

من أين جاء هذا الخليفة بهذه الأموال ؟

نحن في حاجة إلى عشرات من المؤلفين أمثال خالد محمد خالد ، وعلى الوردى . وما نشره كذلك بالعدد نفسه تحت عنوان « قبل مائة سنة » يندد بمعهد الخلافة ويوغر عليه - وحده - حفاظ المصريين ، حتى لا يذكروه إلا ساخطين .

قال : في مثل هذا الشهر . قبل مائة سنة - كان شبان من مصر فلاحون ومدنيون . من طنطا ودمهور والمنيا وسائر المدن والقرى ، يلقي القبض عليهم ثم يحمل كل منهم بنديقة ويساق إلى الباخرة أو السفينة في الإسكندرية ، وتقلع بهم إلى حيث لا يعرفون .

ثم ترسو الباخرة أو السفينة في ساحل القرم عند سباستوبول التي أخبرنا تولستوى أنه حارب فيها . ويطلب من شبابنا الفلاحين والمدنيين أن يقاتلوا الروس حتى يمنعهم من الدخول في البحر المتوسط ومن الاستيلاء على الدردنيل .

ويقاتل هؤلاء الشبان المصريون وهم يجهلون دلالة هذا القتال . وكل ما يعرفونه أنهم يدافعون عن السلطان في استنبول .

وما زلت أذكر ما كتبه الدكتور شبلي شميل حوالى ١٩٠٥ وكان من الذين يبصرون بعقولهم . فقد روى أن قائداً تركياً طلب من هؤلاء الشبان المصريين أن يقتحموا موقعاً روسياً منيعاً . فاعترض عليه ضابط آخر وقال : إنهم لو اقتحموه لقتلوا جميعهم .

فكان جواب القائد التركى : هل نحن أخذناهم بعدد ؟ واعتقادى أنه لم يعد مصرى واحد من الذين اشتركوا فى حرب القرم إلى مصر . والأغلب إن الذين لم يقتلوا تركوا فى تركيا يبحثون عن قوتهم . وحوالى ١٨٨٠ علق اللورد سولزبرى على حرب القرم فقال : إننا أخطأنا وقامرنا على الجواد الخامس . إذ كان يجب أن نتفق مع الروس ونعطهم الدردنيل ونأخذ نحن مصر .

قال هذا قبل الثورة العربية بسنتين .

ذلك تلويح أنكى من التصريح فى الحملة على الإسلام وتشويه تاريخه وتمزيق أمته الكبيرة ، وتصيد الشبه لتحقير حكمه ، والحيولة دون عودة أتباعه ، إلى سياسة موحدة تملئها مصلحة بنيه ، والدود عن كياناتهم . وقبل أن نعرض للوقائع التى ساقها سلامة موسى نحب أن نبين لحساب من تدار هذه المكاييد ؟ أى لحساب نهضة مدنية بحتة ، لاصلة لها بالأديان جملة وتفصيلاً ؟ أم هى لحساب جهة معينة ؟ .

والجواب ننقله من كلام « سلامة موسى » نفسه فى كتابه « التثقيف الذاتى » قال ص ٨٥ : « مزرة بيروت أنها كانت منذ أكثر من ثمانين سنة مقر جامعتين هما الجامعة الفرنسية والجامعة الأمريكية . هذا غير عشرات المدارس التبشيرية فى المدن والقرى الصغيرة ، لأن اللبنانيين لم يعارضوا التبشير فانتفعوا بهذه المدارس » . . وقال كذلك : « وما فعلته حكومة الهند من منع المبشرين ، قد فعلناه نحن شعباً وحكومة . ولو أننا تسامحنا — كما فعل اللبنانيون — لكان فى أنحاء بلادنا نحو ألف مدرسة راقية ينفق عليها الأبرار من الأمريكيين وغيرهم » .

وغير الأبرار من الأمريكيين هم الأنقياء من الإنكليز والصالحون من الفرنسيين وأهل الورع والإيثار من سائر الدول المستعمرة الأخرى ! .

هل عرفت إذن سر الحملة على الإسلام ووحدته وحكومته ؟ .

هل عرفت لحساب من تستخدم كلمات التجديد والتطور والعلم والحضارة وغيرها ؟

لحساب الصليبية الغربية ذات التاريخ الناصع والأهداف المبرأة . .

كما يقضى على الإسلام ذى التاريخ الكالح والأهداف السيئة ! .

ينعى هذا الكتاب على مصر أنها لم ترحب ببعثات التبشير في ربوعها وهو قد

سره — بداهة — ماتفعله بعثات التبشير في جنوب السودان .

ولعله بسيرته — العطرة في مصر — يحقق في شمال الوادى ما عجز المبشرون

عن القيام به .

ولعل منزلته المرموقة في جماعة الشبان المسيحيين ومقالاته الحارة التى نشرتها له

قديماً جريدة « مصر » لعل ذلك كله هو التجديد والتطور ، والدعاية المحببة للحضارة

الحديثة والنزعات التقدمية الحرة . .

أما وقد أفصحنا عن خبيثة هذه الحملة ضد الإسلام فلنلق نظرة عجيلى على

ما ذكره هذا الكاتب .

إنه يريد إيهامنا أن التاريخ الإسلامى قرابة ألف عام كان ليلاً طويلاً وأن الدولة

العباسية لا تقل فسقاً عن الدولة العثمانية . .

ونحن ندل القراء جميعاً على كتب التاريخ ليقارنوا بين أحوال المسلمين

وأساليب الحكم فيهم وبين أحوال الصليبية الغربية وما أوقعته بالخلائق من مناكر

وما ثم ضجت لها الأرض والسماء .

وسيرى أى قارىء ذى لب أن دويلات الممالك كانت أتره يداً وأعف نفساً

وأرق فكرة من الدول الضخمة التى بناها البابوات والأباطرة ، فكان علاجها

للامور سببة فى فن الحكم إلى قيام الساعة . . .

ونحن نستمسك بهذه المقارنة لأن قاهرى المسلمين فى العصر الحديث والكتاب

الذين يمحرون بالإسلام وأمتة لا يزالون يفخرون بنسبهم القديم ، ويجعلون من الاستعمار الجديد امتداداً للصليبية الأولى . .

فما معنى أن يجرحوا تاريخ الإسلام ويصطادوا له المعاييب في الوقت الذي يسكتون فيه عن تاريخ أسلافهم وهو سلسلة من الوحل والبحر مهما لُفَّتْ في أوراق مفضضة فراثمتها القدرة تدل عليها ! .

لفرض جدلاً أن قصر أحد الخلفاء حفل بمائة أمة . .

فلماذا يذكر هذا في الوقت الذي ينسى فيه أن البابا الأقدس في تلك الأعصار السحيقة كان يضاجع ابنته وغيرها من الفتيات الأبنكار والزوجات المحصنات ؟ .

وأى الرجلين يلوث به تاريخ أمة ؟ ويصرف به الناس عن اتباع دين ؟ .

لكن الكاتب الناقم على الإسلام يريد طرح ألف سنة من تاريخه بعد أن يرسل حكماً عاماً على خلفاء بني العباس بأنهم فساق تكلفاء بني عثمان ! .

هل هذا منهج الأستاذ سلامة موسى مع الإنكليز ؟ .

اسمع إليه يقول في ص ٢٤٠ من كتابه « تربية سلامة موسى » : أخشى . . أن يعتقد القارئ أنني أكره الإنجليز أو أن يؤدي ما ذكرته إلى أن يكره الشعب الإنجليزى ، فإن هذا الشعب من أنبل شعوب العالم ، وما أستمتع به أنا من ثقافة أوقيم سامية يعزى معظمه إليه . .

إنما أكره الاستعماريين الإنجليز هؤلاء الذين ينهبون الشعب البريطاني ويدلونهم بالفقر والجهل كما كانوا ينهبوننا ويدلوننا ! .

هذا الكلام العدل الرحيم هو التصوير الواجب لما ينبغي أن تكون عليه مشاعرنا نحو الإنكليز .

أما الحكام المسلمون قاطبة فهم شر مستطير ، ورَجْعة مقيتة .

وبهذا النطق يذكر الكاتب التقدي أن دولة الخلافة جندت الألوف منا لمحاربة الروس يوم كانت مصر تابعة لها .

وتجنيد المسلمين لنصرة إخوانهم مأساة تستحق التسجيل والسخرية بعد مائة سنة من وقوعها ! .

أما ما جندته انجلترا من أقطار الدنيا لتأييد مطامعها الاستعمارية فأمر لا يسوغ ذكره ولو هلك فيه من مصر وحدها نحو مليون نفس ، عدا الذين هلكوا من الهنود والزنج وغيرهم !

إن هناك لفيفا من الأدباء تتفاوت جرأتهم في خصومة الإسلام ، ومحاولة القضاء على عقائده وشرائعه ، وإخراج الأمة من نطاق كتابه وسنته . . .

وهم يحتالون على بلوغ مآربهم بوسائل لاحصر لها ، على أن أى قارئ خالى الذهن لن يفوته ما يقصد إليه أولئك الكتاب الذى زعموا الصحف وخلت لهم أنهارها . إنهم يريدون أن تنسى مصر « إسلامها » وأن نخلع لباسه القديم عن نهضتها الفتية ، وأن تتبع الغرب اتباعا ، يجعل دولة الكبرى ترضى عنا وتعجب بنا . . .

وقد علمت أن هذه الدول لن ترضى عنا ولن تعجب بنا إلا كما قال الحق فى كتابه « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملةهم . . . »

والعناوين البراقة لحل الأمة على أطراح الإسلام فى سهولة واستكانة هى فصل الدين عن الدولة ، فصل الدين عن القانون . فصل الدين عن المجتمع ، فصل الدين عن الأخلاق ، والدين هنا هو الإسلام .

ومعنى فصل الإسلام عن هذه النواحي الهائلة من حياة الناس الحكم عليه بالإعدام . وتزيينا لهذه الخدعة نشر « الأهرام » تحية لتركيا يقول فيها : تركيا نفضت كفنها ، وما الحياة إلا نفص كفن .

كانت يقظتها القومية قد فازت عام ١٩٠٨ بإصلاح سياسى أفضى إلى انتخاب برلمان عصرى ، أى فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية ، مع نشر الحريات المدنية فجاء هذا الإصلاح ممهداً لثورة مقبلة إذ هب لها النفوس المتوثبة ، فكان مصطفى كمال رائدها .

ثورة سامية قامت فى الأوضاع السياسية على فصل الدين عن الدولة ، وفى الأوضاع المدنية على استئنان قانون جديد استلهمته تركيا ، بعد استعراضها شتى القوانين الغربية من قانون سويسرى هو القانون النافذ حكمه فى مقاطعة نوشاتيل ، فاستحدث القانون التركى من الإصلاح فى نظام الأسرة ، ولا سيما فى حياة المرأة وعلاقتها المدنية بالرجل ، ما وافق ميل تركيا الجديدة إلى التطبع بالحضارة الغربية .

وكان في طليعة آثاره العميقة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وصار هذا الاستبدال أداة لنشر الثقافة الجديدة ، ومن ثم لم تكن قصارى الثورة السكالية أنها ثورة سياسية اجتماعية . بل كانت كذلك ثورة خلقية من حيث أنها تناولت التقاليد القومية ، وانتهت إلى ثورة فكرية ثم إلى فلسفية . ولكنها بقيت ثورة قومية ، إذ أن تركيها لم تحاول نشر الدعاية لها في الشعوب التي تجاورها .

وتركيها لا تنشر دعاية لمذهبها الجديد ، ولم تتكلف ذلك ؟ وآلاف البشرين يقومون عنها بهذه المهمة ! إن القضاء على الإسلام من الأهداف الأولى لأغلب الدول الكبرى ، إن لم يكن لها كلها .

وإن تسيير دول الشرق الأوسط في المجال نفسه الذي تسيير فيه تركيا هو كذلك بعض منهاج الصليبية الحديثة أو الصهيونية الحديثة وذلك هو السر في مقالات الكتاب الناقين على يقظة الإسلام في هذا العصر الأخير .

(٢)

من الفكاهات السمجة أن يقال للمسلم : دع دينك فإن العلم تقدم ! فإذا انخدع بهذه القولة الماخنة وسار خطوات مع أصحابها تبين له سر ضعفهم على الإسلام ، فإذا بهم يهود متعصبون يريدون إيهام الأغرار بأن العودة إلى الوراثة أربعة عشر قرنا رجعية دونها العودة إلى الوراثة أربعة وثلاثين قرنا حتى تصل إلى عهد موسى وصحف التوراة . . . !

وقريب من ذلك أن نجد رجلا ثقافته فرنسية بمحنة ينظر شزرا إلى التعليم الديني في الأزهر ، ويمده من بقايا الأوهام الأولى .

فإذا تخير مدرسة لتعليم أولاده ، عمد بهم إلى معهد يديره كاهن ماكر ، أو راهبة لبقية ، ثم تركهم حينما من الدهر ليأخذهم آخر الأمر ولهم دين غير الدين ، ولسان غير اللسان ، ونفوس لا صلة لها بعروبة أو إسلام .

هذه الردة — في نظر المنفل المفتون بفرنسا — أدل على التقدم وأدنى إلى التحضر من ضروب التعليم الأخرى .

ولذلك فهو بها راض وإليها مستريح !

الحق أن الغزو الأوربي الحديث أفلح أليماً إفلاح في التمكين لنفسه بيننا منذ حوّل هزيمتنا العسكرية إلى كفران مطلق ، بما لدينا وإيمان مطلق بما لديه .

دون تمييز بين ما يحمل من طيب وخبيث وبين ما ورثنا من حق وباطل . . .
وهذه هي المشكلة . . .

وعلى العقلاء أن يفرقوا بين عدة نزعات متباينة . . .

هناك الصليبية التي تجر وراءها عقائد أمة وثارات تاريخ طويل . . . وتلتزم مهجاً ثابتاً في معاملة الأديان والشعوب الأخرى . . .

وهناك الحضارة العلمانية الجديدة ، وهي نهضة انبجست ينايعمها من العقل المجرد والفكر الحرّ ، ولا تزال تكتشف وتنتج في كل ميدان ، غير مستعينة في مغامراتها بدين ، ولا مستهدية بنص . . .

ثم هناك هذا الإسلام الذي نقرأ كتابه ونتدارس تعاليمه ونحاول جاهدين دفع العدوان عنه لتبقى رسالته على الحياة متألفة بالحق والخير !

وقد تسأل : بمن هذا العدوان المرهوب ؟ وما مثاره ؟ أهو من رجال العلم المتجردين له ، أو من سدة الحضارة الحراس على أطراد مسيرها وإيتاء ثمارها ؟
ونجيب مسرعين : كلا . . . فإبين الإسلام والعلم من خصومة ، وإذا كانت الحضارة الحديثة محنقة من حيف وقع على روادها القدماي ، فإن رجال الكنيسة ووجدهم ، هم الذين يحملون أوزاره ويتلقون عاره .

ولعل نأذى العلماء والفكرين من موقف الكنيسة القديم ضدهم هو الذي جعلهم يعافون الأديان كلها ، ويوجولون من كل سلطان يحصل عليه رجالها . . .
إذ هو - في نظرهم - سلطان يدعم الجحود ويهدد الحياة أن تعود القهقري . . . !
من أين يبيء هذا العدوان إذن ؟

يبيء من الاستعمار الغربي الذي جمع في قرآن بين الحضارة العلمية والضغائن الصليبية ، أي جمع بين الأضداد ثم انطلق في أقطار الأرض ليذلل العباد ويخرب البلاد . . . ! !

ولكن كيف حدث ذلك ؟ الواقع أن الحياة العقلية والاجتماعية في أوربا

وأمرىكا أبعد ماتكون عن وصايا عيسى بن مريم ، بل هى فى أصولها وفروعها مبتوتة الصلة بروح الإنجيل ونصوصه .

والتطور الإنسانى هناك قائم على غرائز الإنسان ومواهبه جميعا ، خيرها وشرها . وعند ماسحا الإنسان الحديث من غفوته ونظر إلى مفاتيح الكون التى وضعها العلم فى يده جاشت فى دمه نوازع القلب ودوافع الأثرة ورأى نفسه عملاقا بين أقزام ! فلم لا يسود ويقود ؟ ولم لا يحرك ويوجّه ؟

ونظر هذا الإنسان إلى الصليبية المهزومة فى مواطنها أمام طلائع المعرفة المظفرة والكشوف الباهرة ، ثم منحها حق الحياة وأمرها أن تتبعه . فتبعته صاغرة ، ورنّت إليه شاكرة . .

وقررت أن تسير فى ركابه وأن تسارع فى هواه . . فصحبها على دُخُل ، وسخرها حيث شاء ، بحيث لانتال من القوة إلا ما تدور به فى النطاق الذى يرسمه خُصب . .

ثم انطلق هذا الإنسان الحديث إلى ربوع الشرق ، ومن ورائه تلك الذبول والطبول . . فوقع ما لم يكن منه بُدٌّ ، تحرك المسلمون من رقودهم وثارت مشاعرهم وأفكارهم كلها ، فى لقاء هذا الفاتح القوى .

وتفرسوا فيمن يظاھرہ سخائم القرون الوسطى ، فأحسُّوا الخطر على كيانهم . . وتيقظت فيهم غرائز النجاة وشرعوا يدفعون عن أنفسهم وبلادهم وعقائدهم . .

وفى الصراع القائم بين دين الله من ناحية وبين هذا الزحف المزدوج من ناحية أخرى أريد أن أنبه ، وأن أحذر ، رجاء أن لا يضيع الحق وسط ضجيج الخصومة الناشبة بين الغالب والمغلوب . .

إن العالم محق فى احترامه للعلم وإكباره للعقل واحتقائه بالثمرات البانمة التى انتهى بها التطور الحديث . .

وهو محق فى دفاعه عن أساليب الحياة التى أتاحَت للعلم أطراد التقدم ، ونحن — باسم الإسلام — نرفض كل تغيير يحجر على حركة العقل أو يُحدِّث من نشاط العلم . . ونؤيد التوجُّسين فيما يتخذونه من حيلة ، ضد كل محاولة من هذا القبيل . .

إن تحقير العقل — في نظر الإسلام — يعنى ألا ينشأ في القلوب إيمان صحيح ، ذلك أن صدق الإيمان إنما يقوم على حسن التأمل في الكون وحسن الإدراك لظواهره وأسراره . . وانظر إلى كلمة « كيف » في قوله عز وجل للعرب « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت . . وإلى الأوض كيف سطحت ؟

إن « كيف » هذه من مفاتيح الحقيقة في علوم الكون والحياة . وهي كذلك من مفاتيح اليقين في معرفة الله وإجلاله وخوفه ورجائه . . فليهدأ بالآ أولئك المولعون بتقليد الغرب الصياحون بين الحين والحين باحترام التطور .

فأولو العلم بالإسلام أرسخ منهم قدماً في هذا الميدان ، وأحرص منهم على تقديس الحرية الحقّة وما تنمّر من تجديد وإبداع . .

لكن العلم وحده لم يحقق الخير للبشر ، بل قد رأينا طبائع السوء تستغله فيما يرد الناس وحوشاً لا تربط بينهم عاطفة رحمة ، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . .

وقد جارتِ الأمم بالشكاة الضارعة من هذه الحال . . وإنها اليوم لتبيت جزعة مما يخبئه الغد من أهوال أشد ، أهوال تنفتق عنها أذهان العلماء ويتلقفها مرده السياسة وجبايرة الحروب ليخدموا بها ماذا ؟ شهوات الأثرة والاستعلاء لدى أفراد وشعوب ! !

فحرىً بالعالم المعجب بالعقل وتناجه أن يصون ذلك بتعاليم تصونه من الزلل وتمصمه من الخطل .

ومن ثم كان لابد من دين . . دين يتدارك هذا الاضطراب الخطير . .

ولسنا نبحت عن الدين لما ننشده فيه من هذه المنافع فحسب . . بل استكمالاً للبحث عن الحقيقة الانسانية والكونية .

فدماً يحط بقدر الإنسان أن يدرك الدقيق في ناحية ويعمى عن البديهيات في ناحية أخرى .

ولسنا نكف العلماء شططا إذا طالبناهم أن يتعرفوا إلى الله وإن يتخيروا
أرشد الأديان بالمقاييس نفسها ، التي يستكشفون بها مجاهيل الكون ، وبالمنطق نفسه
الذى يقررون به القوانين ويثبتون به النظريات .

إن من أغبط الأمور عندى أن يفكر الرجل بعقل عبقرى فى موضوع ، وبمقل
عَيِّل فى موضوع آخر .

لما فحولة فى الحالين وأما طفولة فيهما !!

وأغلب الضلال يجيىء من هذا التفاوت المثير ..

ترى عالما فى الذرة يشتغل صهيونيا جلفا ، كما رأيت قديما المكرة المهرة — من
أعداء محمد الأولين — يجادلونه فى الله ، وينثنون إلى أصنام تبول عليها الثعالب
فيمبدونها من دونه .

إننا راضون أن يحتكم العالم — المتطلع إلى دين يسد الفراغ الهائل فى ربوعه —
إلى قواعد المنطق القديم والحديث وإلى وسائل المعرفة كلها .

ثم ليكن بعد ذلك ما يشاء ، صهيونيا ، أو صليبيا ، أو مساما .

نعم لِيَكُنْ ما يشاء بعد أن ينزل على حكم العقل الذى أحترمه فى
شئونه الأخرى ..

أما أن يكون رجما بليدا فى بعض شأنه وتقدمياً متطرفا فى بعض آخر .. ثم
يحاول — بحكم ما أوتى من قوى مفاجئة — أن يُلْزِمنا بالأمرين معا ، فذلك
مانأباه ونقاومه !! ..

على أنك قد علمت أن الاستعمار الغربى قد صاحب الصليبية القديمة
على دَخَل .

فهو يُمكنُ بها لنفسه ولا يمكنُ لها من نفسه .

وحركة الإحياء التى اهترت بها أوربا وأخصبت وبلغت فى عصرنا هذا شأوا
بعيدا ، لن تنسى صراعها القديم المرير مع الكنيسة !

ولذلك يغلب على التشاؤم في عودة أوروبا إلى دين ! .
إن تجاربها المحفورة في تاريخها أشبه بالذكريات المؤذية . . . بغضت لديها
الأديان جملة ! .

وكما تلتوى المعقد النفسية بسلوك الأفراد تلتوى بسلوك الجماعات والدول ،
فتفضل بها عن سواء السبيل . . .

ومن ثمَّ يجب أن نُوقن بأن الاستعمار لا دين له ، وأنه يسلط الصليبية علينا كما
يسلط الصائد القوانص والجوارح لتمسك عليه فرائس البر والجو . . .
على أن طول الصعجة ووحدة المأرب قد يؤلفان بين الشركاء المتشاكسين
ولو كان أحدهما سيِّدا والآخر خادما . . .

ظهر ذلك جلياً يوم أفاق المسلمون من غشيتهم وأخذوا يلمون شعهم ويصلحون
أمرهم . . . إن الاستعمار الذي يسانده علم لا ضمير له مع حقد الموتورين وجشع الطامعين ،
ساق إليهم قوى الأرض كلها ليضربهم ضربة قاصمة . . .

وفي الحلقة الأولى من سلسلة « اخترنا لك » تصوير صادق لما عانى المسلمون
والعرب من ضغط تقطف في شرحه لك العبارات الآتية :

لقد أدركت بريطانيا قبل أن يدرك أحد أن العرب على أبواب نهضة توشك
أن تجمعهم صفاً . . . وتوحدهم غاية ، وتردهم إلى مكان الصدارة بين أمم العالم . . . ثم
قدرت ما وراء ذلك من شر يصيبها ، إذ سوف تضيع مستعمراتها في آسيا وأفريقية
وتنهار (الامبراطورية) التي عاشت قروناً على الأشلاء والدماء .

قدرت بريطانيا هذا كله . . . فدرت أمرها لتعوق هذه النهضة ، ولتصدع وحدة
العرب . . . ولتشغلهم بفتنة من صنع يديها ، فرمتهم بهذا السرطان اليهودي . . .
وغرسته في موضع الإحساس المرفف من جسم أمتهم . . .

ذلك هو السر المحتجب وراء تلك المساعدات المتصلة التي قدمتها بريطانيا ظاهرة
ومستورة إلى اليهود في كفاحهم لإنشاء دولة تؤويهم في فلسطين .
لحققت بذلك لنفسها ما أرادت ، حين زعمت أنها بإنشاء هذه الدولة قد شطرت
البلاد العربية شطرين :

شطراً في المشرق ، وشطراً في المغرب ، تفصل بينهما دولة إسرائيل !

على أن الانجليز لم يستطيعوا أن يستروا غرضهم ذاك من أول يوم ، فهذا قائدهم « النبي » يقول يوم دخل القدس غازيا في أخريات الحرب العالمية الأولى : « اليوم انتهت الحروب الصليبية ! » .

فكانت كلمته هذه نعمة تكشف عن الحقد المضطرم في قلب القائد الصليبي الأخير ضد العرب والمسلمين ، فهو لم ير يومئذ في فتح القدس انتصارا على الألمان ، ولا على العثمانيين أعداء بلاده ، بل انتصارا على أهل فلسطين أنفسهم — ولم يكونوا معه يومئذ في حرب — لأن آباءهم ، هم الذين غلبوا آباءه في المعارك الباغية التي دارت باسم الصليب في تلك الأرض المقدسة منذ قرون ؟

ولكننا حين نذكر كلمة « النبي » في ذلك المقام ، نستشعر مع الألم كثيرا من الرجاء ، لأننا نذكر في هذه المناسبة التي خطرت يومئذ ببال القائد الصليبي ، إن هذه ليست أول معركة سقطت فيها فلسطين تحت أقدام الغزاة ، فإنها لم تزل منذ القرن العاشر هدف المعتدين الأوربيين باسم الصليب .

ولكنهم لا يكادون يضعون فيها أقدامهم ويزعمون لأنفسهم أن الأمر قد استتب لهم ، حتى يشور بهم العرب أصحاب البلاد فيقذفون بهم إلى البحر أو إلى البادية ، فلا يبقى منهم إلا رموس طافية على الماء أو أشلاء مطمورة في رمال الصحراء . . وتعود فلسطين كما كانت بلدا عربيا يصل بين شرق الأمة العربية وغربها الممتد إلى ساحل الأطلسي . تلك نذرُ التاريخ التي لم تزل تتكرر مرة بعد مرة منذ حاول أول صليبي أروبي أن يضع قدمه على هذه الأرض المقدسة ، إلى عهد « النبي » .

على أن كبر هذه الجريمة لا يقع على بريطانيا وحدها ، فلم تزل أمريكا — منذ همست بريطانيا في أذنها بذلك السر ، تبذل الجهد — مسرفة — في معونة إسرائيل . . بالمال والعتاد والضغط السياسي ووسائل أخرى ، ولم تزل الأموال الأمريكية والأسلحة الأمريكية تتدفق على موانئ إسرائيل ، لتمكن وتقوى وتستكمل أسباب الغلبة . .

أذلك لأن أمريكا أمة صليبية بالمعنى المنحرف الذي تفهمه أوروبا من كلمة « الصليب » ، وهو ضرورة البطش بالعرب مسلمين ومسيحيين ، لتكون الغلبة كاملة لأروبا وحلفائها على أهل المشرق ؟

أم تفعل أمريكا ذلك لأنها أمة طارئة على وطن غريب ليس لها فيه جذر ،
فهي بهذه « العقدة النفسية » في الشعب الأمريكي تُريد أن تجعل توطين الأجانب
في غير وطنهم قاعدة ؟

ونحن لا نجيب : أى الاحتمالين أدنى إلى الصواب ؟ وندع الجواب على ذلك
للأمريكيين « الأبرار » الذين يعطفون علينا من وراء البحار فيرصدون القناطر
المنظرة لدعم حملات التبشير في بلادنا حتى لا نبقى . . . أو نبقى بلا إسلام .

(٣)

إن الهزائم التي مُنِيَ الإسلام بها في ميدان الثقافة والتعليم أنكى من الهزائم
التي منى بها في ميدان السياسة والحرب . بل قد تكون هذه راجعة إلى تلك .
فأنت خير بأن لكل مذهب في الحياة — محدودا كان أو رحبا — ثقافة
خاصة تقوم على بث تعاليمه وأخذ الأنباع به وتنسيق الدعاية له .

فما ظنك بالإسلام وهو دين دعامته الأولى كتاب يخاطب أولى الألباب ،
وعُدَّتْه الكبرى فتح مغالبي النفس وإحياء موات الفكر وتعريف الناس بالله
عن طريق البحث والدرس والملاحظة والتجربة والاستقرار ؟

إن حاجته للمعرفة المطلقة كحاجة الطير إلى الهواء كما يسمى ويخلق .
فإذا فقد هذا الهواء فإن جناحيه لن تُشَلَّأ فحسب ، إنه سوف يخنق ويموت !!
والناظر إلى شئون المسلمين اليوم — مظاهر منها وما بطن — يُوقن بأن الخصائص
التي لا يحيا دينهم إلا بها قد ماتت فيهم أو لحقها هزال الموت . . .
وأكاد أقول : إن الإسلام غير معروف ، وإنه لو عرف فليست هذه هي البيئات
التي يمسك بترتها بله ، أن يزدهر ويثمر . .

هناك أناس يسمون « علماء » بالإسلام لا يَمُون من آيات القرآن — وهي
ألوف — إلا قليلا يمد على الأصابع .

ولا يفقهون في سنة الرسول وأحاديثه — وهي عشرات الألوف — إلا النزر
اليسير ومع ذلك فهم علماء !!

فإذا ضمنت إلى ذلك أن العمل بالإسلام روح العلم به ، وأن العلم والعمل كليهما لا يحسنه إلا امرؤ مكتمل المشاعر ناضج المواهب وثيق العلائق بالحياة نافذ البصر إلى الأحياء — ازدادت اقتناعاً بندرة الرجال الذين تصدق عليهم هذه الصفة الكبيرة . إنه لو صحت تسمية النجارين والحدادين علماء في الفلك والكيمياء صحت تسمية أولئك النفر علماء بالدين .

ومع ذلك فهم علماء ! بل هم أكبر من ذلك ، إنهم مرشدون أجلاء . . . !
تلك حال الخاصة . أما أحوال العامة فهي أدهى وأمر . . .
إن الجهالة التي كبت فيها بلاد الإسلام من أمد طال أعادت الجاهلية القديمة وتركت كسفها يتساقط هنا وهناك ، فلا يُبقي ضياء ولا عرفانا .

ومن المحزن أن نقرأ ترتيب الأجناس التي تسكن هذه الأرض فإذا بجمهور المسلمين يحتل المنزل الثالثة عشر ، ولا ندري أيعقبهم الزنوج في المنزل التي تليها ؟ أم يشركونهم في تلك المنزل فلا يحىء بعدهم إلا الزواحف والحشرات . . ؟

وينبغي أن نعترف بالمحاولات الجبارة التي بذلها طائفة من الحكام لرفع مستوانا المادي والأدبي . وينبغي أن نعترف كذلك بأن ينابيع المعرفة التي تفجرت في «أوروبا» فاضت علينا كما تهبط المياه من الشلالات الساقطة على الوهاد السحيقة فيسمع لها هدير بعيد .

وقد قلنا : إن العلم الحديث تحسس طريقه في الحياة وحده وأنه لم يجد معونة البتة من الكهانات الأولى ، بل لم يخلص مسيره من العوائق المثبطة إلا بعدما هشم هذه الكهانات وأفقدوها حراكها وشق دهرها طويلا في مصارعها والتغلب عليها . . .
وهنا نجد فرقا ضخما بين أحوال الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، يسجله تاريخ العصور الوسطى .

إن ارتقاء الحضارة واستبحار العمران اقترنا بازدهار الإسلام في بلاده .
ولم تنحدر أحوال المسلمين المادية والأدبية إلا في العصور التي انحطت فيها الثقافة الإسلامية واستعجم فيها هذا الدين .
وعلى العكس في «أوروبا» فإنها لم تبدأ نهضتها الكبرى ، وتذرع طريق القوة

والنجاح إلا بعد ما حسمت صلاتها بالكنيسة وفصلت الدين عن الدولة وعن العلم وعن الاقتصاد وعن التقاليد وعن بقية شئون الحياة .

ونهضة العلم بعيدا عن الدين في « أوروبا » ثم بجيئه إلى الشرق على حين ضعف من الإسلام وجمالة في اتباعه جعل العلم يتجههم للإسلام والمسيحية على سواء ، ويرسل عليهما أحكاما واحدة . . .

وهذا حيف ظاهر وقضاء جائر . ومع ما فيه من خرق ، فإن أغلب المتعلمين في بلادنا قد غروا به ، وتقبلوه وكأنه بديهية لا ريب فيها !!

ومن ثم تحمل الإسلام أوزار غيره ، فأضيفت إليه نعمت وفرضت عليه مواقف هي أبعد ما تكون عن طبيعته وعن تاريخه .

وبذل المستشرقون والكتاب النافهون جهوداً كبيرة لتلويث سمعة الإسلام وسوقه في صعيد واحد مع غيره من الأديان التي طالما تأذى العالم من جانبها ولم ينقذ إلا يوم نأى عنها . . .

وانظر إلى كاتب معتدل كالأستاذ « محمد زكي عبد القادر » يتحدث عن وضع الأديان في الحضارة الحديثة فيقول .

تأملت في هذه المنافسة الحادة القوية بين المسجد وبين السينما . وهي منافسة أوسع من هذا نطاقا ، فإنها في الواقع بين المسجد والكنيسة وبين السينما ودور اللهو جميعا .

وهي — بتعبير آخر — منافسة بين الأديان وماتدعو إليه من عبادة وتقشف واتجاه إلى الله ، وبين الدنيا وما تدعو إليه من انصراف إلى المتاع واللهو .

ولاحظت أن الأديان تتحمل موجة طاغية ، يظهر أنها تضعفها شيئا فشيئا ، بينما تزداد أسباب الفتنة قوة وذيوها .

وتساءلت هل لو صدر قانون أو قرار يحرم فتح دور السينما في صباح الجمعة ، يزداد رواد المساجد ، ولو صدر قانون أو قرار آخر يحرم فتح دور السينما في صباح الأحد يزداد رواد الكنائس ؟

وكدت أجيب بأن المساجد والكنائس لن تفيد شيئا من إغلاق دور السينما .
والأصح أن الذى يفيد هو المقاهى والمشارب والشوارع ، فإن الناس أغلب الظن
سيفضلون الجلوس فى المقاهى والمشارب يرقبون النساء والفتيات الممارات ويتبادلون
التعليقات المختلفة ، أو يفضلون التسكع فى الشوارع على الذهاب إلى المسجد ، حيث
يقف رجل مؤمن يؤكد لهم أنهم خرجوا على أحكام الدين وأن عذاب جهنم ينتظرهم ،
أو إلى الكنيسة حيث يجدون رجلا مؤمنا آخر يؤكد لهم الشئ نفسه ويدعوهم
إلى ملكوت السماء .

إن أزمة الأديان ليست أزمة القوانين أو أزمة السينما والمسارح ودور اللهو ،
ولكنها فى الواقع أزمة الإيمان . فإن الإيمان بهتز فى القلوب اهتزازا خطيرا والشك
يزحف على المعتقدات بصورة مزعجة . وما أحسب أن الكوارث التى يتوقعها الناس
فى الحرب القادمة ، والمصائب التى تحملوها فى الحربين العالميتين الماضيتين إلا مسئولة
عن اهتزاز العقائد هذا الاهتزاز الخطير . وقد زاد عدد الجحدين للأديان زيادة
كبيرة على أثر الحربين ، وضاعف من هذا الجحود اضطراب الحياة الاقتصادية
والاجتماعية وذبوع الشك فى قدرة الأديان على علاج المشاكل ، بل تحميلها الكثير
من التبعات فيما بلمته الحياة من اضطراب وقلق .

غير أن هذه الحقائق لا ينبغى أن ترعجننا على مصير الأديان ، فإن هناك موجات
واسعة النطاق بدأت تظهر فى أوروبا وأمريكا والشرق تنادى بالعودة إلى الإيمان ،
وتغليب الروح على العقل ، والالتجاء إلى السماء بدل الاعتماد المطلق على العلم ، وقد
يتحول هذا الجحود المتزايد بالأديان إلى اندفاع شديد نحوها . يومئذ قد تلغى دور
السينما حفلات الصباح فى يومى الجمعة والأحد من نفسها دون قانون أو قرار .

من يدرى ربما يحصل هذا ، وربما يحصل العكس فتدمر القنابل الذرية المساجد
والكنائس ودور السينما واللهو ، وتقضى على الإيمان والإلهاد ، وعلى الشك واليقين ،
ويعود العالم مرة أخرى إلى حياة الغابات البدائية ، وتكرر القصة من جديد ،
وبيعث الله الرسل ، عسى أن يكون البشر فى الدورة الجديدة للحضارة أكثر
عقلا وأكثر إيمانا . .

في هذا الكلام نسمع أن الإسلام - كأديان أخرى - مسئول عن الحروب العالمية التي شنتها وصنعت أسلحتها وجرت الناس إليها دول « أوروبا » .

وفي هذا الكلام نسمع أن الإسلام فشل في علاج علل لم يُستشر يوماً في حلها ولا سئل عن أصلها وفرعها لأنها بدت ثم فشلت في مجتمعات أوروبا ! .

وفي هذا الكلام نسمع أمانى حلوة عن عودة الإيمان إلى الحياة وآية هذه العودة المرموقة تغليب الروح على العقل والالتجاء إلى السماء بدل الاعتماد المطلق على العلم ! .

وهذه كلها أفكار مسيحية محضة ، لا يربطها بالإسلام خيط واه ولا قوى ! .

ذلك لأن الإسلام لا يغلب على العقل روحاً ولا جسداً ، ولا يقر تفاوتاً بين منطلق

العلم ووحى السماء . .

فما أحكمه العقل ودعمه العلم فهو دين . .

وماندَّ عن ذلك فهو مفترى على السماء وإن نسب إلى ألف نبي ورسول . .

إن الإسلام تقدّمى أكثر مما يظن هؤلاء الكتاب . لكن ثقافتهم التي تعتمد في تكوينها على عناصر كثيرة من الغزو الاستعماري جعلتهم ينقلون في حق الإسلام ما قيل في حق غيره . .

ولما كانت المسيحية تفصل العقيدة عن العقل ، ولا تخضعها لمنطقه الأخاذ ، فإن كتابنا عفا الله عنهم نظروا إلى أزمة التدين في بلادنا ثم قالوا مواسين للمؤمنين المحزونين : لا تجزعوا سوف يسأم الناس يوماً التعلق بالعلم والعقل ويرجعون للدين .

إن الطابع الصليبي الذي جعل القاهرة تغلق حوائطها يوم الأحد على أنه يوم الراحة الأسبوعية - هو نفسه الذي يهيمن على أفكار كتابنا الأفاضل . .

لكن كيف نجح الغزو الثقافي الأجنبي في صياغة الأجيال الجديدة على هذا النحو الشائه ، وكيف أمكنه إخفاء معالم الإسلام وتجهيل بنييه فيه ؟ .

ولا نحب أن نجيب على هذا السؤال من عند أنفسنا ، لنترك الإجابة عليه للأستاذ « سلامة موسى » فإنه بعد أن استهجن مسلك جمهور المصريين في محاربة مدارس التبشير وصد أبنائهم عن تلقى ثقافتها المدخولة قال : « إن الطبقة المستنيرة من الأمة هي تلك التي تعلم أفرادها في مدارس المبشرين الفرنسيين . . وهم

- مع الأسف - أفراد قلائل ! ثم تابع كلامه عن مشكلة الثقافة في مصر فقال :
ص ٨٦ كتاب « التثقيف الذاتي » « على أن ما فقدناه توشك الجامعاتان المصريتان
بالقاهرة والاسكندرية على أن تعوضانا منه . . فهنا دراسات عصرية جديدة هي الآن
خميرة صغيرة ولكنها مثل الخماير ، ستربو وتتفشى في أنحاء البلاد . . وتضع لنا ثقافة
جديدة تجعلنا نعيش بأذهاننا ونفوسنا في القرن العشرين » .

فالأمل الذي ينشده العاطفون على التبشير والحاقدون على الإسلام هو إنشاء
أجيال تتنكر لديها وتهرب من ماضيها لأن في النسب إليه معرة ! .

وقد علمت أن الإسلام لا يمكن أن يحيا إلا في أشعة المعرفة فمن المضحك أن يعد
الرسوخ في العلوم الحديثة مغاصمة له . .

إلا أن الصليبية الجديدة سارت التطور ووضعت مناهج الدراسة في الجامعات
الكبرى بحيث يخرج الرجل المثقف وهو لا يدري عن الإسلام إلا إشاعات طائفة
أو ظنوناً خاطئة . .

وهذا التجهيل المتعمد هو نصف الطريق التي رسمتها أوروبا الصليبية للقضاء
على الإسلام خصمها القديم . .

إن الأستاذ سلامة يكره المتنبي الشاعر كراهية قاسية . . فإذا سألته لماذا ؟
أجابك : مادح مرتزق صغير النفس ! ومع أن المتنبي من أرفع شعراء الدنيا قدراً
وأسماءهم همة إلا أن هذا ليس موضوع حديثنا . . والواقع أن الرجل يكره
المتنبي لأنه أطال في وصف المعارك التي دارت بين العرب والروم ، أي بين الإسلام
والصليبية القديمة . .

وهو بهذه العلة التي أكلت قلبه ضد الإسلام يكره «شوقي» فإن شوقياً - رحمه الله
كان يرفع عقيرته بالنواح الأسيف كلما سقطت للإسلام مدينة في الحروب التي دارت
بين الترك ، وبين جيранهم من روس وصقالبة ويونان .

وكانت عواطفه المفعمة بالأسى على الخلافة المديرة ومجد الإسلام الذاهب تظهر
في قصائده المجودة فترفع مستواها الفنى إلى القمة .

ومن البديهي أن ينفر من ذلك رجال يريدون أن يُيهال التراب في صمت على حاضر الإسلام وماضيه . .

فحورب شوقي في حياته وبعد مماته محاربة عنيفة . .
والمضحك أن هذه الحرب الوضيعة أخذت الطابع الأدبي البحت فأتهم شوقي بالرجعية في الفكر والصياغة والأداء .

وعد الصراع بينه وبين خصومه صراعا بين القديم والجديد ! .
ويعلم الله أن إسلاميات شوقي هي سر التحامل عليه ! .
إن الكهان الذين يحاربون الإسلام أبرع من الكهان الذين يتأكلون به . .
وليت قومي يعلمون . .

قد يقول بعض الناس : هل تريد إقحام علوم الإسلام على المدارس والجامعات ؟
وقبل أن أجيب بـ « لا » أو نعم أريد أن أسخر من أولئك المتسائلين : لماذا خرست ألسنتهم وهم يرون الصليبية المحنقة تدس أصابعها في برامج العلم لتقضى على لغة العرب وشعائر الإسلام في الوقت الذي تحيي فيه لغاتها وتوقظ عصبياتها ؟ .

إن من حق المسلمين أن يعرفوا دينهم وأن تقدم لهم وجبات كاملة من تعاليمه تنمي أرواحهم وتزكي نفوسهم وتكشف لهم عن جوانب من الحقائق التي قامت بها الأرض والسماء . .

ومن حق المسلمين أن تميظ أمام أعينهم اللثام الماكر الذي يتستر به دعاة التطور في العلم والأدب ، ليروا الوجوه السكالحة على طبيعتها الدميعة .
وإني أعترف بأن في علماء الدين من لا يساوى فلسفياً ، إما لفساد في عقله أو في قلبه . . أعني في علمه أو في نيته . .

ولكنني أعترف كذلك بأن في العلماء المدنيين الأفحاح جما غفيرا قتلهم الغرور والهوى فما انتفعت بهم الأمة ولا ارتقى بهم العلم . .

وهؤلاء وأولئك لا تصح بهم نهضة . . على أن الإسلام لا يقوم بجامعات « لاهوتية » وجامعات « علمانية » . .

هل يمكن أن تقوم في « روسيا » مدارس حمراء وأخرى بيضاء ؟ .

إن الإسلام مهاد نهضة وبنائها . .

والعلم المادى المحض يتحول فى جنباته عبادة مستغرقة وتتحول معاهده محارب
مخبتة مادام باعث الإقبال عليه أسمى من بواث الدنيا الصغيرة سرائها وضرائها . .
وقد تواضع الناس فى مصر على احتساب الأزهر جامعة دينية وسائر الجامعات
الأخرى مدنية . . وهذا تقسيم خطأ سواء فى شكله أم فى موضوعه . .
فإن العلوم التى تدرس فى الأزهر ، والكليات التى نيطت بها ، يمكن ضمها إلى
مئلاتها فى أية جامعة دون ضير . .

كما أن الكليات العملية فى أية جامعة — لو حملت عنوان الأزهر — ماتغير شيء فيها
ولا فرض الإسلام جديداً على برامجها . .

وما انقسم التعليم العالى عندنا هكذا إلا تقليداً للغرب واقتفاء لأثره !!
ولارب أن الإسلام قد أصابته أضرار فادحة من هذا الانقسام . .
قال الدكتور أحمد أمين : سألنى عالم هولندى : ألكم أمل فى الأزهر ؟ قلت :
لا . لأن الأزهر يتزعم الحركة الرجعية . . وحركة الشباب قوية عنيفة . . ثم إن
القصر الملكى يحتضنه . . والقصر يريد له أن ينام وأن يُنيم . . — كان هذا أيام
أمرة محمد على — وسئل الدكتور : هل لكم أمل فى الجامعة ؟ قلت : لا . لماذا ؟
أجاب : لأن الجامعة مدنية محضة ليس لها اتجاه دينى . .

والدكتور أحمد أمين فى هذه الإجابات يحوم حول الحقيقة التى أشرنا إليها آنفا .
وقد رأى الأستاذ أبو الحسن الندوى أن يستريده بياناً فى هذا الموضوع فسأله :
هل فشل المسلمون فى الجمع بين المدنية المصرية والروح الدينية ؟ فأجاب : كان الجانب
المدنى يطنى على الجانب الدينى فى أغلب الأحيان . . وذلك لضعف الرجال الذين
يمثلون الإسلام !!

واستطرد : إن العالم الإسلامى ينقصه رجال عرفوا مقاصد الشريعة الكبرى
يواجهون الحضارة الحديثة مواجهة الناقد المبصر . . ليميزوا ما ينفع وما يضر . .
ثم إنه فى هذه المرحلة المحزنة من تاريخنا ينبغى أن نحذر مركب النقص تجاه هذه
المدنية الوافدة الغالبة . . والعلاج الأول هو إيجاد الحلقة المفقودة ! إيجاد علماء
يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا . .

يفهمون الجماهير أن ليست حضارة الغرب خيرا محضا ولا مأم عليه شر محض . .
وهذه الإجابة تنطوى على قدر كبير من السداد . . .
فإن الحضارة الحديثة تضم عناصر متفاوتة القيم ، فإيمت منها إلى العلم المجرد
والطبيعة الأصلية يجب أن نقبله دون تردد !

وكيف نتردد في شيء من ذلك والإسلام دين العقل والفطرة ؟
إن الذين يعترضون هذا الاقتباس هم أعداء الإسلام وأعداء أنفسهم وأعداء
العالم كله . .

وفي هذه الحضارة شهوات مطاعة وأرجاس مقررة ورذائل يُشعلها الهوى
والبنى والغرور .

وهناك نزعات لها خصائص النباتات المتسلقة فلا كلام في ضرورة البعد عنها
إنها غريبة عن الحضارة بل هي خصم لها قديم . .

بيد أنها أفتحمت نفسها عليها وتراءت للمغفلين ، وكأنها إحدى ثمرات
الارتقاء العام (!)

تلك هي الصهيونية والصليبية .
وعلى المسلمين أن يحذروا عدوهم القديم في ثيابه الجديدة ، إنها نزعات ضد
الحضارة وضد الإسلام . .
والطفيليات في البستان تُجَحَّت ولا تُسْتَبَقَى .

إن الأزمة الآخذة بخناق الإسلام في هذا العصر شديدة الوطأة محذورة العاقبة .
والغزو الثقافي الذي انتشر في أرضه على نطاق واسع بدأ يؤتى ثماره المريرة .
جمهور الشباب من بنين وبنات لا يربطه بدينه إلا نسب الاسم الموروث .
وسياسة تجهيل النساء في الإسلام كله أو بعضه تشق طريقها بقوة في أغلب
الجامعات والمعاهد .

وقد كتب الأستاذ محمد التايبي في الأخبار^(١) :

(١) العدد ٧٧٦ .

« قال لي طالب عراقي يدرس الطب هنا^(١) إنه سأل مرة زميلة له في الكلية عن دينها ! .. وبهتت الفتاة ثم قالت : ديني ؟ أظنه الإسلام !! .

وعاد يسألها : ولكنك تقولين إنك مخطوبة لشاب سويسري كاثوليكي ..
وقالت الفتاة : ولم لا ؟؟ .. !! »

وعندما يراد إتمام مثل هذا الزواج في بلاد لا تزال للإسلام فيها قداسة اسمية يغير الزوج اسمه القديم فحسب ويبقى كما هو نصراني الجواهر لا المظهر ، هذا إن لم تعلن المرأة ارتدادها ثم تحيا كما شاءت ..

والأستاذ « محمد التابعي » يدهش أو يأسف لأن تركيا لا يزال شعبها متمسكا بالإسلام ، ولا يزال الحنين يماود هذه الأمة البائسة ، ويعطفها على الدين الذي اعتنقته دهرأ . !

وهو لا يتحرج من إعلان دهشته وأسفه لبتعجل الاستقرار المنشود والاستقرار الذي ينشده لتركيا ومصر وغيرها من أقطار الشرق الإسلامي هو التخلص من الماضي بما حوى والاندماج في الغرب اندماجا لاشائبة فيه .

وفي الوقت الذي يستباح الإسلام فيه علانية على هذا النحو يعقد الكرى أجفان العلماء المكلفين بحراسة الإسلام ويتقهقر الأزهر والمعاهد الملحقه به نقهقرأ . عاما في ميدان التربية والتعليم ..

(١) في تركيا .

السمع والطاعة

[أبعد الناس عن الإسلام رجل
فقد حرية فكره وإرادته]

(١)

من أمارات الإحكام في شئون الجماعة والدولة ، أن تنتقل الأوامر من الرؤساء إلى الأطراف كما ينتقل التيار من المولد الكبير إلى الأسلاك الممتدة فلا يقطع نوره خلل ولا يرد قوته قطع أو خبل .

إن الجسم المعافى تستجيب أعضاؤه « للإرادة » التي تنقلها الأعصاب من الدماغ المفكر فيتحرك أو يسكن وفقها .

ولن تعجز الإرادة عن بلوغ أهدافها إلا إذا اعتل الجسم وأصيبت أجهزته بالعجز أو الشلل . .

والمجتمع الصحيح كالجسم الصحيح يشد كيانه جهاز دقيق ويضبط أموره بنظام محكم ، وتعاون ملكاته العليا وقواه المنفذة تماونا وثيقا يسير به في أداء رسالته كما تسير الساعة في حساب الزمن . .

وقد وضع رسول الله قاعدة هذا النظام المتجاوب وجعل القيام عليه من معالم التقوى ، فإنه لن يستقر حكم ولن تصان دولة إلا إذا سادتها الطاعة والنظام .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « من أطاعني فقد أطاع الله . ومن عصاني فقد عصى الله . ومن أطاع أميري فقد أطاعني . ومن عصى أميري فقد عصاني » . وقال الله عز وجل « أطيعوا الله » أي اتبعوا كتابه ، « وأطيعوا الرسول » أي خذوا بسنته . « وأولى الأمر منكم » أي فيما كلفوكم به من أمور تخدم الكتاب والسنة . . .

وطبيعة الحياة عند ما فرضت خضوع الجسم للعقل إنما بنت هذا لمصلحة الجسم والعقل جميعا ، على أساس أن العقل لن يصدر عند ما يضر الجسم أو يؤدي به إلى التهلكة .

فإذا استحمق امرؤ وشرع يخلط ، حججنا عليه فورا ، إنقاذاً له من شر نفسه وإنقاذاً للجماعة منه . .

كذلك اطردت فطرة الله في شئون الحياة كلها .

فقوانين السمع والطاعة التي سنّها الإسلام بل التي وضعها نظم أخرى

وطبقته بصرامة ، لم يقصد بها إلا حفظ المصلحة العليا للجماعة ، فكأنما أملت بها غريزة البقاء وضرورة الحياة .

ولا مجال البتة لجمعها متنفس هوى جامع أو شهوة عارضة .

وعند ما شرع قانون السمع والطاعة لم يفترض في الأطراف التي تمثله إلا قيادة راشدة تنطق بالحكمة وتصعد بالحق وتأمر بالخير ، ثم جنود يلبون النداء ويمنعون العوائق ويتممون الخطوة .

وبذلك تنظم دورة القانون في الأمة كما تنظم دورة الدم في البدن فتستقيم الحياة وتستقر الأوضاع .

أما الطاعة العمياء لا شيء إلا لأن القائد أمر . وأمره واجب الإنفاذ ، فذلك منكر كبير وجهالة فاحشة لا يقرها شرع ولا عقل .

روى الإمام أحمد في مسنده قال : بعث رسول الله سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار فلما خرجوا وجد عليهم الرجل في شيء - تبرم بسيرتهم معه - فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعوني ؟ . قالوا : بلى قال : فاجمعوا إلى خطبائي ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنَّها . .

فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله من النار ، يعني - فكيف تقادون باسمه إليها - ؟

لا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها . . . فرجموا إلى رسول الله فأخبروه . فقال لهم : « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا . إنما الطاعة في المعروف » .

لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا . . .

هذا الترهيب الغليظ يستأصل جذور الطاعة العمياء من نفوس الأنبياء جميعا ، ويجعلهم يحمقون فيما يصدر إليهم من أوامر ، فلا يكونون عبيدا لإله ولا جثيًا لإلحاق .

إنما استكبر من الفراعنة والجبابرة لأنهم وجدوا من الرعاع من

يسارع إلى إجابة أهوائهم وإطاعة نزواتهم دون بصر أو حذر ففتوا في الأرض
وعلوا علواً كبيراً . .

ولو أنهم عند ما أصدروا أوامر يملأها الغرور وتنكرها الحكمة وجدوا من يردها
عليهم ويناقشهم الحساب ، لترثوا طويلاً قبل أن يأمرؤا بباطل .

والثقة - وخصوصاً في أهل الدين - تفرس حسن الظن فيما يأتون
ويذرون ، وتجمال المرء يتلقى توجيههم بالقبول الحسن فهو ينزل عنده مطمئناً إلى أنه
يُطِيع في المعروف .

ونحن لا نلوم إنساناً على نقاوة صدره وليونة طبعه ، ولكن المؤمن لا يأذن
لأحد أن يستغل هذه الصفات النبيلة فيه ليجعل منه شخصاً طائش القياد ضرير
العين والقلب . . .

فساد الأديان الأولى جاء من طراوة الانبعاث في أيدي رؤسائهم وتحوُّلهم مع
مبدأ السمع والطاعة إلى أذنان مسيِّرة ، لا فكر لها ولا رأى .

رُوي أنه لما نزل قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله »
قال عدى بن حاتم - معترضاً - : إنهم لم يعبدوهم ، فقال رسول الله : بلى ، إنهم
حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فتلك عبادتهم بإهم . . .
فانظر كيف غدت الاستجابة العمياء شركاً . وكيف استغلت الثقة لتغيير أحكام
الله وإضلال عباده عن الصراط المستقيم .

إن الفراغة والأباطرة تألهوا لأنهم وجدوا جماهير تخدمهم بلا وعى .
والأحبار والرهبان والبابوات تألهوا كذلك ، لأنهم وجدوا رعايا تمنحهم الثقة
المطلقة وتلغى وجودها الأدبي أمام ما يصدر من أحكام .

والشعوب التافهة في كل زمان ومكان هي التي تصنع المستبدين وتغريهم
بالآثرة والجبروت .

وقد بلغ من حق العامة في بعض أدوار النهضة المصرية الأخيرة أن قالوا :
الحماية على يد فلان خير من الاستقلال على يد فلان ! . . لو رشح فلان حجباً
لا نتخبناه . .

إن الحب المكين شيء واحترام الحقيقة المجردة شيء آخر .
ولشعبٍ ما أن يعشق زعيمه وأن يصوغ فيه قصائد غزل . . .
بيد أنه لا يسوغ أن يتطور به هذا الحب حتى يحاكم الحقائق إلى شخصه بدل
أن يحاكم شخصه إلى الحقائق . . .

ومن قديم عرف المصلحون والأئمة أن السمع والطاعة وسائل لا بد منها لسير
الأمر وبلوغ الغايات .

ونحن لا نمارى في المبدأ بعد ما شرحنا أصله في صدر حديثنا ، وإنما نحذر من
الزوائد الخطرة التي تنضاف إليه وتتوسع فيه وتقتل الحقيقة والحرية باسمه .
إن الإسلام لم يشرع قانوناً ينتقص من « الاستقلال الشخصي » لأى إنسان
أو يفضّ من « حريته الفكرية » .

ألم تر إلى موقف رسول الله وصحابته في أسرى بدر ؟
لقد استشار أصحابه ما يصنع فيهم ؟ فما حاول أحدهم أن يتعرف رأيه ليتملقه
بتأييده ، بل أدلى كل منهم بما يراه الحكم الصحيح في القضية المروضة وسار كل
وفق طبيعته الخاصة .

الحليم يعرض العفو ، والحازم يعرض العقاب ، ولا يعنيننا أن نعرف هنا من أخطأ
أو من أصاب .

وفي السيرة شواهد شتى لما كان عليه السلف الأوائل من أصالة نظر ، وحرية
فكر ، مع ما أثر عنهم من حب عميق لرسول الله وما أخذ عليه من مواعيق
السمع والطاعة .

ونحن نعرف أن بعض الناس لا يحسن التفكير العام ، وقد تظم إلى ذلك أنه
لو ترك لكل امرئ الحق في مناقشة ما يكلف به لتسربت الفوضى إلى شئون
الحكومات والشعوب .

وهذا حق ، ولكنه لا يصادم ما نحن بصدد تقريره . إن هناك فرائض لا يجوز
خدشها ومحرمات لا تمكن استباحتها ، وشئونات أخرى هي مجال للأخذ والرد
وتفاوت التقدير .

وهذه لا يملك البت فيها واحد برأسه ، وإنما يرفع الخلاف فيها أصحاب الحل
والمقد وأهل الشورى . .

فإذا مرت بمرتبة البحث والعرض ، فسل كل ذى رأى أن يظهره وأن يدافع عنه
غير منكور ولا محقور . . .

حتى إذا تمخض الدرس والنقد عن رأى الذى استقر عليه الإجماع أو جنحت
إليه الكثرة لم يبق مكان لتردد أو ارتياب أو اعتراض .

والحكومات المعاصرة - على اختلاف مذاهبها - تحترم هذه القاعدة .
ولعل هذا . سر الأفراد والجمع فى الآية « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » فالإله
واحد . والرسول واحد .

أما « وأولى الأمر منكم » فهم كثير . . وما يقرونه - جماعتهم أو أغلبهم -
فهو محل احترام العامة .

وليس ذلك الذى أقره الإسلام فى سياسة أمته بدءاً بفرد به ، فإن أمماً أخرى
وفلسفات أخرى أقرت مثله من قبل ومن بعد .

ذلك . وليس كل من غلب على حكم بلد ما يسمى ولى أمر فيه ، تقرن طاعته
بطاعة الله ورسوله .

فكم أرمى قرونا من تاريخ الإسلام الرحب وبقاعا من وطنه الكبير فلا أجد
ظلاً لولاية صحيحة . . !

كما أن الشئون التى يمالجها الولاة الموثقون تتفاوت فى موضوعها تفاوتاً كبيراً
فشئون الدنيا غير شئون الدين .

وشئون الدين نفسه ليست سواء ، فالأصول غير الفروع . والنظري
غير العملى . . .

قد يختلف أولو الأمر فى بناء جسر أو تلمية خزان ، وقد تختلف فى ذلك معهم
ولا صلة لهذا الخلاف بطاعة أو معصية . . .

وقد يختلفون ويختلف معهم فى فقه الصلاة ويلتزم كل منا وجهة نظره . . .

ولا وزن هنا خطأً أو صواب . . .

ثم إن الرجال الذين يسمون أولى الأمر شرعاً ، والشئون التي تُرى طاعتهم فيها ديناً ، مما تسكلم العلماء في بيانه ورفعوا الغموض عنه . . .

ولقد عجبتُ لخلاف وقع بين شباب الإخوان المسلمين أثاره بعضهم بتساؤله : هل نحن جماعة المسلمين ، أم نحن جماعة من المسلمين ؟

والإجابة على هذا السؤال لها نتائج ذات بال .

بل نتائج ترتبط بها صيانة دماء وأموال !

فإن الذين يحسبون أنفسهم جماعة المسلمين يرون مخالفة الأستاذ حسن الهضيبي ضرباً من مخالفة الله ورسوله . وطريقاً ممهدة إلى النار وبئس القرار !

وقد كنت أسير مع زميلي الأستاذ سيد سابق قريباً من شعبة المنيل فمر بنا اثنان من أولئك الشباب المفتونين وأبياً إلا إسماعنا رأيهم فينا وهو أننا من أهل جهنم ! وصادف ذلك منا ساعة تبسط وضحك ففضينا في طريقنا وقد سقط طنين الكلمة النابية على الثرى قبل أن يتماسك في آذاننا . . .

إلا أنني تذكرت بعد أيام هذا العداء المر والأوامر التي أوحى به . فمز على أن يلعب بالإسلام وأبنائه بهذه الطريقة السمجة .

وأن تتجدد سياسة الحوار مرة أخرى ، فيلعب أهل الإيمان ويترك أهل الطغيان .

وبم ؟ باسم أن الرئيس وبطائته هم وحدهم أولو الأمر ! وأن لهم حق السمع والطاعة ؟ وأن الخارج عليهم يصدق فيه قول رسول الله : من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر . فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية » وقوله : « من خلع يدا من طاعة لقي الله لا حجة له . ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » . . .

وهذه الأحاديث وأمثالها وردت في منع الفتوق الجسيمة التي يُحدثها الشاغبون على الدولة .

وقد عانى المسلمون وعانت خلافتهم الكبرى أقسى الآلام من ثورات الخائفين والناقمين .

وربما كان سقوط الحكم الإسلامى فى الأرض بسبب هذه الانتفاضات الهائلة . .
أما أن جماعة أنصار السنة أو جماعة الشبان المسلمين أو جماعة أهل الصفة يجرئون هذه الأحاديث إلى دورهم ويطبقونها على من يبقى معهم أو يخرج عليهم فهذا جنون .

بيد أن تعليم هذا الجنون كان أسلوب تربية وتجميع عند بعض الناس !!!
فن المضحك أو من المبكى أن يخطب الجمعة فى مسجد الروضة عقب فصلنا من المركز العام من يؤكد أن الولاء للقيادة يكفر السيئات ، وأن الخروج عن الجماعة يحقق الفضائل ، وأن الذين نابذوا المرشد العام عادوا إلى الجاهلية الأولى لأنهم خلعوا البيعة . . .

ورئى الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة القاهرة يخلص بالخطيب جانبا ليقول له : أى إسلام هذا ؟
ومن من علماء الأولين والآخرين أفتى بهذا اللغو ؟ وكيف تلبسون الدين هذا الزى المنكر ؟

وهيهات فقد تفاعل هذا الضلال فى نفوس الناشئة حتى كتب بعضهم لآخ له
— من قبل — يسأله : هل تظن نفسك مسلما بعد ماخرجت من هيئة الإخوان ؟
ولنفرض أن المرشد العام هو أمير المؤمنين وأن له حقوق الخليفة الأعظم (!)
فهل هذا يؤتبه على أتباعه حق الطاعة العمياء .
إن رسول الله نفسه لم يؤت هذا الحق ! ففى بيعة النساء يقول الله له « . . ولا يعصينك فى معروف » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . .

وروى مسلم عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس فى ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه . فأتيتهم

فجلست إليه فقال : كفا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلا ، فبنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشره ^(١) ، إذ نادى منادى رسول الله : الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله فقال : إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما كان يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم — وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها . ونجى الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول : المؤمن هذه هذه ! . . . فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه . ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه فليطعمه إن استطاع . فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ! .

قال : فدنوت منه فقلت : أنشدك بالله ، أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأهوى — إلى أذنيه وقلبه — بيديه وقال : سمعته أذنأى ووعاء قلبي . فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا ، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما » . قال : فسكت ساعة — لحظة — ثم قال : أطعه في طاعة الله وأعصه في معصية الله . . .

سياق الحديث كما ترى في توفير الأمن لحكم قائم ، وخليفة مبايع ، ومع ذلك فإن عبد الله رأى التمرد على الحاكم فريضة إذا أمر بمعصية فكيف بالتمرد على رجل من سوقة الناس منح نفسه أو منحه أشياعه سلطانا موهوما !

على أن من الإنصاف لتعاليم الإسلام — ونحن بصدد الكلام عن تغيير الأحكام — أن نذكر القاعدة القائلة : إذا كان تغيير المنكر يؤدي إلى مفسدة أعظم فالإبقاء عليه أولى ، وذلك مصداق قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . واعلموا أن الله شديد العقاب » .

(١) الجسر — بفتح الشين — المال يرعى في مكانه لا يرجع إلى أهله ليلا . والمراد أن بعضهم كان في مصرعي ماشيته .

والواقع أن الزلازل التي تتبع إسقاط الحكومات قسراً بعيدة المدى . ومن ثم لم يرض الإسلام أن يُشهر السيف في وجه حاكم إلا أمام ضرورات ملجئة .
أبأنها هو ولم يترك بيانها لتقدير أحد .

بل أنه حجب إلى المؤمن التصحية ببعض حقوقه الخاصة إشاعة للاستقرار في أنحاء البلاد وإغلاقاً لمنافذ الفتنة . فعن عبادة بن الصامت قال : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله — أى نطلب الحكم من ولاته — إلا أن نروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان » . . .

إن الأمة التي تغير حكامها كما تغير المرأة أزياءها لا تصلح لها حال ولا تبقى لها ربح .

وإنني لأمت أن أكون داعية لحاكم ما . وأستعبد بالله من أن أعين بكلمة على بقاء وال جائر .

غاية ما أبغى أن أشرح قانون السمع والطاعة وأن أمنع الكهان والدجالين من الاحتيال به على ناشئة قليلة الفقه في الإسلام ، إن تغيير حاكم شيء والانصراف عن واعظ غير موفق شيء آخر .

لقد كان الراسخون في العلم يدعون إلى الله ويتجردون للدعوة ، فكان الناس رعون طاعتهم من طاعة الله لأنهم تلقوا دروس معرفته عنهم .

ثم جاء الراسخون في الجهل يطلبون حقوق القيادة ، ويتحدثون عن قانون لسمع والطاعة ، ولست أعنف دعياً من هؤلاء على مزاعمه ومطالبه . فالأمر كما قيل :
« بعض الناس طغاة لأننا نركع لهم » .

(٢)

القول بمعصية الأئمة غير معروف بين جمهور المسلمين من أهل السنة . .
فذهبهم أن القائد أو الحاكم يجبى من أى طبقة ، وأنه في موضعه العالي من تصريف الأمور يجوز عليه أن يخطئ وأن يصيب .
وأن نصحه — إذا أخطأ كمؤازرته إذا أصاب — واجب على الأمة . .

بل إن أهل السنة يرون أن النبي صلى الله عليه وسلم — على جلالته — قد يخطئ
فيما لم ينزل به وحى . . . ولكن الإرشاد الأعلى يستدرك عليه ويوجه اجتهاده
إلى الصواب الذى فاته .

أما الشيعة فهم يحصرون الخلافة فى الأسرة النبوية ، ويقولون بتقديس من يتولى
منهم شئون المسلمين . .

ولست فقيهاً فى مذهب الشيعة . . ورأى أن الخلاف فى سياسة الحكم — عندنا
معشر المسلمين — سياسى لا عقدى ، وأن أركان الإسلام تظل عند ما يقحم عليها هذا
الخلاف الذى بدأ تافهاً ثم استفحل مذ خالطته شهوات الدنيا . . . !

وأريد أن أعرض هنا المسألة « عصمة الأئمة أو تقديس القادة » . . فإن القول
بعصمة واحد من هؤلاء هو عندى خرافة كبيرة .

ومن السخف أن يطالب عاقل بتصديق هذا الزعم سواء تبجح به رئيس أو
هرف به مرءوس . .

وربما كان الضغط الذى صادفه التشيع أول أمره سر انتشار هذه الخرافة .

فقد استبد الأمويون والعباسيون بالحكم دهرًا طويلاً ، وضيقوا الخناق على
معارضهم حتى جعلوهم يحبون فى جو من الوجل والتوجس . .

والأحزاب المناوئة للحاكم عند ما تفقد نعمة العلانية فى التنفيس عن رغباتها ،
والإبانة عن مقاصدها وغاياتها ، لا ترى بُدًّا من جمع فلولها فى الظلام ونشر تعاليمها
فى شكل رسائل أو منشورات مقتضبة حاسمة . .

وقد كان طلاب الخلافة من ذرية عليٍّ يمشون فى هذا الخفاء المسحور ، وينالون
من الحب بقدر ما يناله الحاكم من سخط .

وربما كان بعضهم أعف نفساً وأصدق قیلاً من أمراء أمية والعباس فهو يرى فى
مناوشة الحاكم وإسقاطه خدمة للإسلام قبل أن يكون خدمة لنفسه . . .

والوسيلة الوحيدة هى المقاومة السرية ، حيث يتلقى الأتباع الأوامر الصادرة من
فوق على إنشائها نصوص واجبة الطاعة ، لا مجال ألبتة لمناقشتها أو التلصص منها ، لا ،
إن شيئاً من هذا لا يجوز بخاطر واحد من الأتباع ! فإن تنفيذ هذه الأوامر دين يُقبل
عليه النفس بلذّة وشغف ، ولو كانت عقابه العطوب . . !

وفي هذه الدائرة المغلقة تتحول الثقة في القيادة إلى قول بعصمة الأئمة .
ذلك أن مرور الزمن على هذا السكبت يحور الصلة بين الأتباع المضطهدين
وساداتهم المحتفين حتى تنتهي إلى هذا المصير . . .
وخطورة هذا الضرب من المعارضة المستخفية أنه البيئة الخصبة لنمو
الأوهام والأساطير .

وأظن أن الفرق الكثيرة التي نهشت جوهر الإسلام - من باطنية وقرامطة
وغيرهم - لم تتولد إلا في هذه البيئة . . .
إن الأوامر التي يصدرها أشخاص فقدوا قوة العمل في النور قلما تخضع
لتمحيص المنطق وتحقيق الشورى .

حتى بعد أن تواتهم السلطة وقيموا حكما يرعى أمور الناس في وضوح النهار . .
وهكذا ينتقل مبدأ تقديس الزعامة من صفوف المعارضة إلى صفوف الحكم نفسه
والإسلام يرى من هذا كله . . .

وقد رأيت جمًّا غفيرا من شباب الإخوان المسلمين ينظرون إلى « مرشدكم »
نظرة يجب أن تدرس وأن تحذر . .

قال أحدهم في اجتماع ضخم للهيئة التأسيسية : إن المرشد لا يخطئ ، وكان
بهذه القولة العجيبة يريد أن يخذلني وأنا أعارض المرشد في بعض تصرفه وقد خذلت
فعلا ، ومزقت ملابس الرجل الذي وقف يناصرني . .

ومع أن كلمة « المرشد لا يخطئ » وجدت امتعاضا من أغلب الأعضاء . . إلا أنه
امتعاض المذنب عندما يواجه بجريرة لا يجد منها فكاكا . . ويكره أن تلتصق به ،
لظهور معرفتها . .

والقوم يخلطون بين توقيير القائد ، وتوفير المهابة له . . وبين الخنوع لرأيه
والمسارعة في هواه . .

إن أول مانشب الخلاف بيننا وبين المرشد العام كان على أسلوب الحكم في مصر
هل تسكفل الحريات العامة ويصان الدستور القائم وتنفذ البلاد من استبداد فرد أو
أفراد؟؟ أم تتجاهل هذا الموضوع كله ونطوى حكم الإسلام فيه وتشتغل جماعة
الإخوان بشئون أخرى ؟

كان الرجل شديد الحرص على مرضاة المستبدين قليل الاكتراث بحقوق الأفراد والطوائف . وقد ألفت كتابي « الإسلام والاستبداد السياسي » استنكارا لهذه السياسة القاصرة . ودفاعا عن تعاليم الإسلام الصحيحة .
ولعل الأستاذ الهضيبي ومن معه عرفوا الآن الحق الذي خاصمناهم عليه وكرهونا من أجله .

قال لي ذات يوم ، واحد من أقرب رجال المرشد إليه : إن الإيمان بالقائد جزء من الإيمان بالدعوة ، ألا ترى أن الله ضم الإيمان بالرسول إلى الإيمان بذاته — جل شأنه — ؟ ذلك لأن المظهر العملي للطاعة والأسوة هو في اتباع القائد اتباعا مطلقا !!

ثم استدرك محدثي يقول : لا أعني بهذا أن أسوى بين المرشد والرسول في حقيقة الطاعة ، إنما أقصد دعم مشاعر الولاء نحو الرجل الذي يحمل راية الدعوة ، فأنا أضرب مثلا فحسب !!

ويمثل هذا الأسلوب رسم مجرى المعاملة بين مرشد الإخوان والجماعة فلما استغربناه وتأبيننا عليه ، ورأينا أنفسنا نبصر الحقائق القريبة والرجل لا يحسبها .. ونعامله مخطئا أو مصيبا غير مفرين هذه الهالة المزورة التي أضفاها الأغرار عليه ، مقتنا الرجل أشد المقت ، مقتنا كما يمتك الكفار والفساق .. !!

ثم سار بمن معه يتقجم العثرات والمزالق لا يلوى على شيء ولا يلام على شيء .
وأعرف أن نفرا من العباقره ظهرُوا في ألمانيا وإيطاليا ومصر والهند أوتوا من المواهب الخارقة ماجرفوا به جماهير العامة واستهوا به الخاصة .

وكانت آراؤهم تعصف بما عداها وأشخاصهم تطوى الأصدقاء وتكسح الخصوم .
وهؤلاء الزعماء الكبار لا تضبط صلاتهم باتباعهم — على هذا النحو —
تعاليم الإسلام ، فلام عرفوها ولا تم تقيدوا بها . إن الاقدار قد تسليح بعض الناس بقوى أشبه بقوى القاطرة التي تجر وراءها ألف عربة وإذا كانت شعوب بأسرها يطويها الإعجاب بقائد ما ، فتنشق حناجرها بالهتاف له ، وتملكها عقلية القطيع في السير وراءه ، فذاك أمر يصح أن تدرس علله ونتأمله على ضوء التاريخ القديم والحديث .

أما الشيء الذى تحار البرية فيه فهو إطباق قبيل من الناس على تقديس شخص ليست لديه ذرة من خصائص الأجداد ، أينما توجهه لآيات بخير .

وفى مُجْمَعِ هذه الطاعة العمياء وقعت أمور يجب أن يكشف الستار عنها .
كانت المنشورات السرية تصدر حاملة أوامر القيادة الخفية وكانت هناك منشورات أخرى توزعها مراكز التجسس الاستعماري .. وتسيرها فى المجرى نفسه الذى تسير فيه المنشورات الأولى . . . وكان عبيد الولاء يحترمون هذه وتلك ويتعصبون لها جميعا . ! !

وفى إبَّان الخصومة القائمة بين المرشد العام وبين الحكومة القائمة نفذ المصطادون فى الماء العكر إلى داخل القطر ، فاستطاع المخربون اليهود أن ينسفوا جسرا فى منطقة القناة ، تعكيراً للأمن وتعويقا للجلاء .

والغريب أن نفرا من عبيد الولاء ظن هذه الحركة بداية جهاد ضد الانكليز (!) جهاد عملى يقوده المرشد نفسه (!) فرحب بهذه الأعمال . . . ! !
إن بركات الطاعة العمياء لا آخر لها ، وأولها أنها تصدق فى أصحابها قول القائل :

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
إننى أرجع بذهنى إلى الأيام التى استجلب فيها السيد حسن الهضبي ليقود الإخوان المسلمين . . فاستشعر الحسرة لأن النطق الوثيق فى تقدير الناس هو الذى هيمن على الموقف كله ، والأجهزة السرية العاملة فى الظلام هى التى سخرت تسخيها لإتمام المأساة . . .

لو كان المفروض أن يقود أهل الجهاد والعلم والدراية والتوجيه لوجد من هؤلاء كثير فى صفوف الإخوان . . لكن أصحاب هذه المؤهلات معروفون يتحدث الناس إليهم وبأخذون منهم ويردون عليهم .

والقائد لا يكون كذلك — وما ينبغى له — (!) ينبغى أن يكون شيئا مبهما تشرئب

إليه الإعناق ، وتخشع عنده النفوس . . . أجل . . . ينبغي أن يكون صنما حيا يأمر
فيطاع ، ويأتى إليه الأشياع ليتمسحوا به ويطوفوا حوله . . .

إذا فليكن المرشد رجلا غريبا عن الجماعة ! وقلت : أما تتخير رجلا له فضل
علم وتربية ، ليأخذ بنواصي الإخوان إلى الخير ؟ فصاح ناظر مدرسة إلزامية — يرد على
وهو يظن إني أرشح أحد أصدقائي من علماء الأزهر — قال فض الله فاه : إننا
سنعطى شهادة العالمية لرجلنا هذا . . . !!

وسقطت قيادة الإخوان المسلمين في أيدي رجال يمنحهم أتباعهم شهادات
المعرفة والفقهاء ، لأن الوثنية في تقويم الأشخاص هي التي سيطرت على الموقف . . .

فلما أخذت شئون الدعوة تندرج وتهبط من درك إلى درك ، وشرع أولو
الرأى والغيرة يتدارسون الحلول المستطاعة لإخراج الجماعة من ورطتها جاء شاب
مسكين — من عبدة الولاء — إلى رجل له في ميدان الدعوة عشرون عاما ، جاء
يقول له : أتريد أن تكون مرشدا ؟ أتريد أن تنازع فلانا منصبه العتيق ؟

وسكت الداعية القديم لحظة ثم قال : أما أستطيع أن أضع قدما على أخرى وأنظر
إليكم شزرا ؟ . . . أما أستطيع أن أجلس أبكم ، فإذا سئلت أجبت بعد لأى بحروف
لا معنى لها ؟

أليست هذه خصائص العظمة التي جعلتكم تدينون لفلان هذا بالطاعة ، وترعد
أنوفكم إذا مس قداسته حفيف الريح ؟

لقد عرفنا كيف كانت الجاهلية الأولى تصنع الأوثان ثم تعبدوها ؟ نعم تعبدوها وهي
التي صنعتها بيديها . . . !!

وكما ينسب الفلاحون في ريفنا طائفة من الكرامات الخارقة إلى أصحاب القبور
المدفونين في قراهم ، أخذ المضللون من الإخوان يشيدون بكفايات المرشد الجديد . . .
فإذا اصطاف بالاسكندرية قالوا : يتعهد الدعوة في الثغر ! وإذا ذهب إلى لبنان — لأن
هواءها أنقى — قالوا : يحرس قضايا العرب ويشجع المرابطين في القدس تجاه
اليهود (!) وإذا وصل إلى جدة قالوا : حج واعتمر !! وإذا لفت له خطبة فطاف

المواصم والدساكر بها قالوا : سحر الناس بمنطقه وبلاغته . . وإذا اختفى عن
الميون قالوا : أوى الى الغار كما اختفى النبي صلى الله عليه وسلم عن أعين الكفار . .
وطبيعى أن رجلا فارغا من هذا الطراز المحظوظ لن يضمهر فى نفسه إلا البغضاء
والتنقص لكل ذى مكانة أو قدرة فى جماعة الإخوان المسلمين .
ذلك أنه لم يأت عن تقدير للسبق والوفاء وبُعْدِ الهمة وعموم النفع فكيف يقدر
صفات لم ينظر إليها قط عند استجلابه ؟ .

وعقدة الضعة تجعل صاحبها لا يكتفى بتخطى من هم أ كفا منه ، بل أنه يسمد
بتحطيمهم ، ويسر إذ يقدر على إقصائهم وإطفائهم .

لقد جاء حسن الهضبي — وهو أحدث الناس عهداً بدعوة الإخوان المسلمين —
فأراد أن يكون أقدم الناس فيها . . بإخراج غيره . . وجاء قزماً بين عمالقة ، فشاء أن
يكون عملاقاً بين أقزام . . ! !

ونظرنا إلى هذا الخلل الفظيع فى مقاييس الخير عندنا ، فعلمنا أن سوف نحرم من
رعاية الله أبداً إذا قررناه . . وزاد من حساسيتنا به أن الشبان الذين كثروا فى قاعدة
الجماعة اضطربت أفسارهم وأحكامهم حتى خيل إلى بعضهم أن وزن أقدارنا بمدى
رضاء المرشد عنا ، ومدى ولائنا له ! !

أما الخطأ والصواب ، أما المقم والإنتاج ، أما النكوص والشجاعة ، بل قل :
أما العلم والجهل . . فتلك أمور لا يلتفت إليها فى تقديم وتأخير . . .
وعفاء على أمة تستقر فيها تلك المهازل . . إن البقاء فيها مضیعة للوقت
ومنقصة للدين !

أأشقى به غرسا ؟ وأجنيه ذلة ؟ إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما !!
إن هناك حالة واحدة فحسب ، هى التى يعد فيها الأستاذ المرشد العام بطل الأبطال
وقائد النساء والرجال . . تلك أن تفشل الثورة ضد النظام الملكى . . والعهد
الإقطاعى ، ويعود فاروق والباشوات مرة أخرى إلى حكم هذه البلاد . .
يومئذ . . توضع العصاية الغراء على رأس المرشد الحاقدا على الثائرين ، الوفى
لسادته الأقدمين .

وقد يجعل شيخنا للأزهر إلى جانب استبقائه مدى الحياة رئيسا للإخوان المسلمين .
ويتبع هذا — بداهة — أن تصب علينا اللعنات ، نحن الذين ظللنا سنين طويلة
نحارب الملوك وفسادهم واستبدادهم ، ونحارب المترفين وفسوقهم ومظالمهم . . .
فلما سقطوا — بعدما كتبنا ضدهم مئات المقالات ، وألقينا ضدهم مئات
المحاضرات — شاءت الأقدار أن يقع زمام جماعتنا في يد رجل يحرق هذه الغراس كلها ،
ويحرمنا جناها ، ويخوض باسم الاسلام المظلوم المفتري عليه معركة يريد بها
إعادة الوثنية السياسية الأولى . . وهو — إن نجح أو فشل — يصيب الإسلام
في مقاتله ، ويجر عليه الويلات . .

ولكنى — مرة أخرى — أرجع باللوم على القطيع المسير .

إن حسن النية لا يشفع في الاستجابة لأصحاب الأهواء المغرضين والخبثاء .
وقد نعى القرآن على قوم أغلقوا عقولهم على رأى فلم يفهموا سواء ولم يفكروا
فيما عداه . زاعمين أن الخير فيه وحده فقال فيهم « قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً
الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . . ؟ »
كذلك حسبوا — وهم ما أحسنوا ولا قاربوا — ، فلم يعذروا بحسن النية ،
بعد ما جددت عقولهم على الخرافات وأغلقوا آذانهم دون الناصحين المخلصين .

كتب زميلي الأستاذ زكريا إبراهيم الزوكة — يصف اجتماعاً من أخطر الاجتماعات
التي عقدها الإخوان ليتدبروا موقفهم بعد اختفاء « المرشد » وتوتر الصلات بين بعض
الجماعة وبعضها الآخر — فقال :

شهدت اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير فرأيت ما يُغَيِّثُ النفس ويهت الحق
ويدع الحليم حيران . . شهدت من يكذب الكذبة الهائلة فإذا قام بعض الشهود
ليصححوا له قوله . ويشهدوا بما رأوا وسمعوا . . أسكتوا بالقوة . واستمعين عليهم
بأشخاص لا عقل لهم ولا خلق . وإنما أُنِي بهم ليمثلوا دور المتافين والمهرجين في
اجتماعات الأحزاب البائدة . .

وشهدت رجلاً كان يهاجم الأستاذ البنا رحمه الله في الهيئة التأسيسية مهاجمة عنيفة ويخاطبه بما لا يليق من الألفاظ . فلما ثار عليه الإخوان غضب الإمام الشهيد وثار في وجه الغاضبين ، حتى لقد أخرج بعضهم ، ثم أقبل مبتسماً على هذا المهاجم المتجنى وقال له : قل ما شئت وانقدنى كما ترى ، فلن تقاطع بعد ذلك . ولعلى أجد فى قولك ما أصلح به خطأ أو أقوم به معوجاً . . .

شهدت هذا الرجل نفسه فى اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير يثور ويفور ويكاد ، يتميز من الغيظ ، لأن أخاً قام ينتقد بعض ما يراه مائلاً من أوضاع الجماعة . فقلت : يا عجبا كيف يحرم هذا الأخ على غيره ما كان يستبيحه لنفسه ؟ . فسمعت من يهمس فى أذنى بالجواب ويقول لأن المرشد الجديد كان قد رشحه وزيراً فهو يدافع عن الوزارة المحبوبة ، لا عن الحق الفقير .

وشهدت أخاً فاضلاً كان ينتقد تصرفات المرشد الحالى انتقاداً مرّاً . ويصفه فى مجالسه الخاصة والمجالس التى يشهدها بما لم يصفه به الغزالي أو صالح عشاوى .

فإذا به فى اجتماع الهيئة يدافع عن هذا المرشد نفسه دفاع الأبطال . ويحاول — فى عصبية — أن ينفى عنه كل شبهة ويدبر كل نقيصة . .

فسألت فى دهشة : أنغير المرشد أم تغير هذا الأخ ؟

فقبل لى بل تغير هذا الأخ ، كان غاضباً قبل اليوم لأنهم افتاتوا على منصبه فى الدعوة ووضعوا فيه أحد المقربين . . ثم بدلت الحال غير الحال وأصبح الصفى المقرب مغضوباً عليه فرأى صاحبنا القديم أن الفرصة سنحت وأنه وشيك أن يسترد مكانته إن هو انحنى واستدار ونظر إلى العيوب والأخطاء بعين الرضا لا بعين الإنصاف .

وشهدت رجلاً يفتى فى دين الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فلما قيل له : اتق الله . أخذته العزة بالإثم وكاد — فى فورة الجاس — أن يرفع العصا فى يده ويقول : إن شئتم برهاناً فهذا برهانى .

وشهدت إخواناً من الشباب — لم يهدم علم ولم تصقلهم تجربة — شهدتهم يقفون على رؤوس المعارضين بعيون يتطأير منها الشرر ويريدون التحرش بكل من يريد أن يدلي بالحق ويقيم الشهادة لله . .

حتى لقد همس في أذني أحد الإخوان الفضلاء من ذوى السبق والمكانة وقال : كم أود أن أتكلم فقلت له — وأنا أبتسم — وما يمنعك قال : أخشى أن يجهل على هذا . وأشار إلى واحد من هؤلاء الحراس .

هذا بعض ما شهدت من المضحكات المبكيات في اجتماع الهيئة التأسيسية . ولقد غادرت الاجتماع قبل أن يبلغ مداه ، وأنا أكاد أقطر ، أسفاً لأن هؤلاء هم الذين يريدون أن يقودوا الإسلام في أعصب أيامه وأشد ميادينه حرجاً : هؤلاء هم الرجال الذين ناصبونا العداوة ، وارتأوا فصلنا من الجماعة ، بل إبعادنا عن الإسلام نفسه .

فانظر ماذا كنا نقول لهم . وبماذا ناشدنا ضمير كل ذى ضمير فيهم .

أيها ^(١) الأخ المسلم :

لا نريد أن نأخذ كلامنا قضية مسلمة ، ولا أن تقبل كلام غيرنا دون مناقشة وتدبر ، ابحث عن الحق ، واجتهد أن تصل إليه . فإذا عرفته فاعرف الرجال على ضوئه ، وصادقهم أو خاصمهم على أساسه .

إن المسلم الصادق هو الذى يعرف الرجال بالحق . أما أولئك الذين يعرفون الحق بالرجال ويشقون فى أى كلام يلقي إليهم لأنه صادر عن فلان أو فلان ، فهم أبعد الناس من فهم الإسلام ، بل هم آخر من يقدم للإسلام خيراً أو يحرز له نصراً . .

وافقه أيها الأخ كلمة الإمام مالك بن أنس : « كل أمرىء يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام » — يعنى « رسول الله صلى الله عليه وسلم » . .

ثم إن من الخطأ الكبير أن تحسب الأحداث الأخيرة فى محيط الإخوان المسلمين قضية أشخاص فصلوا عن جور متمعد أو عن تصرف سيء . كلاً ، كلاً . فقضية الدعوى الكبرى هى التى تعنيننا أولاً وآخراً . .

(١) من نداء أذعنناه عقب فصلنا .

هل ستترك الأيدي الخفية تلعب بزمام الحركة الإسلامية الكبيرة ؟ وتشل نشاطها في ميادين الحياة والجهاد كما وقع منذ ثلاث سنوات .

هل من الضروري أن يحمل الإسلام سنين طويلة أوزار قيادة واهنة مربكة تستر ضعفها بالاستبداد ، ونكوصها بالمكر السيئ ؟ ولحساب من هذا كله ؟ ؟
إن الأستاذ حسن المصطفي كان ألين الناس مع الأحزاب التي قتلت حسن البنا كان يدعو جهاراً إلى مصالحتهم ونسيان الماضي . . . ! !

لكن هذه الليونة تحولت مع الإخوان إلى بطش وتفكيك ، تبعها حرب شعواء من المقتربات التي تتلمس للأبرياء العيوب وتداور بدهاء لتجمل الظلم عدلاً . . . وهيهات . . .

إننا نعرض صحيفتنا ونسوق الوقائع كما حدثت وندع لذوى الأبصار النيرة والضمائر الحية أن يحكموا . . . لنا أو علينا . . . ! !

نعم ، لنا أو علينا ! ! فنحن نرضى مواقف المفكرين النصفين وإن كانت ضدنا . أما الذين يغلقون آذانهم على ما قيل لهم ولا يقبلون سواء ، فنحن نرفض حكمهم ولو كان لنا . . . ! !
أيها الأخ المسلم :

إن شرف دعوتك العظيمة في أنها صدق للإسلام ، وصورة كاملة لتعاليمه الراشدة

— فاعلم أن الإسلام بنى على الوضوح والثقة والتعقل .

— « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » .

— « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » .

— فرفض النعوض في رسالتك واحذر قبول الريبة باسم السمع والطاعة .

فالطاعة في المعروف ، والرسول يقول : « دع ما يريبك إلا ما لا يريبك » .

— ولا تتعصب إلا لما تعقل وتؤمن . فإن التسليم للأوهام بعض طقوس

الماسونية في هذا العصر ، وبعض طقوس الكنيسة في العصور الوسطى المظلمة . . .

— أما الإسلام فبرىء من هذه المسالك المحدثه . . .

إن قيادة الإخوان الآن حريصة على الأوضاع الغامضة والقرارات المريبة الجائرة .

وهي مسئولة أمام الله والناس عن مشاعر الحيرة والبلبلة التي تغمر قلوب الإخوان في كل مكان .

ثم هي مسئولة — من قبل ومن بعد — عن الخسائر التي أصابت الحركة الإسلامية في هذا العصر .

وعن التهم الشنيعة التي توجه للإسلام من خصومه المتربصين .
فقد صورته نزوات فرد متحكم ، كما صورت هيئة الإخوان المسلمين وكأنها حزب من الأحزاب المنحلة تسودها الدسائس وتسيرها الأهواء .
وقد أعذرنا بهذا البيان .

وسوف نبقى في أوضاعنا ندفع عن الإسلام شرور أعدائه السافرين والدخلاء حتى تفجلى الغمة ويفرح المؤمنون بنصر الله .

إن هذه المناشدة الحارة لم تجد صداها الواجب .
كان الجمهور المخدوع كالزجاجات المعبأة إلى نهايتها ، لا تقبل جديدا ولا مزيدا .
فرأينا أن نسير وحدنا بعد أن أفرغنا جھدنا .
ومادار بخواطرننا أن القدر يخبأ في طياته هذه الأحزان الطويلة للقاصرين البائسين
(٣)

تعلم أن الإسلام أول أمره اشتبك مع اليهود في حرب ضروس . . لم يضع أوزارها حتى انكسرت شوكتهم وكتب عليهم الجلاء ، فاحتفت جماعاتهم من جزيرة العرب واضمحلت قواهم أمام امتداد الإسلام في المشرق والمغرب .
لكن اليهود الذي مُنُوا بالهزيمة التامة في ميدان القتال . . وأعجزهم أن يصيبوه بأقل أذى في ساحة مكشوفة واضحة . . انقلبتوا يكيّدون له في ميدان آخر فاستطاعوا أن يلحقوا به متاعب جمة . . مازال من أربعة عشر قرنا مضت يعالج جرّاها إلى اليوم !

(*) نشر هذا المقال سنة ١٣٧٣ . قبل عام من المحاكمات التي وقعت أخيرا .

دسوا وسط الجماعة المسلمة من يُورث نار الفتنة ويلبس على المسلمين أمر دينهم
ودنياهم . . فإذا بالفكر الإسلامي تشوبه الخرافة . . وإذا بالأسرائيليات تمتزج
بمنابع ثقافتنا وتفزو عقول العوام وتعوج بسير الإسلام وسط أهله أنفسهم ! .
فكيف يستقيم سيره - بعد - بين الناس ؟

ومعنى ذلك أن اليهود تأروا لأنفسهم من الهزيمة التي أدركتهم ، وإن كان
علماء الدين ونقدة الشريعة لم يستكينوا لهذا البلاء ، وبذلوا جهودا كبيرة في
فضح هذه الاسرائيليات وتخليص لباب الإسلام الحق من تلك المحدثات
التي اعترته . .

وقريب من نضح اليهودية الماكرة على الإسلام مارووه من أن الفرس لما دخلوا
الإسلام نقلوا إليه تقاليدهم في معاملة الأسيرة المألكة عندهم .

فجعلوا الأسيرة النبوية موطن قداسة وعصمة ، وأحبوا أن تقتعد في مجتمعاتهم
المكانة التي كانت قبلا لآل ساسان . . . وبذلك تعكروا رواء الإسلام في أذهانهم كما
يتعكروا كوب الماء إذا سقطت فيه قطرة مداد ! . .

إن الحقيقة العليا في هذا الدين يجب ألا يشوب صفاءها كدر . .

وسواء انتصرت أو انهزمت فلا يجوز أن يتطرق إليها زيادة أو نقصان
أو تحريف . .

وقد قلت في حديث سابق : إن اجتياح (التتار) لبلاد الإسلام وطبها لراية
الخلافة في بغداد وتقتيلها ما قتلت من السادة والرعا . . إن ذلك المصاب أهون
في وقعه وأثره من شيوع مذهب المرجئة بين عوام المسلمين وظنهم أن الأعمال ليست
ضرورة لصحة الإيمان .

وعندما أنهض الإسلام جماعة الإخوان المسلمين في مصر كيما ينصفوا مبادئه
ويذودوا عن حماه تنصرت وجوه كثيرة ، وتمشت حرارة الأمل في أوصال المؤمنين .
وتمشت إلى جانبها رعدة الخوف في قلوب الفساق والظالمين . . وسارت الدعوة تطوى
الراحل البعيدة وهي تمر مر السحاب . .

وشرفها الذي تباهى به الأولين والآخرين أنها تتأثر صاحب الرسالة العظيم
صلوات الله عليه وسلامه وتقبس من سناه .

ثم جاءت المحنة الكبيرة فقتل حسن البنا جهرة لا اغتيالاً . . . واقْتيد خيرة إخوانه إلى المنافي والسجون ، وظل الإرهاب المسلط يجرعهم الغصص ويتوقع منهم الفتنة . حتى جاء نصر الله ، فانجابت الغمة وعدنا كما كنا أحراراً . .

أجل عدنا . . وما في نيتنا أن نبدل من منهاجنا شيئاً ! ولا أن نغير من سياستنا إلا ما يضاعف كراهيتنا للحكام المستبدين ! ويباعد شقة اللقاء بيننا وبينهم أبد الأبد . .

بيد أننا فوجئنا بالواقعة نتسرب إلينا . . وفوجئنا بالدخلاء على الجماعة يُغيرون سيرها ومناهجها .

ونظرت فإذا بأناس لم يعذبوا في ذات الله يوماً ينادون طالبين الأمان !! نعم إن الرجال الذين لم يدخلوا سجننا ولم يشقوا في معتقل كانوا أول من رفع راية التسليم ، وقرر أن ينحني مقبلاً اليد التي قتلت حسن البناء . .

كان هؤلاء الجبناء — في حياة حسن البنا — يقبلون يده ظهر أو بطناً . فلما ولي هرعوا إلى القصر الملكي ، يقيدون أسماءهم في سجل الشريقات ، ويهادنون أعضاء الحزب السعدى وينظرون إلينا شزراً إذا سألناهم معاتبين ، أو جادلناهم محاسبين . .

أرأيت ؟ كان شرف الدعوة التي قادها الإخوان المسلمون إنها خطر على الإقطاع الزراعى ، والافتيات الرأسمالى ، والاستبداد السياسى ، لأنها صدت الإسلام الصحيح والإسلام الصحيح لا يبقى حيث تسود وتتوغل هذه المفاسد الشائنة . .

غير أن حفنة من المتحقيقين بالركب الإسلامى شاءت أن تعسكر هذا كله ، وأن تجعل حصاد ربع قرن هشياً تندروه الرياح . .

أى أن الإخوان الأصلاء نجحوا في المحنة التي محصت معدنهم ، فلما عزَّ على الشيطان أن يرحزهم قيد أئمة دس عليها من يلوى زمامهم عن الجادة ويجهد عبثاً ليضل فقهم للإسلام وجهادهم من أجله . .

ومن ثم ينجح حيث فشل السعديون واليهود والانجليز وغيرهم . وماذا بعد أن يضطرب مسلك الإخوان في نصرة المثل العليا التي كانوا أول من هتف بها ، وحدا الشعب إليها . . ؟

إننا لم نسكت بداهة على هذا التحول المريب ، وعندما تأتي ساعة الحساب
سنذكر ما قلنا وما قيل لنا ، وسنذكر ما ترك لنا وما أنكر علينا ، ويومئذ تبيض
وجوه وتسود وجوه . . .

ولست براغب الآن في سرد قصة معينة ولا اسم معين ولست بمتحدث كذلك
عن الخسائر الباهظة التي لحقت الدعوة منذ عامين في ميادين شتى .

وحسبي أن أنصح الإخوان المسلمين بكلمات موجزة .

إنه لا قيمة لحياة أشخاص أو مملكتهم ، ولا لبقائهم أو ذهابهم إذا ظلمتم أنتم أيها
الإخوان أوفياء للدين الذي قتم على دعوته واستمدتم وجاهتكم عند الله والناس
من العمل به والجهاد له .

ودينكم بإزاء الفرد علم وتربية فاحذروا على أنفسكم الجهال بالإسلام
والفساق عن أمر الله وأيقنوا بأن الله لا ينزل نصره على متجر بدينه إذا خلا بحرمة
لله سطا عليها .

ودينكم بازاء المجتمع أخوة ، وتناصر ، ووحدة . وتلك معان مستغفيرة في دنيا
الإقطاع حيث تظالم الطبقات ودسائس السادة والعبيد ، فاحذروا على صفوفكم
أذئاب العهد البائد ، احذروا الرجال الذين أذعنوا للعبودية يوم نشرت ظلامها في
الآفاق ، ونكصوا على أعقابهم ضائقين يوم بدت طلائع النور الخافت . . . لأنهم خفافيش
... خفافيش للأسف تزعم أنها وحدها صاحبة الحق في الكلام عن الإسلام .

ودينكم بإزاء الدولة عدالة ، سبيلها الحكم بما أنزل الله . .

والرجل الذي يأبى الحكم بما أنزل الله في خاصة نفسه وفي حدود إخوانه الأقربين
لا يتصور منه أن يحكم بما أنزل الله بين الناس ، وسيكذبه العالم كله يوم يزعم
ذلك ، فاحذروا على كيانتكم أيها الإخوان هذا التناول الذي — إذا كره طارد
العلماء المجاهدين — وإذا رضى قرب المداينين والقاعدين . ثم ادعى بعد ذلك أنه
يحكم بما أنزل الله . .

انسوا أشخاصنا واذكروا دعوتكم على ضوء الإسلام وحده .

إن العابثين بمقائيق الإسلام الكبرى لهم مطامع لم تنته بعد .

ومرة أخرى أقول لكم : إن الإسلام يحتاج المهم البعيدة والمشاعر الحية النابضة فاحذروا الرجال الذين سقطت همهم وبردت عاطفتهم وفرضوا موات أنفسهم على دين قام من نشأته بحب المحققين وبغض المبطلين .

ذاك ما كتبته منذ عام تحت عنوان « انسوا أشخاصنا واذكروا هذا » !!

لكن هذا النصيح الحار ذهب هدرا . .

إن الحقى لعنوا أشخاصنا ونسوا هذا . ثم انطلق الأستاذ حسن الهضيبي يجرى بالجماعة جريا ، بل يمدو بها عدوا ، إلى أجمع المصائر . .

لست أدري أنسى الإخوان أم تناسوا مواقف هذا « الحسن » مع أركان الفساد القديم ؟

يوم لقحت الحرب بين الشعب المصرى والقصر الملكى شاء المرشد « الموفق » أن يقول : فارق ملك كريم ، وأن ينجاز بمن معه إليه على ظن أن القصر أقوى جهة . .

ويوم طارت شرارة الكفاح بين الإنجليز العسكريين على ضفاف القناة وبين المجاهدين الناقين على بقائهم بين ظهرائنا ، شاء المرشد الموفق أن يطفى هذا الشرر ، وأن يكذبنا حين صحنا : إن دماء المحتلين مستباحة .

ويوم اشتاق هذا الشعب إلى إزالة الأحزاب الحاكمة وتطبيق دستور سنة ١٩٢٣ شاء المرشد الموفق أن يدخل فى معركة الدستور خصما للحرية وعونا للباشوات المتآمرين مع القصر ومع أعداء البلاد . .

وباسم السمع والطاعة ، اقتيد الأغرار إلى مصارعهم :

ألا ليتهم لم يصنعوا إليه ، ولم يخذعوا به .

وما تغنى « ليت » ؟

« يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » .

هممت - غير مرة - أن أطوى هذا الذى كتبته فى السمع والطاعة بعد الأحداث الجسام التى قرعت أنباؤها الآذان وأغنت مرارتها عن كل تبيان .

لكنى آثرت أن أرؤيها كما وقعت في إبانها لأمر .

منها إنصاف الحقيقة العارية ، وذكرها للتاريخ العدل .

فلعل المتأمل فيها بعد انقضائها يجد فيها معاني لا ندرها — نحن المعاصرين لها —
ومنها قمع الغرور الذي يستولى على أغلب العاملين في البيئات الدينية ، فيشتط
بهم بعيدا عن مرضاة الله وعن إقناع العقلاء . . .

وانظر — دعاك الله — إلى ما روى من أن أتباع زعيم ديني في السودان
تهافتوا على تقبيل سلم عربة السكة الحديدية التي سافر فيها . . . وقال الشعراء
في تحيته :

« أعداء ذاتك عصابة في النار ! ! »

إن صلف الرؤساء وهوس المومّاء على هذا النحو جاهلية عمياء وليست
إسلاما قط .

إن كلمة « أغمض عينيك واتبعني » لا يمكن أبدا أن يقرها دين يؤمر رسوله
بهذا البيان الواضح « قل : هذه سبيلي ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن
اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

فلنخدم الإسلام بقوة ، ولنخدمه بنظام .

أما إشباع نزوات الاستعلاء في هذا ، وكبوات الاستخذاء في ذاك ، بالكبر
هنا ، وبالهوان هناك ، فأبعد ساحة عنه ، ساحة يهتف فيها باسم الله ويفرض فيها
العمل للإسلام .

دروس ...

[للقاد مقاييس شتى يقدرّون بها الأمور ويتعرفون الخطأ والصواب والنقص
والتمام وتقوّمنا نحن لا يعتمد إلا مقياساً واحداً . . . هو الإسلام . .]

فن الاختلاط والعزلة

هي جنة الدنيا قبل جنة الآخرة . . .

ما أهدأ العيش فيها ، وأقره للعين ، وأبعده عن دواعي اللغو واللغوب . !!
ربوة صامئة وادعة ، يجد المرء في سكونها سكينته نفسه ، وفي انقطاعها فرصة
للفراغ من الخلق والتفرغ للخالق .

ولئن كانت عقد الحياة وهواجس الطباع ومشاكل الناس تنتهب قلب المرء
وتبعث به شعاعا لا يمسكه شيء إن هذه الربوة المنعزلة في هذا الشعب البعيد
تجمع قلب المرء على ربه فما ينقطع عن ذكره في صباح أو أصيل .
سيكون الأنس بالله أصلا قائما ، والذهول عنه عرضا عابرا .
وهل يشد المؤمن حياة أفضل من تلك . . ؟

دارت هذه المعاني في خلد مسافر طيب من صحابة رسول الله ، وحدثته نفسه
أن يجنح إلى البقعة الريفية التي تمسّقها . . لكنه لم يعزم على شيء حتى يسأل رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، ويستهديه فيما يفعل ويدع . .
عن أبي هريرة قال : مر رجل بشعب فيه عينته من ماء عذبة . . فقال : لو اعتزلت
الناس فأقمت في هذا الشعب . . .

إن الذين يماجون شئون الناس يرون حول هذه العيننة السائلة بالرى العذب ،
أمنية شبيهة المفال ، إن المكدود يهرع إليها ليراح كما يأوى إليها الظمآن ليروى . . .
ما أشوقنا إلى هذا البعد البعيد وكم تهفو أفئدتنا إلى الارتقاء في أحضان هذه
الوحشة السائدة ، وكم تتمثل ألسنتنا بقول القائل :

وإن امرءاً يمسى ويصبح سالماً من الناس ، إلا ما جنى ، لسعيد
على أن هذا الصحابي لم يطاوع رغبته أول ما جاشت . .
فقبل أن يعتزل الناس في هذه الناحية المعجبة قال : لن أفعل حتى أستاذن
رسول الله . .

ورسول الله أعرف الناس بالعزلة وما يدفع إليها ، وما تتمخض عنه ، وما يبغيه
طلابها من استجماع واستجمام ، عندما تموج المجتمعات بالفتنة والصخب . .

لطالما أوى إلى غار حراء مولياً عن الجاهلية التي غمرت الدنيا بالشرك والإثم . .
حتى طلع عليه صبح الوحي فرجع منه يحمل إلى الحياة رسالة النور . . .
ومن قبله قال الخليل إبراهيم لقومه المشغوفين بعبادة الأصنام :
« وأعتزلكم وما تدعون من دون الله . . وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء
ربى شقياً » .

غير أن العزلة كالصمت . . . والصمت قد ينشأ عن الوقار والجد ، وقد ينشأ
عن العى والحصر . . .

كذلك اعتزال الناس ربما كان أثر كلال من معاملتهم فهو انسحاب من الميدان
أو كان استعداداً لمنازلتهم فهو عون على النضال . .
ومثل هذه الأمور لا يحمد ولا يذم في كل حال . .

ومن ثم تفاوتت السنن الواردة في تقدير العزلة والحكم عليها ، إلا أن المقطوع به ،
أن اتجاه الإسلام في شرح مراتب السكال يخالف ما عرف في ذلك عن الديانات الأولى . .
كان الترهّب في الصوامع القصية ، والانقطاع في الأديار حتى الموت ، وهجر
الحياة ومطالبها ، والإقبال على النفس بالمجاهدة وعلى الفكر بالتأمل ، كان ذلك كله
آية اليقين البالغ والصفاء التام والتوبة التي لا ريب فيها . . .

وبهذا المنهج كان الفرد المؤمن إذا تطلع إلى مزيد من التقوى يقربه إلى الله ، ركن
إلى الذكر والقراءة والاستغفار والصلوات ، وكلما تخفف من الدنيا ومن الناس
بما يعينه على هذه الغاية كان أنقى وأزكى . . ! !

أما الإسلام فقد رسم للعباد المجتهدين طريقاً أخرى غير هذه الرهبانية الخاشعة
المتبذلة ، طريقاً يحشّمهم السير في الرمضاء ونحت الصخور . . .
إنه لم يقل لمن يحبون الله اعتزلوا الحياة وتأملوا . . .

بل قال لهم : انغمسوا في الحياة وعالجوا باطلها بالحق ، وقاوموا طواغيتها
بالقوة ، وابدلوا في تقويمهم المال والدم .

وبهذا التعريف الجديد للتقوى أصبح المؤمنون فرساناً لا رهباناً ، ورفض الترهّب
الذى يدع الإثم يسير من غير نكير ، وأصبح الإقبال على الحياة ومعالجة كروبها
وهجومها لإثبات معروف ومحو منكر ، جهاداً مبروراً القدوس والرواح . . .

ولا شك أن أهل الشر وحضنة الفساد كرهوا الإسلام لهذه النزعة البادية في تعاليمه . . .

ومنطقهم في كراهيته بين . . .

فهم لا يضارئون من رجال يتقربون إلى الله بالفرار من ضرور الدنيا ، وإنما يضارئون من رجال يتقربون إلى الله بالهجوم على هذه الدنيا ، لتقييد الشياطين المهتاجة في جنباتها . . .

وأولى الناس بمعرفة هذه الحقيقة حملة رسالات الإصلاح . .

ولذلك قال رسول الله : لصاحبه الذي شاقته العزلة ، وأعجبه أن يعبد الله في شعف الجبال « لا تفعل » فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً .. ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة . . اغزوا في سبيل الله . . من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة . . .

وفي رواية لأحمد « لمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة » .

ونحن على هدى تجاربنا مع الناس وفقهنا في الإسلام نشعر بأن الإنسان في كفاحه العام يحتاج إلى أوقات ينفرد فيها بنفسه مثلما يحتاج السائر إلى منازل يحط فيها رحاله ويقيم فيها بدنه ، ومثلما يحتاج القاري إلى هدهدات ينسق فيها معارفه وينظم بها فكره . .

والإسلام الذي يسن الاعتكاف لأبنائه . ويأذن لهم بالعزلة إلى حين . يرفض أن تتحول هذه العزلة إلى هجران للمجتمع وقلة مبالاة بالمعركة الخالدة الدائرة بين الحق والباطل . .

لأن العزلة — ولو في عبادة — لن تعدو ضرباً من الراحة المحببة أو اللذة التي تنشدها النفوس ، تُشدان الأجسام لبعض الشهوات . . !

وما قيمة عبادة تجمل صاحبها محايداً ، أو مشاول اليد ، في حرب بين الكفر والإيمان لا تدرى نتائجها . . ؟

ذلك ما كرهه الرسول لصاحبه الذي يتطلع إلى العزلة .

ثم مضى هذا الرسول العظيم يقارن بين جهاد الاختلاط وجهاد العزلة فصور بعد الشقة بين الأمرين تصويراً عجيباً .

قال أبو هريرة : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل ؟ قال : لا تستطيعونه ! قال : فأعدوا عليه مرتين أو ثلاثاً . . . كل ذلك يقول : لا تستطيعونه ! وقال في الثالثة : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله .

وحدث النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله فقال رجل : ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . . وقال آخر : ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمّر المسجد الحرام . . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتهم . . فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . . فأزل الله عز وجل :

« أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ . . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ . . وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

ومضت السنن المروية عن صاحب الرسالة العظمى تصور الحسنات التي تسجل للمجاهدين وتذكر الأضعاف التي تنضاف إليهم من حيث لا يحتسبون . . حتى عدت في موازين أعمالهم أرواث الخليل التي يمتطونها وهم يجوبون الميادين إحقاقاً للحق وإبطالا للباطل ، إن هذه الأرواث أزركى من الحرير والدّمّقس الذي يحبُّ فيه القاعدون .

وأعرف من بلائى مع الناس أن الإنسان قد يتأذى من كنودهم وغدراتهم ، حتى ليأنس بالحيوان ويرهب أبناء جنسه .

وأنه قد يشمئز من بعض الأخلاق والأعمال فيفر منها كما يفر من مصادر الروائح العفنة .

بيد أن هذه المشاعر إن سوغت الاعتكاف حيناً فهي لا تسوغ الإدبار والنفور آخر الدهر . . .

فليس من مصلحة الدين والحياة أن يترك الشر يرح ويمتد دون جهاد حلواً أو مربر

في ميدان التربية

للسعى في تحصيل الفضائل واستكمال الأبحاد ، سعادة يستشعرها الرجال المساكفون
ويستطيون بها مراحل الكفاح وإن طالت .

وربما كان هذا الإحساس المقارن نفحة من السماء ، تذكر الإنسان بأصله العريق
وتنعش فيه مواهبه العليا ، وتؤنسه بحياة الطهر والعفاف والترفع ، إن حاولت الوسواس
الأخرى أن تزل قدمه أو تخلد به إلى الأرض .

وإغراء التوايين والتطهرين بنشوة هذا الإحساس الراقى بعض ما عناء النبي
— صلى الله عليه وسلم — وهو يوصى الشباب بالتسامي عن الدنيا قائلاً : « النظر
سهم مسموم من سهام إبليس — لعنه الله — من تركها خوفاً من الله آتاه الله إيماناً
يحد حلاوته في قلبه » .

نظرة النظرة الخبيثة ، أنها محور لما يسميه علماء النفس بتداعى المعانى .
إن الفيضان المدمر قد يبدأ ثقباً صغيراً في السدود الحاجزة .
والحريق المستمرة قد تبدأ شرراً خفيفاً .
كذلك تمرغ المرء في المعصية وتقلبه في حماها إنما ينشأ عن تهاون واستخفاف .
النظرة العابرة تعقب أفكاراً مشوهة وتحرك أمانى مكظومة وتثير في
نواحي النفس لغظاً وحيرة .

وأدنى مراتبها إنما لو لم تجلب شرراً عاجلاً فهي عائق عن الفضيلة والتجرد لها
وكما قال الشاعر :

وكنفت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
« رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

أما حين يملك الرجل إرادته ويحكم نظره ويراقب ربه ويمشي في طريقه وهو
موقن بأنه لن يغيب لحظة عن شهوده وهو القائل : « يَعلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ
وَمَا تُخْفِي الصدُور » .

أما حين يدأب على متابعة الخطوة في سبيل الاستقامة والكرامة ولا تزيده

الأيام إلا استهجننا للآثام واحتراما للفضائل، فإنه يرزق قلبا حيا يقرأ بالطاعات ويستهج بأدائها، ويفرح بالبعد عن مساخط الله، فرحة الصحيح بالعافية من الأدوية والعلل. للكسل لذة يتحدث عنها المعجزة والقاعدون.

وللعمل لذة يعرفها أولو النجدة والبأس ويبلغون في ظلها أهدافهم القصية. وشتان بين هذه اللذة وتلك..

للكوص لذة بتشبث بها الهاربون الجبناء، وللمغامرة لذة يطير بنشوتها بغاة الملا، وعلى فم أحدهم.

تأخرت أستبق الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدا شتان بين لذة ولذة.

وللتهاون بالصلاة والنوم عنها لذة صغيرة، فإن إقام الصلاة ثقيل مرهق للكثير « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ».

ولكن لذكر الله وإقام الصلاة سعادة يشعر بها قوم آخرون وتتجدد بها قواهم. وفي الحديث « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد. يضرب مكان كل عقدة - عليك ليل طويل فارقد - فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإذا توضأ انحلت عقدة فإذا صلى انحلت العقد الثلاث، فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان ».

ومن التفرير السيء أن تحسب طريق الحق لا مؤنة له ولا جهد فيه. وأسوأ من ذلك أن تنتظر الفلاح فيه باللهو واللعب واتباع الشهوات.

إن الأمر يحتاج عناء طويلا وإعداداً كبيراً، وقد مضت سنة الرجولة والبطولة من قديم، أن من طلب عظيماً خاطر بعظيمته، ولأمر ما قال رسول الله، « حُفَّت الجنة بالكاره، وحفت النار بالشهوات ».

وفي أيامنا هذه كثرت المغريات والمنسيات، حتى أصبح الطريق إلى الله يتطلب عزيمة أشد، وبصراً أقوى، وهمة أبعد.

أصبح اللهو واللغو فنونا لا تحصى، وركنت إليها النفوس حتى لكأ أنها تنزلق إليها من منحدر لا قرار له.

وازدحم الناس على موارد العيش يقتتلون على نيل المستطاع منها، فهم في تنافس وتطاحن، لا يبقين على إثارة أو رحمة.

وحضارة الغرب أساسها الصناعة والتصنع ، فهي أبعد ما تكون عن الطبيعة ومجالاتها الرحبة . وبقدروا ابتعدت الأمم في ظلها عن بساطة الفطرة ابتعدت كذلك عن الله جل شأنه . فالرجل المعتاد يجد الساعات لمطالعة الغناء في شتى الصحف والكتب ولا يجد الدقائق لقراءة آى من القرآن .

أما جهة القوت المترامية وراء الدواوين والدكاكين والمصانع والمزارع ، فإن الضجة التى تسودها نعم الآذان . . . وقلما تستبين فى بُغامها الممتد صوتا يمجده الله ويذكر آلاءه . . .

على أن هذه الحجب كلها لا تعوق سائرا ولا تصد رائدا . .

إنها وهم يهول من بعيد ويتكشف باطله من قريب .

وأصحاب الإيمان عندما يقومون بحق الله عليهم قد لا تكون هذه العقبات

عرضة لهم ، بل حفزا لهممهم ، وضياء إلى أهدافهم . .

ضمَّ إلى هذا أن الله عز وجل يبارك كل جهد فى سبيله مهما ضؤل ، وأن اتجاهات الإرادة الإنسانية تعدل عنده القوة التى يثب بها جناح طائر ولو كانت تنتقل بخطوات سلحفاة .

فأيا عبد وصل فكره بربه وأحب أن يتجه له بعمله فإن ما يلقاه من حفاوة وتقريب وما ينقذف فى قلبه من إثراق وإقبل أضعاف ما يبذل من سعى .

« وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا . إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » .

بل إن تطلمع النفس إلى حسنة — ولو لم تفعلها — يكتب لها حسنة .

فإذا ارتقى الأمل فى صنع الخير إلى عمل قليله بكثير وضعيفه يوثق .

وظنون المغفرة والرضوان فيه تقبل وتصدق ، كما قال الله تبارك وتعالى فى حديثه

القدسى : « أنا عند ظن عبدي بى وأنا معه حين يذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته

فى نفسى وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه وإن اقترب إلى شبراً تقربت إليه

ذراعا . وإن اقترب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أنانى يمشى أتيته هرولة » .

والحديث تصوير سمح لما وضعه الله فى نيات الخير ومساعى السكال من قبول

وبركة . فلا تستهين بياعث طيب يتحرك فى ضميرك . استجب له فربما كان المفتاح

لعالم كبير من الخيرات والمغانم يرتفع بك إلى عليين ويدفع بك فى أقدام النبيين

والصديقين والشهداء الصالحين .

قنوع وطموح

كتب لي سائل : أليس مما يعين على القعود والفتور ما ينسب إلى رسول الله من حديث « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » . « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً » . « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » وأمثال ذلك مما يبعث على الزهد ويعوق عن الطموح والحركة . . ؟

ثم مضى السائل يقول :

إن طبيعة الدين تعلق الناس بالآخرة وتصرف همهم عن الحياة لأن الحياة في منطق الأتقياء فترة مهيئة لا يعمل على حال المرء بها ولا ضرورة لأن يأخذ المرء منها إلا زاد الرأكب العجل !

وشيوع هذا المنطق في أمة . قضاء عليها بالتخلف حتماً وسط أم تعبد الحياة ولا ترى صلاحاً أو فساداً إلا فيها ، ولا تحبس ثواباً أو عقاباً إلا بما تنال في مضمارها العتيد . واستطرد السائل فذكر خشيته من أن تقصر النهضات الدينية في إسعاد الأمم الجانحة إليها ، بل في حفظ كيائها من العوادي . . .

إن هذه الشبه ليست جديدة . وأحسبني قد ألفت عليها ضياء كاشفاً في كتاباتي القديمة . . . ولكن هذا التساؤل الحائر سيبقى ما بقيت أفهام الناس في الدين ظنوناً جائرة يعوزها اليقين الحاسم . .

وأسارع إلى الإجابة عن الفقرة الأولى في هذا السؤال . . إن الأحاديث التي ذكرت هنا صحيحة كلها .

والعيب ليس فيها ولا في غيرها من تعاليم ! وإنما العيب في تحريف الكلام عن مواضعه .

إذا كان الرضا بالقسمة ديناً فهل نحسب التطلع إلى ما فوقها زيفاً ؟

إليك من سير الأنبياء ما يصرع هذه الشبهة ويدلك على أن الطموح لا ينافي

خلال المتقين ، بل قد يكون سر صلاحهم واصطفاؤهم .

ألم تسمع إلى سليمان وهو يطلب من الله ملكاً فذاً لا يشبهه فيه أحد فيقول : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

فكان من إجابة الله له « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ،
وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْن مَّآبٍ » . .

إن الله لم يقل له : قف عند ما قسم لك . .

ألم تر إلى أيوب وكان يغتسل عرياناً فوقع عليه جراد من ذهب ، فطارَتْ واحدة ،
فجربى خلفها . . فقال الله له : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عن هذا ؟ فقال : بلى ! ولكن
لاغنى لى عن بركتك . .

لقد تشبع أيوب من مال الله على هذا النطاق الواسع .

ولم يقل الله له : قف عند ما قسم لك .

ألم تنظر إلى يوسف الصديق وهو خارج من السجن وكان بحسبه — وقد أتيت
له نعمة الحرية بعد اعتقال طويل — أن يحيا في كنفها ، قائما وادعا ، فأبى لنفسه تلك
المنزلة وقال لمزير مصر : « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » .

وامتنَّ الله على يوسف إذ تسنَّ هذا المنصب العالى فقال : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
لْيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » .

ولم يعاتب الله يوسف على هذا التطلع .

فلم يقل له : قف عند ما قسم لك . . .

هؤلاء نفر من المسلمين الكبار لم يخذش الطموح ما عرفوا به من تقوى ، ولا
نزل بمكانتهم عند الله قيد أعلة . .

إن الرضا بالقسمة قد يكون من الدين ، وقد يكون من المعجز الذى يزجر
عنه الدين .

إذا سعى الرجل ضارباً في طول البلاد وعرضها واستنفد قواه في استنباط الخير
وتقريب الرزق فإذا به يدركه السكلال ويداه فارغتان ، من قدر قاهر لا من كسل
غالب ، فهل ينتحرجزعا ، أم يطوى فؤاده على ضرب من السكينة والركون للأحداث ؟
وإذا رأى غيره يؤتى الكثير ويواتيه النجاح وينتقل في مدارج الرقى ، فهل يدع

سورات الضعيفة تأكل قلبه لأنه فشل حيث أفلح غيره أم يرضى عن الآخرين ويعمل في شعورهم نحوهم ؟ . .

وإذا ضنّت موارد الحلال ودرّت موارد الحرام ، فهل يقال للمسلم : خذ ما أتيج لك ، أم يقال له : استعفف وتصبر ؟

إن الإسلام يوجب الرضا بالقسمة يوم يكون هذا الشعور النبيل عزاء للمحروم وطمأنينة للمتخلف وحصانة من الجشع .

أما إذا قعد الرجل عن الكسب لإعالة نفسه ، وإعزاز شخصه ، فرضاه بالمقسوم جريمة خلقية . . .

وإذا أبطأ في توسيع ثروته لتربية أولاده وصيانة حاضرهم ومستقبلهم فرضاه بالمقسوم جريمة اجتماعية ، وإذا ترك كيان أمته في الميادين العامة يتداعى بالتحول والطرادة ، والقنوع بأدنى العيش فالرضا بالمقسوم جريمة سياسية .

إن الرضا المحمود عنوان عاطفة تعمل في نطاق محدود ، ومن التزوير أن يؤخذ هذا العنوان ليكون غطاء ردائل نبذها الإسلام وعد أصحابها مرضى .

أما الدنيا التي لعنها الله وازدراها أولو الألباب فهي دنيا الغرور والفساد والأهواء ، لا دنيا العمل والفرس والكفاح . ومن من الناس يحمده هذه الدنيا ؟

لقد رأيناها تمزق الأرحام بين الأخوة الأشقاء وتفترى بعضهم باغتيال البعض وإخماد أنفاسه ، استثنائاً بعرض زائل .

لقد رأينا فتنتها تنسج على الأبصار غشاوات حاجبة أو خادعة جعلت الأرض مذأبة تسودها الوحشة والرغبة .

فأينما يمت لا تلهج إلا ركض الوحوش تهيجها الغرائز الوضيعة ، فلاحق ولاخير ولا أمن ، ولا وئام . .

أرأيت أنوانها الزاهية وألحانها السايبة ؟ إنها تقبل عليك كاللأئدة الخافلة الشبيهة وتنتهي بك - أو تنتهي معها - مثلما ينتهي الطعام في بطنك . . فضلات مفتنة مرعجة .

قبحت هذه الدنيا ، ما تفر إلا الحق ، وما يتمحض لها إلا المغفلون .

فإذا رأى الله عز وجل أن خدعتها الكبرى أطاشت سواد الناس وأذهلتهم عن أنفسهم وعن ربهم ، وعن أولادهم وآخرتهم . وبعثهم مجانين يسمعون الحروب للباطل ويقيمون السلام للبعث .

فما الذى يرد لهؤلاء صوابهم إلا أن يقال لهم : « اَعْمَلُوا أَنْمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ » .
إن هذه الآيه وأشباهاها تعيد التوازن إلى النفوس التى اختلت فيها أوضاع الحقيقة .

وجاهير البشر عند ما يحتبس نشاطهم بين أكوام الثرى من عالمهم الصغير . فلا يفكرون إلا فى حدود المتاع العاجل ، يحتاجون إلى نبي يصيح فيهم . « الدنيا ملعونة ملعون من فيها إلا ذكر الله وما والاه وعلما ومتعلما » .

وعند ما يتفاضل الناس بحظوظهم من الدنيا وحدها يقول : « أربع من كن فيه فلا عليه ما فاته من الدنيا حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليفة وعفة فى طعمة » .

فهذه السهام التى يصوبها النبيون إلى الدنيا لا يبعثون إلا أن يصيبوا بها ما علمت من شر وإثم وغدر .

على أن أناساً نظروا إلى السهم المنطلق وعموا عن الهدف الذاهب إليه فظنوا المرسلين يشتغلون بقتل الأحياء . . . وقالوا : إن رسالات السماء جاءت لتخريب الأرض . . . وكذبوا .

ما جاءت إلا لمآرتها . وجعلها جنة قبل الجنة وانتفاعا بهدى الله قبل السعادة بجواره المقيم فى ديار النعيم . .

فليس من حقيقة التقوى أن تكون محدود الأمل ، ضيق الرجاء ، فإن ذلك يدل على عجز فى النفس ، أكثر مما يدل على إيمان فى القلب .

بل أولى بك أن تكون بعيد المهمة واسع الطموح ، تتطلع إلى آفاق لانهاية لها
ما دام فيك عرق ينبض .
وكل ما يطلب منك إزاء ذلك أن تهيب لسكل شيء وسيلته وتمد لسكل أمر عدته
«ومن طلب عظيما خاطر بعظيمته» .
والرجل الكفء أهل لما يصل إليه من كرامة وأهل لما يطلب لنفسه
من منزلة .

لقد طلب خالد بن الوليد من إخوانه - قادة الفرق في معركة اليرموك - أن يكلوا
إليه أمر القيادة العامة ، وعرض ذلك في صراحة وفي كياسة وأجيب إلى طلبه .
على أن انفساح الأمل لا يقبل إلا إذا اقترن بالإخلاص لله وحده وكان عمل
الرجل إذا وضع في المؤخرة كعمله إذا وضع في المقدمة سواء بسواء .
وبهذه الروح كان مسلك خالد يوم أن ترك القيادة وعاد جنديا . .
إن الإسلام إنما ييغض الأطماع السمجة والحرص البارد على المظاهر الكاذبة
واصطناع الدسائس للظفر بأبهة الدنيا لا بخدمة الدين ، فكأن طموحا واحذر الطمع .
إن الدين خير كله ، وما تصلح الحياة إلا بتماليه ، بيد أن علينا إقصاء المتأكلين
به عن ساحته ، وتمكين أولى الأيدي والأبصار وحدهم من فقهه وعرضه .
وأحسبني في كثير من كتبي قد أشبعت هذا الموضوع بحثا . وأود أن أقول
للسائل المستريب : إن نهضة الإسلام في عصرنا هذا تعتمد على أصول مكينة من
الإدراك المسدد وال عاطفة الحارة . وإن المسلمين أحوج الناس في هذه الأيام إلى
الانعطاف لدينهم والاستمسك به . .

وربما أخذ على الدعوة الإسلامية في هذا العصر ما يمر وجهتها من تقطع . مردّه
- في نظري - اختلاط الدعاة بالأدعياء ، والفائحة الشكلى بالنائحة المستأجرة .
لكن هذه العلة لن تطول ، فإن الحق آخر الأمر ينفرد ويخلد « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى
أَمْرِهِ وَالسَّيِّئُ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » . .

من آثار الإيمان

في التنفير من المعاصي يقول الناصح كلاما حسنا يصف به ما يعانیه المجرمون من متاعب وما يتعرضون له من مصائب . كانوا في غنى عنها لو استقاموا ولزموا الجادة . وهذا نصح صادق لحياة الآمين وعرة السبل ، داكنة الأفق ، تكتنفها الأخطار الوضيعة ، من بين يديها ومن خلفها . .

نعم إن هذه الدنيا ليست دار جزاء ، ليست دار جزاء كامل ، فقد يرجأ بعض المجرمين إلى الغد القريب ، وقد يرجأ بعض العقوبة كذلك .

إلا أن الله — جلت حكمته — شاء أن يكف غرور الناس بلمس من العدل الأعلى تبرق في حياتهم فينتصف بها الحق ويخزي بها الباطل ، ويستروح إليها الصالحون ، ويقشع منها الظالمون .

وبهذه الأجزية المجلة يخوف الله الأمم إذا غوت ويسوق إليها النذر لتتق وتعتدل « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

وفي تاريخ الحياة القريب والبعيد مثل صارخة تحض الأفراد والجماعات على الخير، وتزين لهم عقبي الإيمان والطاعة وتوضح لهم مصائر الكفر والفسوق ، وتكشف للأخلاف الذين نبتوا على أنقاض الأسلاف أن القدر الساهر لا يستبعد عليه أن يؤاخذ الآخرين بما أخذ به الأولين « أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ؟ ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

والتلويح بما في حياة الفضيلة من استقرار وسكينة ، وبما في حياة الجريمة من قلق وخطر ، نصح صادق لاريب فيه ، وليس مستغربا — وأنت تفرى بالعفة — أن تندد بحياة الفاحشين الطامعين .

وليس مستغربا — وأنت تحذر من الخيانة — أن تنوه بحياة الأمناء الآمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

وفي القرآن الكريم أمثلة شتى لهذا اللون من التوجيه النافع القريب ، قال الله تعالى : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، وبؤت كل ذي فضل فضله ، وقال : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقال : « للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . ولدار الآخرة خير » .

وجاء على لسان نوح — وهو يحب الإيمان إلى قومه ويرغبهم في قبوله — « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

وليست هذه الوعود زخرفاً من القول ، أو أماناً تُخدع بها الناس ليقادوا عن طريقها إلى الحق ، كلاً ، فسنة الله في عباده أن الأمان جزاء الإيمان ، وأن العقوبة جزاء الكفران ، وأن التمتع في الدنيا باللذات والطيبات شرع ابتداءً للمؤمنين ، وإنما شرعهم غيرهم فيه لعل طارئة .

فإذا اتزاحت هذه العلل — وستزول حتماً في الدار الآخرة — خلس المؤمنين وخدم هذا المتاع .

وذلك معنى قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

فإذا رأيت شيئاً من صفو العيش وبشاشة الرضا بخالط نفس المؤمن فذلك حقه الذي كان ينبغي ألا يزاحمه عليه أحد ، لولا أن الحياة — أساساً — دار ابتلاء إلى جانب ما يتسرب إليها أحياناً من مظاهر الحساب والجزاء ..

هي دار ابتلاء بالواجبات ، ثقلها وخفيفها ، والأقدار خيرها وشرها . وهذا الامتحان الشامل تتمشى معه المكافآت المعجلة التي وعد الله بها ، كما ترى التلميذ في مراحل تعليمه الطويلة يثاب بالنجاح المطرد ، وإن كان لا يعنى من عناء الدرس وطول الاستدكار ، وإدمان المطالعة والتمحيص والسهر .

وقد تكون للتلميذ نهاية يقف عندها ، أما المرء في هذه الدنيا فهو إلى أن يحشرج ، موضوع في بوتقة الاختبار .

والناس يخلطون حين يسوون بين مغارم الاختبار الذى لا بد منه وبين نتائج الفوز أو الإخفاق فيه .

إن الجيش الذى يكسب المعركة يفقد بعض القتلى . فهل مافقده في صراعه يחדش من قيمة النتائج التى بلغها ؟

إن الله وعد الصالحين حياة طيبة لكن لم يعدهم أن يحصلوا على هذا الصلاح المنشود دون جهد يبذلونه . . . ! !

وتمَّ أمر يجب أن نعرفه . إن الآلام ليست سواء .

هناك آلام وضيفة وأخرى رفيعة .

فالذين يحكم عليهم بالسجن عشرين سنة في الأشغال الشاقة يتعرضون لشقاء لا ريب فيه جزاء جرائمهم .

بيد أن هناك من الرجال الأحرار من يقضون أعمارهم في كدٍّ موصول وأعباء جسام ، برّاً برهبهم وجهادا لدينهم ، وإعزازا لإخوانهم .

وشتان بين ألم وألم ، شتان بين شهيد تذهب نفسه في سبيل الله وقتيل ترهق روحه قصاصا عدلا ، تصلح به الحياة ، وتطهر الأرض .

والشعور بمعظمة العمل ورفعة الألم بعض الجزاء الذى تطيب به نفوس الأتقياء ، وتحس فيه رضوان الله عليها ، وامتيازها على غيرها من العاصين والخطيئة . .

ثم إن أنواع الاختبار المفروضة على الناس كثيرة معقدة ، فإن ما تهيج له نفس قد لا تتحرك له أخرى ، وما يكون راحة للإنسان يكون عناء للإنسان .

وخلاق النفوس — هو وحده الذى — يعرف خصائصها ، ويسوق إليها ما يعجم عودها ويمحص معنيها . . !

جاء في الحديث : أن الرجل يحرم الرزق بالذنوب يصيبه !

فهل كل المعصاة يعامل بهذا القانون ؟

إن هناك من يزداد تراؤمًا بزيادة ذنوبهم كأولئك الذين قيل لهم : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما » « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم » .

فما معنى هذا ؟

معنى هذا أن هناك من الخطائين من تؤدبه فيتأدب ، ومن تؤاخذه فيتراجع ، فالحرمان لهم فطام عن الذنوب وقيادة إلى التائب !!

ومنهم من يتسكأر حوله المال كما تتسكأر اللجج حول الغريق ، فلا يزال يكرع منها حتى يخنق ويهلك . . . !

ومنهم من تيبس الأرض تحته حتى ينقطع من الطوى ! لأن سياط العذاب لو تخلقت عن جلده ما انفك عن غيئه «ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرر للجأوا في طغيانهم يعمهون» . . . !

إن أنواع الاختبار وأنواع الجزاء أوسع من علمنا ، ولذلك ينبغي أن نرمق أحوال الناس ببصر ، وأن نحكم عليها بحذر . ومهما اضطربت الظواهر أمامنا ، فلا يجوز أن نرتاب في مصابر المصلحين ، والمفسدين ، ولا فيما يلبس بحياهم من شئون وشجون «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء بحياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون» .

لا تشكن في جدوى الاستقامة .

إن معيشة التقى والطاعة تورث الصحة البدنية والنفسية وتوفر الراحة المادية والأدبية وتحفظ لصاحبها في آجل أمره وعاجله أنصبة من الخير يستحيل أن تنافى لغيره .

لا تشكن في جدوى الصلة بالله وإيثار ما عنده .

إن الصديق الكريم لا يضيع صديقه ، فبئس الظن بالله أن تحسبه يضيع أوليائه أو يتنكر لهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كانت الآخرة همه جمع الله عليه شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا كان الله إليه بكل خير أصرع » .

في كتاب « عش مائة عام » للدكتور « جابلورد هاووزر » عقد المؤلف فصلا عن الاستمتاع بالحياة وأثر السلوك الحسن في إسعاد الإنسان وراحة أعصابه وطمأنينة قلبه قال فيه : « لا يفوتني هنا أن أشير إلى ما للإيمان الديني من أهمية قصوى في حياة البشر ، إنه ليس أبين حمقاً ولا أشد عمى وانطاس بصيرة ، من أولئك الذين يزعمون أنه لا مكانة في العصر الحديث للدين !

فالعقيدة هي النجم القطبي الذي يهتدي الملاّحون في عرض البحر إذا خيم الظلام ! والحياة في عصرنا بحر طام ، أشد تلاطمًا ، وأوسع مدى ، وأحفل بالأخطار والغوامض من بحر الحياة القديم .

والحاجة اليوم إلى العقيدة أشد منها في أي عصر مضى . والنفس الآمنة مطمئنة لا يمكن أن تبلغ هدوءها واستقرارها ما لم تستند إلى عقيدة راسخة في قوة أزلية أبدية ومدد أعلى وأعظم من ظواهر المادة المتغيرة .

وهذا المحلل النفسي الكبير « يونج » مؤسس المدرسة المعروفة باسمه وأكبر تلامذة « فرويد » يقول : لقد قصصني آلاف يطلبون المعونة والشفاء من الحيرة والانحلال فكان أسرعهم إلى تحقيق أمله ذوو العقيدة ، ومن في سريرتهم بذرة التدبّر الصادق .

إن الشواهد متكررة على ما للإيمان من آثار طيبة في النفس والحياة . ولا ريب في أن المسلك التقى يفتح على الإنسان أبواب البركة والسعادة .

واسمع إلى رسول الله يقول — في الصلوات المفروضة — « من حافظ عليهن عاش بخير ومات بخير . وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » !!

إن حياة الخسة والفسوق لا تجر إلا الشقاء على أصحابها وعلى المجتمع ،

وفي الحديث « لم تظهر الفاحشة في قوم قط إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم » .

أما الإحسان فإن أثره يتبعه ، عافية وارتقاء وخيرا وتوسعة .

بل إن بركة الإحسان تتمدى المؤمن إلى الكافر فيحيا في كنفها أهدأ نفساً مما لو أساء .

روى ابن جرير : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن من محسن مؤمن أو كافر إلا وقع ثوابه على الله في عاجل ديناه وأجل آخرته » .

وفي رواية البزار : « ما أحسن من محسن مسلم ولا كافر إلا أثيب ! قالوا : يا رسول الله ، هذه إثابة المؤمن قد عرفناها ! فما إثابة الكافر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا تصدق بصدقة أو وصل رحماً ، أو عمل حسنة ، أثابه الله ، وإثابته المال والولد في الدنيا وعذاب دون عذاب — يعني في الآخرة — وقرأ « وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

أرأيت أن معرة تقصيرنا — نحن المسلمين — . . . وشؤم معاصينا حاق بنا ؟
أما الكافرون فإن الله العدل لم يهدر لهم إحساناً ، ولم يبخس لهم إجابة وإتقاناً .

نحو أجيال أرقى

أمكن في عالم النبات إبداع سلالات ممتازة من القمح والقطن والأرز ، ضمت إلى وفرة الحصاد جودة الأصناف .

وأمكن في عالم الحيوان تحصين الولائد الجديدة ، والعناية بها من ساعة اللقاح إلى عهد النماء والحركة ، فظفر الناس من هذه الجهود بمزيد من اللحم والشحم والألبان والأشعار والمرافق الأخرى . . .

إن تحسين الذراري ، ومحاولة الارتقاء بها - كما وكيفا - أمر ميسور ، وتحقيق ذلك في عالم الإنسان لتكوين أجيال أنضر وأزكى - عمل يعتبر أولى وأجدى من تحقيقه في عالمي الحيوان والنبات . . .

والحضارة التي تسود الحياة المعاصرة سارت أشواطاً متفاوتة في مضمار الارتقاء العام ، فسبقت في ناحية وتخلفت في ناحية ، ولا ندرى هل تعادلت كفتا الأرباح والخسائر ، أم رجحت إحداها ؟

لقد ارتفع مستوى الصحة العامة ، وأظن سكان العالم لم يبلغوا في عصر مضى هذا الحد من الكثرة .

إن الأوبئة التي كانت تذر الديار بلاقع تلاشت أو انكسرت حدتها ، بيد أن شبح الحرب التي تفنى العالم أجمع لا يفتأ يهدد المدائن والقرى . . .

ولقد وضعت الأنظمة التي تكفل المعاش وتمد البشر بالأقوات بل يُسرت اللذة وأصبح الغناء الذي احتكرته مقاصير الملوك قديماً يملأ الألوף المؤلفة من البيوت ، ويستمتع إليه الناس في الطرق ، مبذولاً لا ثمن له !

ومع ذلك فإن الناس جياع إلى مشاعر الاستقرار والسعادة ، موقنون بأنها في شيء آخر غير ما يسرته لهم الحضارة الحديثة من متاع وترويح ورفاهية . .

والجهود مبذولة لإشاعة الثقافة والرياضة ، وتنشيط الأذهان والأبدان ، وخلق أجيال فارقتها صفرة الفقر والمرض ، وبلادة الجهل والفوضى ونحن نود أن يصعد البشر في درج الرقي حتى يبلغوا القمة ، وأن تنجو الحياة من الأدواء التي أزلتها عن الصراط وعاقبتها عن الكمال المنشود ، لكن كيف السبيل ؟ وأين الغاية ؟

إن العناية بالغذاء والصحة هي الوسيلة الأولى في إيجاد حيوان فارح .
ولما كان الإنسان كائنًا متعدد الملسكات والقوى فإن التسامح به يحتاج إلى وسائل
كثيرة ، وسائل يجب أن تلاحقه مادة وروحاً منذ يتكون قطرة ماء في بطن أمه ،
إلى أن يتحول بشراً سوياً يعالج الحياة وتعاني من جبروته ماتعاني !
ونحن ننشئ المعاهد ، ونمد بها أنهار المعرفة لتروى بها مواهب الإنسان كما تروى
الميدان في الحقول ! فهل هذا التعليم هو الذي يصوغ الناشئة ويهيئ لها أطوار
أرق من سابقتها ؟

إن العلم حياة القلوب وضياء العقول وحاجة المرء إلى العلم كحاجة عينيه إلى الضوء
غير أن فنون العلم وحدها لا تتدرج بالحياة إلى آفاق أعلى مالم تصاحبها وسائل أخرى
تغير من طبائع المتعلمين أنفسهم حتى تتيح لهم الاستفادة مما يتعلمون . .
وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى
والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ
والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا
وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .
فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع
بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .
والحديث واضح في أن العلم وحده لا يخلق أمة متساوية الأنصبة في حقائق الخير
والتق ، ولا في أسباب الفلاح والرشد .

ولو أحصيت المتخرجين في مدرسة ما لوجدت لبعضهم أمجاداً ظاهرة ولبعضهم
مثالب شائنة ، وبعضهم ظهر حتى أضحى من أعلام المجتمع وبعضهم اختفى فلم يوقف
له على أثر ! وصدق رسول الله إذ يقول : « إنما أنا قاسم والله معطي » .

والمثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم لاستفادة الخلائق من رسالته عد
أصنافاً من الطبائع التي يحسن أن نشرحها .

فأولها بالله وألصقها بالحق وأجدرها بالتوقير والثوبة . . أولئك الذين علموا
وعملوا وعلموا ، إنهم استناروا بالمعرفة الصحيحة وأناروا الدنيا بها !!
أخصبت نفوسهم بالخير المغروس فيها فأزهرت وأثمرت ، ثم امتدت الأيدي إلى
جناها الداني تقطف منه ما تشتهي . .

أولئك دعائم الرشد في كل أمة ، إذا قاموا رست أركانها ، وإذا ذهبوا ذهبت ريحها . .

هذا ماقرره الرسول الكريم إذ قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

فالعالماء الذين يعصمون الجماعات من الزيف ، هم أولئك الذين أماتوا أهواءهم ، وقاموا بحق الله في أنفسهم وفيما حولهم . انتفعوا بالإسلام ونفعوا الآخرين به ، واتصلت حياة هذا الدين بهم كما تتصل حياة الشجرة بما تحمل من بذور فيها طبيعة الإنتاج والنماء ، فهي إن ولت أعقت بعدها ما يُنبِتُ مثلها أو أشد . . إلى أن يأذن الله بانقضاء الحياة والأحياء .

وذكر الحديث طائفة أخرى من العلماء الذين لا يستفيدون مما علموا فائدة طائلة ، إلا أنهم أوعية حسنة للمعارف النافعة التي تظل قائمة بأنفسهم حتى يجيء من ينقلها عنهم ليعمل بها ويفيد منها !!

وهذه الطائفة ليست صنفاً واحداً ، فهناك حفاظ للعلم يعملون بقليل منه ويحملون كثيره دون تدبر فيه أو دراسة عميقة له .

وأمثال هؤلاء ، هم الذين يصدق فيهم قول رسول الله « رب حامل فقه ليس بفقيه » « رب مبلغ أوعى من سامع » .

وربما اتسع علم هؤلاء وكثر بذلهم له . . حتى يضرب الناس إليهم لينالوا من حكمتهم ما تصح به النفوس وتصحو الهمم !! فهم كالبحيرة التي تجمع الماء فيها فأضحت مثابة للمطاش يردونها ليرتووا ، وربما حمل الماء منها إلى الأرض العاطلة ، فإذا هي بعد حين حالية بالأزهار والرياح . .

وحفظة العلم من هذا الصنف أقل رتبة في الخير من العلماء العاملين والعلمين ، بيد أنهم أرقى درجة من صنف آخر يعمل بضد ما يعلم ، ويسلك في الحياة مسلكاً يزرى بما أوتي من عرفان . .

وقد أعلن الله عز وجل سخطه على أولئك الذين يعملون بأقوالهم ، ويجهلون بأحوالهم ، فقال : « كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » . .

والحق أن هناك نفراً نُكِبَ العلم بهم ، وفصحت الأديان بسيرتهم ، جعلوا عليهم بالحق مصيدة للباطل فحفظوا منه كلمات يهدون بها الناس ، ثم اثنوا من جهة أخرى يبحرون المنافع ويصطادون الغنائم . . .
فالفواصل بين ما يقولون وبين ما يفعلون غليظة كثيفة ، طباع بهائم وتعاليم ملائكة .

ولذلك وصف القرآن الصلة بين علمهم وطباعهم بقوله : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

وأحسب أن هذا الصنف ليس من قبيل الأرض المجذبة التي أمسكت الماء ، فالمفروض أن معدن هذه الأرض لا يفسد ما فوقه ! والنفوس ينبغي لها أن تصلح بالعلم ؛ فإذا لم تصلح به فلعل من بقية الخير بها أن تحفظه نقياً ليصلح به الآخرون . . ! وقد نقول : إن الحديث ذكر علماء ينشرون الهدى ولا ينتفعون به ، فلم ترك العبادة الأتقيا الذين ليس لديهم علم ينشرونه ؟ والجواب أنه ليس في الإسلام عبادة جهلة ، وأقل أحوال المسلم أن تكون لديه معرفة بالفضائل والذائل فهو يدعو للأولى وينفر من الأخرى . . فإذا لم يكن كذلك فهو من العصاة وليس من المتقين .

وأما الصنف الذي أعيا العالمين أمره وأعجز الأطباء برؤه فهم أولئك الذين تتعهدهم بدروس الحكمة وتأخذهم بالوان الأدب ، وتفزروهم بالنذر ، وتغالفهم بالبشريات . . . ومع ذلك كله يستعصون على جهودك المتابعة ويُلقون القنوط في قلبك .

انظر إلى قوم إبراهيم كيف هشم أصنامهم ليثبت لهم أنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً . . فلما جاءوها ورأوها مكبوبة مهينة تساءلوا :

« قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتَنِ يَا إِبْرَاهِيمَ . قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا . فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ !! فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا لَأَنكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ !! » .

وإلى هذا الموقف كان يجب على الضلال أن يهتدوا ، وأن يصحوا من غفلتهم على

ضوء الحقيقة الرائعة ، لكن النفوس الملتوية تنقلب فيها مقدمات الحق ، فإذا بها تتمخض عن نتيجة أخرى ! .

لقد عادوا يقولون لإبراهيم ، إن آلهتنا - كما علمت - لا تنطق ولا تمي .. فكيف جرؤت على قداستها ؟

«ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ .. قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أَفَ لَكُمْ ، وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ »

وجاهير الدهماء من هذا القبيل المتعب ، فهم إما أناس لا عقول لهم ، يعجزون عن إدراك الحق لقصور أذهانهم على نحو ما قال الشاعر :

أقول له عمرأ فيسمع خالدأ ويقرؤها زيدا ويكتبها بكرأ !

وإما أناس لهم عقول مدركة ذكية ولكن ليس لهم ضمائر حية ، فهوام هو الذي يوجه علاقاتهم بالخصوم والأصدقاء ، ويفسد أحكامهم على الأشخاص والأشياء ...

هؤلاء وأضرابهم هم الذين شبههم الرسول بالأرض السبخة .. لا تمسك ماء ولا تثبت كلاً ! تحاول أن ترفع رءوسهم وأن تحملهم عن الثرى الذي التصقوا به فكانك تحرك الرواسي من أوضاعها التي شُدَّت فيها .

هل معنى ذلك أنه من الصعب إنشاء أجيال طيبة يتعرع فيها الحق والجمال ، وينضربها العالم ويستقيم العمران ، وتستأنف الحياة بها مراحل أدنى إلى الفلاح وأبعد عن الدنيا ؟ ؟

إنني أميل إلى التفاؤل في حكي على فطرة الإنسان ، وأحسب أنه لو تضافرت عوامل معينة على تهديد الطريق أمامه لقل عثاره واهتدى إلى ربه ، واستراح إلى كنفه ..

إن الحكومات تستصلح الآن مساحات شاسعة من الأرض السبخة والصحارى الجافة ، وتعمل - دائبة - على تحويلها إلى جنات وحقول ، تزدان بالزرع والنخيل ،

وهي تفسل الأرض جيداً لتزيل ماعلق بتربتها من أملاح وترقب البذور الوليدة ، لتمنع الحشائش الغريبة من النماء على حسابها . .

فهل ترى أن هذه الجهود لو سلطت في ميدان العلم والتربية لاستصلاح الجماهير المضيق والمقول الملتأمة . . أما كان لها نتاج كريم وثمر عظيم ؟ ؟

كتب شق مجرم ليلة إعدامه كلمات أحب أن نقف قليلاً لديها ، وأن نسائل أنفسنا عن مدى ما فيها من حق .

هذا المجرم سرق في سن الخامسة . وكان من قطاع الطرق في الحادية عشرة ، وتحول قاتلاً فانتكا في السادسة والعشرين ، وحكم عليه بالموت خنقاً بالغاز عقاباً له على ما جنت يده .

وها هو ذا — قبل أن يلقي حتفه — يخطط هذه الأفكار والمشاعر . . .

وفيها — لا ريب — عظات بالغة للآباء والمربين . قال : لم يبق لي في الحياة وقت طويل . فإني إما أيام أو ساعات وينتهي أمري . ولكنه وقت يكفي لأن أعود بذاكرتي إلى الوراء أعرض بها الماضي فأبين ما جاء بي إلى هنا ، وقادني إلى هذا المصير .

ولست أدري أي شعور يخالجي الآن ؟ ! وقد يخيل إلي أنني سأتهافت حتى أهوى ، وسأنفجر فأصبح باكياً ، ولكنني أرجو أن أصمد وأنجلد ، كما يفعل الرجل في الثنابات ، وأن أتكلف — حتى اللحظة الأخيرة — مظهر الجرأة والقوة .

أما ما أدرك أنه يملك على تفكيرى وشعورى جميعاً ، فهو أنى على يقين ، من أن قتلى لن يفيد أحداً من الناس .

فلن يعود الرجل الذى قتلته إلى الحياة ، ولن يستطيع البشر أبداً أن ينزعوا الروح من جسد حيٍّ ليحيوا بها جسداً هامداً .

إننى أتساءل طوال ليلي المأرق ونهارى الحائر : أما يستطيع الناس — وفيهم من فيهم من العلماء والفكرين — أن يجدوا طريقة يصلحون بها الأشقياء بدلاً من تقتيلهم ، فيدفعوا عن الناس شرهم ، وييقوا على حياتهم معاً ؟ !

لو وجدت هذه الطريقة لتغير مصيرى . فلأدعُ الله ، في هذه الساعة الأخيرة

من حياتي ، أن يوفق الناس إلى هذه الطريقة حتى لا يكون مصير من نشأوا مثل
نَشَأَتِي ، أليماً مروعا كمصيري !

إنني أعرض الآن في ذاكرتي قصة حياتي ، فأرى أنني لو رببت تربية صالحة ،
ولو وُجِّهت توجيهاً قوياً ، لشققت في الحياة الطريق الذي يشقه الناس الأخيار ،
ولكنني كنت سيء الحظ ، أكثر مما كنت شرير الطبع ، فلم ألق حولي إلا من
أساء فهمي ، وأخطأ توجيهي ، فقادني من السرقة ، إلى القتل ، إلى الإعدام . .

إن فساد العلم بالدين والحكم بالدين كانا من الكوارث الكبرى في تاريخ البشر
فهل يَمُرُّ على أولى الأبواب إقامة حضارة مُحَسَّن معرفتها لله وإقامتها لحدوده ؟
ربما قال المتشائمون : لقد نجح الشيطان من قديم في إغواء الإنسان ويبدو أنه
ماض في خطته الأولى يحرز نصراً بعد نصر . .

وما من جيل ينقرض إلا ويتقلص معه جزء من ظلال الإيمان . .
وأقول : إن المراك خالد بين الحق والباطل ، وعلى أهل الدين أن يؤدوا واجبهم
إلى آخر رفق . .

ويؤسفني أن أقرر هنا أن انتشار الفساد في الأرض لم يجيء من نشاط
الشيطان بقدر ما جاء من تكاسل المؤمنين ووهن عزيمتهم .
والله عز وجل يكلف المسلمين خاصة أن يستميتوا في إعلاء كلمته وحياطة رايته
وقد يصل المحدثون إلى ما لم يبلغه القدامى . .

وفي الحديث « أمتي كالطمر لا يدرى أوله خير أم آخره » .

صلاة رجل !

العاطفة الأولى تجاه شيء ما تحدد - إلى أمد بعيد - موقف الإنسان منه وسلوكه معه . فإذا فوجئ الإنسان بروح فثبت له ولم تأخذه دهشة المباغته كان حرياً أن ينجح في مقاومته ، وأن تكون له العقبى وإن طالت مراحل الكفاح . أما إذا انتابه الفزع وطار قلبه شعاعاً فهيأت أن يتأسك ، وإذا عاد إليه صوابه - بعد لأي - فإن ما فاتته من خير قلما يعود إليه . . .

ولذلك يقول الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا . . » هذا الثبات أولاً ، هو بذرة النصر آخراً . . .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » وفي أدب العرب ما ينوّه بقيمة هذا الإحساس الأول ، وقيمة ما يترتب عليه من سيرة تحمد أو تعاب . قال الشاعر :

ولما رأيت الشيب لاح بعارضي ومفرق رأسي قلت للشيب مرحباً
ولو خفت أني إن كفت تحيتي تنكب عني - رمت أن يتنكبا
ولكن إذا ما حل كره فساحت به النفس يوماً كان للكره أذهباً

وضبط النفس - حتى لا تطيش بإزاء حادثة ما - ليس بالأمر الهين ، إنه يحتاج الفكر السديد والعزم الحديد .

إننا نمت الآلام ونمج مذاقها المرير . ولكن شاء الله أن يجعل من أكثر الآلام نفعاً خالصاً ، ومن أكثر اللذائذ ضراً محضاً .

ولا يزال الأطباء يصفون الأدوية المريرة لكفاح الأمراض وحسم أذاها ، ولا تزال المصائب في حياة الأفراد والأمم مصدر دروس بالغة الأثر في التربية والتعليم . والرجال الكبار كثيراً ما تظل مواهبهم مطوية في أستار العزلة البعيدة ، حتى تقع حادثة كبيرة فيكون موقفهم منها بداية تكشفهم للناس كما يتكشف البدر بعد انقشاع الغيوم .

وأبو بكر الصديق لم يكن رجلاً منغموراً فأظهرته واقعة من الوقائع ، وإنما كان رجلاً معروفاً بمسحة معينة من الجمال ، أو لون بارز من العظمة .

فلما جاءت أحداث الردة تألفت في جبين الرجل الكبير أشعة شتى من فضائل الثبات والإقدام والجرأة ، تساوقت مع ما عرف عنه قبلاً من فضائل الأناة والحلم والوقار ، فزادته فضلاً على فضل . . .
وفي هذه الكلمة نحاول - متواضعين - تصوير شيء من عمل الإيمان الكبير تجاه الحوادث الكبيرة . . .

لم يكد الرسول يصعد إلى الرفيق الأعلى حتى انتفض جبل العرب فارتدوا عن الإسلام ، وظنوا أن رمال الجزيرة ستعود كرة أخرى مسرحاً لماسى الجاهلية الأولى ومغازيها . .

وشعر السابقون الأولون بخطورة الأمر ، ورأوا أنفسهم في دار الهجرة مهددين بمصائب الأعراب الثائرين وجيوش ما نعى الزكاة ، والشقة بعيدة بينهم وبين جيش أسامة الذي سار قدماً إلى مشارف الشام تنفيذاً لوصاة الرسول . وليس للدين الكريم بعد حصنه السكين في المدينة إلا مكة والطائف ؛ فقد ثبت هذان البلدان ، رغم أن قريشا وثقيفا كانتا آخر من استمسك بمرءة الإسلام . على أن شيئاً من ذلك لا يفتنى فتيلاً عن أهل المدينة . .

فقد تجمع المرتدون من قبائل عبس وذبيان وأسد وكفانة . وكلما آذنت الشمس بالمغيب اقتربت جموعهم من مداخل البلد المهدد بغية اقتحامه على أهله ليلاً ، والقضاء على الإسلام بعد ذلك .

فلما أحس الصديق منهم الغدر ، جمع حوله بقايا المسلمين ، ولم يكن الأمر بحاجة إلى استشارة أو تهيج ، فقد ضمتهم جميعاً جدران المسجد النبوي ، واستمعوا إلى أبي بكر يشرح خطة الدفاع ويرسم لسكل منهم واجبه الذي يقوم به أو يموت دونه ؛ ووزع أفراد هذا الجيش الصغير على ثغرات المدينة ومطاز هجوم العدو ، وجعل المسجد مستودعاً يخرج منه المدد إلى الجهة التي يشتد فيها ضغطه ويخشى تسربه منها !! وأقبل الليل ، وثبت المسلمون في أماكنهم يتربصون ، وما هي إلا ساعات حتى نشب القتال ! .

لقد تحركت جيوش الأعراب ، وها هي ذى مهام المسلمين تخترق عماية الليل ، وأبو بكر فوق ناقته يصول ويجول ، وصراخ التكبير تتجاوب به الوهاد الموحشة ! وخرج المسكرون من المسجد يشدون أزر المدافعين ، وتناوبت أدوار الصراع طول الليل بين الإيمان والكفران ، فما طلعت الشمس حتى تزل نصر الله على جفده ، ونجت المدينة وفر المرتدون .

كان لهذا الفوز معناه ، فقد تعلم المرتدون أن المدينة غاية في المنعة بما فيها من جند كثيف ! وما هم إلا النفر القلائل ربا إيمانهم فساوت فعالمهم جيشاً جراراً ؛ وكان أبو بكر يعرف كيف يستغل القوى التي توشك أن تختفي في الأيام التي تترادف فيها المفاجآت العصبية .

وحقاً ، لقد اختلت الصفوف ، وأقبلت الفتن تريد أن تجعل بين كل مؤمن ومؤمن حجاباً يفصل بينهما لتفترس كلا منهما على حدة ! ولكن أبا بكر كان أسرع منها إلى العمل ، فقد ارتفع بإيمانه كما يرتفع العلم في المعركة المضطربة المختلطة ليثوب إليه الأنصار ، ويحتشد من حوله المخلصون ، ويكون من هؤلاء وأولئك مأمّن للمروعين ، ومستقر للشاردين ؛ وكسب أبو بكر المعركة الأولى في إنقاذ المدينة . وما هي إلا أيام حتى قفل جيش أسامة منصوراً غانماً . فاستراح أبطاله إلى حين .

وبدأ الكفاح الحقيقي ، فقد انفتح أحد عشر باباً للفتنة في آن واحد . والجرح بموت الرسول لم يندمل بعد ، وأطراف الجزيرة تموج بصفوف من الضلال تحاول الاندفاع إلى قلب الإسلام فتقضى عليه بعد أن تحللت منه ! وهنا يحشد أبو بكر كل من حوله ، ويقذف بهم إلى المعركة الفاصلة ؛ فيمقد أحد عشر نواء لأحد عشر قائداً ، ويفتح إحدى عشرة جبهة مرة واحدة ويراقب القتال في هذه الميادين بضعة عشر شهراً ، وتمر الأيام وهذه الجيوش في جهاد شاق ، لا تنتهى من قتال إلا لتستأنف غيره حتى جاء أخيراً نصر الله والفتح ، وهزم الله المرتدين شر هزيمة .

يقولون : مهما يكن الطريق إلى الغاية المنشودة طويلاً ، فإن المهم هو الخطوة الأولى فيه ، وهذا حق .

بيد أن الخطوة الأولى لا تلدها إلا عزيمة كاملة وعاطفة ناضجة .
إن الحوافز العظيمة وحدها هي التي تدفع إلى المخاطر وتجري على
اقتحام الصعاب .

والأمور لا تكون جسيمة أو هزيلة في نفسها قدر ما تكون كذلك في عين
امرى هيب أو مقدم :

على حد قول المتنبي :

وما الخوف إلا ما تخوفه الفقى وما الأمن إلا ما رآه الفقى أمناً
وعند ما توات أنباء الردة على المدينة نهى لها الصديق الجلد ، وكأنه غضوب
استفزه سفهاء ، فما يفكر إلا في قمع العدوان الذى أسابه .

مع أن هول الأخبار الواردة جعل الجبارين يترثون في مقابلتها ، ويفكرون
في حيلة ، للخلاص منها .

أما أبو بكر فقد أجمع أمره وتوكل على ربه وقرر العمل .

ثم رثى في عُدّة الكفاح ، بقود الجيوش المعبأة للجهاد ، وكان الظن به أن يبدو
رجل سياسة ورياسة فحسب .

وروى أنه عرضت شبهة لعمر دعته أن يطلب مسالة العرب الناكين عن أداء
الزكاة ، ظاناً أن تألفهم بما في قلوبهم من إيمان معلول سينتهى بهم إلى دفع الزكاة
التي منعوها .

فمن أبى هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبى بكر : علام تقاتل الناس .
وقد قال رسول الله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها .

فقال أبو بكر : والله لو منعونى عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لأقاتلنهم على
منعه ؛ إن الزكاة حق المال . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . . .

قال عمر : فما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق .
وكما اجتاحت صلابة أبى بكر تردد عمر ، أخذت تغمر سائر الصحابة من مهاجرين
وأنصار وأعراب .

روى ابن عساکر : أن أبا بكر خطب الناس يحضهم على جهاد المرتدين وما نعى الزكاة فقال : الحمد لله الذى هدى فكفى وأعطى فأغنى .

إن الله بعث محمداً ، والعلم شريد ، والإسلام غريب طريد ، قدرث حبله ، وخلق عهده وضل أهله منه .

ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيراً خيراً عندهم . ولا يصرف عنهم شراً لشر عندهم . قد غيروا كتابهم ، وألحقوا فيه ما ليس منه .

والعرب الأميون يحسبون أنهم فى منعة من الله لا يبدونه ولا يدعونه ، فأجهدهم عيشاً ، وأضلهم ديناً . . .

نختمهم الله بمحمد ، وجعلهم الأمة الوسطى ، ونصرهم بمن اتبعهم ، ونصرهم على غيرهم .

حتى قبض الله نبيه فركب منهم الشيطان مركبه وأخذ بأيديهم وبنى هلكتهم . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » . إن من حولكم من الأعراب منعوا شاتمهم وبميرهم .

ولم يكونوا فى دينهم أزهد منهم يومهم هذا . ولم تكونوا فى دينكم أقوى منكم يومكم هذا .

على ما تقدم من بركة نبيكم ، وقد وكلكم إلى المولى الكافى ، الذى وجده ضالاً فهده ، وعائلاً فأغناه ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .

والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفى لنا عهده .

ويقتل من قتل منا شهيدا فى أهل الجنة ، ويبقى من بقى منا خليفته وذريته فى أرضه . قضاء الله الحق . وقوله الذى لا خلف له « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

إن هذا الشعور الفائر الظافر ، قاد المعركة أولاً ، وربحها آخرها .

السلام المسلح

« فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ، وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

كنت أريد شرح الآية الأخيرة فوجدت أن أقصر طريق للإبانة عن معناها والدلالة على تفسيرها يكون بضم سابقتها إليها ، فإن المقصود من الآية الأولى تقديم رائع للمقصود من الآية التي تليها .

إن الله عز وجل يأمر بنصر الحق والنضال دونه ومجاهدة الكافرين بالنفس والنفيس ، ويوصي عباده ألا يستكينوا للظلم ! ويحرضهم على مقابلة العدوان بمثل ، وعلى ألا يتركوا الضلال يستعلي ويستعلن فلا يجد من يقمعه ويردعه .

كلا . فرسالة الله أعز في حقيقتها وأعز لدى حمايتها من أن يكون لها أمام الباطل منزلة السوء والهوان . وهذا — بداهة — يستتبع سيلا جاريا من النفقة المبدولة ، وينابيع دافقة من الإيثار والتضحية وبيع الدنيا بالآخرة . وقد ووجه المسلمون الأولون صراحة بهذه التكاليف الشاقة في هذه الآيات وفي غيرها من كتاب الله ، لكن الآية التي تتلوها الآن تمتاز بأنها تضمنت تهديداً خطيراً لمن يجبن عن الكفاح وينسكص عن النفقة ! ! إذ اعتبرت الفار بنفسه وماله ملقيا بنفسه وماله في الهلاك ، وأومأت إلى أن الأمة التي تتراجع عن الموقف الواجب في ميدان الشرف والفداء لاتلبث قليلا حتى تذل وتخزي ثم يجر عليها التاريخ أذيال العفاء .

ردوا العدوان وابدلوا في سبيل الحق . . وإلا فالتسليم للعدوان والشح بالأموال طريق الضياع والفناء والتهلكة . فلا تلقوا بأيديكم إليها .

ألا ليت المسلمين يدركون هذه السنة في ازدهار الأمم واندثارها لاسيما وهم مع اليهودية والصليبية في حرب حياة أو ممات . . .

غير أن فريقاً من المسلمين ظلم هذه الآية أقبح ظلم ، وفهمها أغبي فهم وظن أن

الله يقول لعباده : احرصوا على أعماركم فلا تعرضوها للاستشهاد في سبيلي واحرصوا على أموالكم فلا تضيعوها بالإففاق في سبيلي !

وهكذا لم يكف الناس أن يعصوا حتى ذهبوا يتلمسون لمعاصيهم الفتوى المشروعة !
عن أبي عمران قال : كنا بمدينة القسطنطينية فخرج إلينا صف عظيم من الروم فبرز إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر . وعلى أهل مصر عقبة بن عامر . وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ، ثم خرج إلينا ، فصاح الناس إليه فقالوا سبحان الله ، ألقى بيديه إلى التهلكة . فقال أبو أيوب : يا أيها الناس ، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل . وإنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها . . . فأُتزل الله هذه الآية . . .

وإقبال الناس على أموالهم يستصلحونها ليس جرما ينهون عن اقترافه ، فإن تعهد المتاجر والمحافل بما يزيد غلتها ويضعف ثمرتها عمل مطلوب لا قيام للعالم إلا به ، ولا قيام لدين إلا إذا ساندته دنيا ، نَمَّأها العمل ، ثم أنهكها البذل في سبيل الله .
وإنما خيف على المسلمين الأوائل أن يعمدوا عن نصرة الدين ويركفوا إلى ما بقي لهم من مال ظانين أن الإسلام قد انتصر وفرغ من أعدائه فلا ضرورة لإعداد ولا استعداد .

وهذا خطأ . فإن أعداء الحق لا يخلو منهم جيل ولا ينقطع لهم كيد . ولئن كان الهجوم المسلح غير مطلوب ديناً ، فإن السلم المسلح من أركان الدين . وذلك بتقاضى الأمة أن تأخذ أهبتها كاملة فلا تبخل على عدد الحرب بمال ، ولا تمسى إلا وهى واثقة من أن بيتها على حذر وتهبؤ فإذا بوغت ردت على العادين وهى عزيزة قادرة . فأما الأمم التى تنام على تفريط ، وتضن على حماية نفسها ورسالتها بالأرواح والأموال ، فهى أم لاشك هالكه ، فى عالم يقال فيه : من لم يتذأب أكلته الذئاب . إن النفقة فى هذه الوجوه سياج يحمى المآثر ويصون الحياة . كما قال الله : « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فَمِمَّنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ . وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ » .

حول مخرج الحسين

يلوم أكثر النقاد الحسين بن علي رضي الله عنه في مخرجه أيام يزيد وتعرضه وأهل بيته للحتوف ، على غير خطة حكيمة أو حيلة ناجحة أو قوة مساندة ؟ .

ولم يختلف جلة المؤرخين على أن يزيد كان حاكما فاشلا ، وأن طريقة استخلافه على المسلمين بعيدة عن تعاليم الإسلام . وأن مدته القليلة حفلت بحوادث مشثومة . . . !!

ولم يختلفوا كذلك في أنه كان هناك رجال أحق منه بالخلافة وأقدر على تولي شئون المسلمين ، وأرضى الله في خلقهم وعملهم .

منهم - أو في طليعتهم - الحسين بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ومع هذه الكراهية ليزيد فإن المعارضين لحكمه لم يجمعهم نظام دقيق ، ولم تتخذ ثورتهم عليه منهجا واضحا ولا زعامة موحدة . . . !

كان العامة يكتفون بالسخط المجرد ، السخط الذي يتجاوز الفؤاد أحيانا إلى اللسان ، كلمة نابية ، تقال في الخلاء . . . !!!

وكان الخاصة يرقبون المستقبل ، وعواطفهم موزعة .

إنهم يدركون أن الخليفة الضعيف سيضطرب الأمر في يده ويفلت الزمام منه .

فن ياترى ينهض من بعده بالعبء وبلي هذه الأمة ؟

وليس بمستغرب أن يرشح نفر كثير أنفسهم لهذا المنصب ، لقد تولاه من

هودونهم فكيف يبعد عنهم أو يستكثر عليهم ؟ ؟

وهذه السلبية في تفكير العامة والخاصة جميعا مكنت يزيد أن يبقى في الخلافة

حتى يفارقها بالموت وحده . . .

ولو طال أجله لطالت خلافته .

ولم لا تطول ومن حوله أعوان يجتمعون عليه بقوة ؟ وتغريهم حلاوة الدنيا في ظلّه

فيتجدون خصومه بعنف . . . ؟

إن المعارضة المفككة المرتبكة لا تلبث أن تضمحل أمام دولة موطدة الأركان

محشودة الأعوان .

نعم ! ولو كانت المعارضة أكثر أنصارا وأدنى إلى الرشاد .
وذلك سبب الفشل الذى لحق الثورات ضد يزيد قال ابن كثير : قدم عبد الله
ابن عمر المدينة فأخبر أن الحسين بن على قد توجه إلى العراق ، فلحقه على مسير
ليلتين أو ثلاث . قال : أين تريد ؟ قال : العراق — ومعه طوامير وكتب — فقال :
لاتأتمهم ! فقال : هذه كتبهم وبيعهم !

فقال : إن الله خير نبيه صلى الله عليه وسلم بين الدنيا والآخرة فاختر الآخرة
ولم يُرد الدنيا .

وإنكم بضعة من رسول الله والله لا يليها أحد منكم أبداً ، وما صرفها عنكم
إلى الذى هو خير منكم . فارجعوا .

فأبى وقال : هذه كتبهم وبيعهم ! فاعتنقه ابن عمر وقال : أستودعك
الله من قتيل ! !

قال ابن كثير : وقد وقع ما فهمه ابن عمر من أنه لم يلب أحد من أهل البيت
الخليفة على سبيل الاستقلال ويتم له الأمر . وقد قال ذلك عثمان بن عفان وعلى بن
أبى طالب : إنه لا يلى أحد من أهل البيت أبداً .

وأما الخلفاء الفاطميون بمصر فإن أكثر العلماء على أنهم أدعياء . . .
وعلى ليس من أهل البيت ، ومع هذا لم يتم الأمر له كما تم للخلفاء الثلاثة قبله
ولا اتسعت يده فى البلاد كلها ، بل تنكدت عليه الأمور .

ونحن نوافق ابن عمر فيما ذهب إليه ونخالفه فى العلة التى ارتآها .
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم آثر الآخرة على الدنيا حقاً ، وآله الذين هم بضعة
منه يريد الله لهم ذلك ، ويغليهم على رغباتهم فيها « يريد الله ليذهب عنكم
الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

لكن هل ولاية أمور المسلمين دنیا يذاد الصالحون عنها ؟
لقد جاء فى الحديث أن أول السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة « إمام عادل »
وجاء أن أول أهل الجنة الثلاثة « ذو سلطان مقسط موفق » .

فإمامة المسلمين في الحكم — كإمامتهم في الصلاة — عبادة محضنة .
وما يستطيعه الصالحون إذا حكموا أجدى على دين الله ودنيا الناس ألف مرة
مما يستطيعه الصالحون إذا اعتزلوا .

بل إن فساد الحياة ومثلها العليا يرجع أول ما يرجع إلى أن نفرا من الطغاة
أمكنتهم الأيام من أن يحكموا الأرض آمادا طويلة فقلبوا الحقائق في أفهام الناس
وأوهامهم ، وجعلوا سوق الرذائل نافقة ، وتجارة الآخرة كاسدة .

فكيف يُؤخَّرُ الأتقياء عن الحكم ليتولاه الفجرة ؟
إننا — لذلك — نخالف ابن عمر في فهمه . ونحسب أن الخلافة صُرفت عن
آل البيت لحكمة أخرى .

إن الزعامة أولا ليست مما تنقله الوراثة ، وكَم من سلالات باعدت بينها وبين
الأصل فروق ضخمة في الخصائص والمواهب .

وربما ظهر في بيوت المسلمين العامة من بعد أرحب ذكاء وأوسع باعا وأصدق
إيمانا وإخلاصا من رجال انحدروا من أصلاب أنبياء . . .

وما كان صلاح الأب ضمانا لصلاح ذريته إلى قيام الساعة .
ومع هذا فقد يظهر في أولاد العطاء من يحاكون نبوغهم ويجددون في
الحياة امتيازهم .

والرجال الذين يضمون إلى كفايتهم الخاصة عراقة الأصل يتمتعون بنفوذ
مضاعف ومكانه مرموقة .

وتلك منح لانتاح لكل أحد .
إن قليلا من الناس يجمع بين الذكاء والجمال ، والغنى والعلم ، والقوة
والحلم ، والدين والدنيا .

وقد كان الحسين بن عليٍّ سيدا ابن سيد ، ورجولته — بغض النظر عن نسبه —
تستثير الإعجاب .

وقد فشل في إسقاط يزيد ، وأخذ السلطة منه ، وكأن الأقدار صنعت خيرا له
ولأهل بيته من حيث لا يحتسب .

نعم ، لأن الحاكـم بشر يخطئ ويصيب ، ومكاته من تملك السلطة وتصريف الأمور توجب على الأمة وضعه تحت رقابة دائمة ، فإذا أخطأ قومته وإذا أعوج أصلحته

وعند ما يكون الحاكـم مبتوت الصلة بنسب مهيب تكون الأمة على تقويمه أجراً ، وعلى الثورة عليه - إذا جار - أسرع وأقطع .
أما إذا أخطأ - وهو يقول : أنا ابن النبي - فإن الخطأ سوف يغتفر له ، بل سوف يتأول له .

وعندئذ يتحول الغلط إلى شرع . . !
وإذا افترضنا أن هذا الخطأ وجد من يُصير على محوه ، فإن تتم إزالته حتى يزول معه جزء من هبة الحاكـم ، وبالتالي من قداسة النسب الذي يمتاز به . وقد يتأذى ذلك إلى غضاضة في النفوس نحو حق الرسول الذي ينتسب إليه . . .
إن ملوك بني أمية لما أخطأوا لعنوا وتنادى المسلمون عليهم من كل جانب حتى أسقطوا دولتهم ، وما كان ذلك يحدث لو تولى الأمر أهل البيت . . .
ولما يعلمه النّهازون والدجالون من محبة المسلمين لتبهم وبيته اصطنعوا أنساباً يمتون بها إليه . وأقاموا حكومات كانت - بسيرتها المخرفة - وبالأعلى الإسلام وأهله .
وتاريخنا السابق واللاحق يحكى أنباء أسر انتحلت الشرف - والشرف هو النسبة إلى الرسول بالتوالد (!) - وباسم هذا الشرف المكذوب ألحقت بالأمة الإسلامية من الأذى ما تزال تترنخ به حتى الساعة . . .

لقد أصاب ابن عمر في قوله للحسين : والله لا يليها أحد منكم أبداً .
إن الله صرف الحكم بخيره وشره عن آل محمد ليسوءى الناس شئونهم بأنفسهم ، ويحولون مشكلاتهم - مع حكاهم - بأيديهم ، باللطف أو بالعنف ، باللسان أو بالسنان .

وخير لآل محمد أن تسبغ عليهم مشاعر العطف هم مظلومون من أن تتبعهم مشاعر الحقد ، وهم حكام جبارون . . .

بيد أن حسيناً حاجته رسائل أهل العراق وهم يستقدمونه ليجعلوا الأمر له ، إنه أهل للسيادة بنفسه وبنسبه ، وهامى ذى الجموع تدعوه فكيف يتأخر ؟

ويروى أن ابن عباس جاء ناصحاً ، قال : يا ابن عم ، إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبين لي ما أنت صانع .

فقال : إني أجمعت المسير في أحد يومى هذين إن شاء الله .

فقال له عبد الله : أخبرني إن كانوا قد دعوك بعد ماقتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم .

وإن كان أميرهم حياً ، وهو مقيم عليهم قاهر لهم . وعمله تجبى بلادهم ، فإنما دعوك للفتنة والقتال . ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس — بحكم مافى أيديهم من سلطة — فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك .

فقال الحسين : إني أستخير الله وأنظر ما يكون .

ورجع عبد الله وهو متوجس من مسلك الحسين ، ثم غلبته محبته له فعاد إليه يكرر نصحه .

فقال له الحسين : يا ابن عم ، والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق . ولكنى قد أزمعت المسير .

فقال له : إن كنت لابد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك . فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان . ونساؤه وولده ينظرون إليه .

ثم قال عبد الله : والله الذى لا إله إلا هو لو أعلم أنى إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علىّ وعليك الناس أطعنى وأقت لفعلت ذلك . . .

ويروى المؤرخون أن عبد الله بن الزبير شجع حسيناً على الخروج وزين له الثورة على يزيد ، وملاً فؤاده ثقةً بأنصاره فى العراق وكثرتهم .

ويزعم أولئك المؤرخون أن عبد الله كان غاشاقى هذه النصيحة وأنه إنما رغب فى أن يخلو له الجو فى الحجاز حتى تنمقده لإمارته وحده .

وهو يوقن بأن الحسين سيهلك فى هذه الرحلة المشثوة .

وهذا كلام مستبعد ، فعبد الله بن الزبير أتقى الله وأعرق في الإسلام من أن يقترب هذه الدنيا .

والحق أن هؤلاء الصحابة كرهوا ولاية يزيد أول ماجاء ، وتربصوا به الدوائر . إلا أنهم لم يرمسوا خطة بينة في إنقاذ الأمة من بدعته وحمايتها حاضراً ومستقبلاً من جريرته .

وطبيعي أن ينظر كل منهم إلى يزيد نظرة امرئ دخيل على الخلافة ، وأن يتمنى لو كان في مكانه هذا من هو أفضل منه .

وعبد الله بن الزبير لا يرى بأساً في أن يتقدم الحسين لاسترداد الخلافة من يزيد . فهو - في نظره - مؤيد بشيعة تعينه على بلوغ غايته .

نعم إن خطة الحسين كانت مجازفة ، لا أثر فيها لحسن السياسة . غير أن ابن الزبير - وإن كان أدهى من الحسين - لم يرزق طول الباع في سياسة الأمور ، سواء كان حاكماً أم معارضاً . .

تلمس هذا في سلوكه مع قائد جيوش يزيد عندما وردت أخبار وفاته . . فقد رأى هذا القائد أن يفتح عبد الله بن الزبير في التعاون معه والبيعة له ، فأبى عبد الله أن يسمع منه !! ولو أصفى لدانت الشام له . . .

وخلا الجولابن الزبير - بعد - ودخلت أغلب أقطار الإسلام في حوزته . ومع ذلك فإن طريقته في تصريف الأمور جعلت الدولة تذهب منه .

فما زال سلطانه ينسكش ، حتى قتله الحجاج وصلبه في عاصمة ملكه المدير . . . فعبد الله لم يغش الحسين حين زين له الذهاب إلى مصرعه بالعراق .

وإنما كان يصدر عن طبيعته في فهم الأحوال العامة وأسلوب معالجتها . ونحن نؤكد أن عدم التقاء الصحابة الأكفاء على زعامة موحدة ومنهاج مشترك ، يتعاونون جميعاً على تحقيقه وجمع الجماهير عليه . . هو الذي أتاح للملك الأموي فرصاً أطول للبقاء والرسوخ .

لم يستجب الحسين لنداء المشفقين على مصيره ، وخرج مع أسرته شطر العراق ،
ليلقى أنصاره الذين ينتظرونه بالأشواق . . . ! !

ويقول الحسين — مسلماً نفسه مما قد يجد من روع — لَأَن أَقْتَلُ فِي مَكَانٍ كَذَا
وَكَذَا ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتَلَ بِمَكَّةَ . .

هل كان الحسين يخشى على حياته وهو يقيم في الحرم ، مسالماً للحكومة الغالبة ؟
من الرواة من يقول ذلك . فمن عوانة بن الحُكم أن الحسين قال لعبد الله بن الزبير :
والله لَأَن أَقْتَلَ خَارِجاً مِنَ الْحَرَمِ بِشَرِّ أَحَبِّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتَلَ فِيهِ . وإيم الله لو كنت
في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم . والله ليعتدُنَّ
عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت . . . ! !

إن الملوك لا يستكثرون عليها شيء في سبيل تدعيم سلطانها .
ولعل الحسين أحس الغدر من قوم أبغضوه أشد البغض ، ولهم مع أبيه وشيعته
صحائف قانية .

ولأن يموت وهو يبذل جهداً ما في حرب باطلهم أحب لديه من أن يقع
في أيديهم غنيمة باردة .

وهكذا اقتنع الحسين بضرورة الخروج إلى العراق ، وليقع له ما يقع .
روى عنه أنه قال : رأيت رؤيا ، فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمرت
بأمر أنا ماض فيه . فلما سئل عن الرؤيا قال : ما أنا بمحدث عنها حتى ألقى ربي . . .
ولقى الحسين في طريقه الفرزدق الشاعر المشهور ، فسأله عن أمر الناس وما وراءه
فأجاب الفرزدق : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية .

ولكن الحسين مضى لا يلوى على شيء حتى اقترب من الكوفة .
إن الطريق مقفرة ! أين الوفود التي يرجو أن تستقبله ؟ .
أين أصحاب الرسائل الذين كتبوها ألوفاً ألوفاً ؟ .
أين حملة السلاح الذين انتفضوا على الملك العضوض ؟ .
بل أين الحماة الذين يؤنسون الراكب المستوحش ؟ .

لا شيء من ذلك ! لقد جاء بدلهم رجال الشرطة يبعثون اعتقال الثائر الفريد . . .

وانطلقت حماسة الحسين بعد ما شاهد قبح الغدر به ، فقال لقائد الجند الذين أرسلوا لأخذه ومن معه : اختر مني إحدى ثلاث خصال :

إما أن تتركني أرجع كما جئت .

فإن أبيت هذه فسيرني إلى يزيد فأضع يدي في يده فيحكم فيّ ما رأى .

فإن أبيت هذه فسيرني إلى الترك فأقاتلهم حتى أموت ! . فكان تعليق عبد الله ابن زياد على هذا العرض : الآن إذ علقت مغالبنا به يرجو الخلاص ؟ ولات حين مناص ! وأبى عليه واحدة من الثلاث .

والحق أن الحسين كان عادلا عاقلا فيما رجاه وأن بطر القوة المنفردة بالحكم هو الذي أملى برفض الطلب ، الذي يصون هيبة الحاكم ويحفظ كرامة رجل كالْحُسَيْن له مكانته التي لا شك فيها .

وبديهي أن يتأبى الحسين على ذل الإِسَار ، وأن يستعد للنضال عن شرفه ، وأن يبوء عشيرته مقاعد للقتال ، حتى يحكم الله بين الفريقين .

روى أن الحسين حين مضى بأصحابه جلسوا يستريحون قليلا ، نفق الحسين خفقة ، اتبته على أثرها فزعا ، وهو يسترجع ويحمد الله .

فسأله ابنه الأكبر : جملت فداك ! رم استرجعت وحمدت ؟ .

قال الحسين رأيت فارساً على فرس يقول : القوم يسيرون والمنايا تسرى إليهم . فعلمت - يا بني - أنها نفوسنا نعت إلينا .

فقال ابنه : يا أبت لا أراك الله سوءاً ، ألسفا على الحق ؟ قال : نعم . والذي إليه مرجع العباد .

فقال الغلام : إذا لا نبالي أن نموت مُحَقِّقِينَ .

ودار القتال واستمات الحسين وصحبه في الدفاع عن أنفسهم حتى كاد جند ابن زياد يفشلون في النيل منهم على كثرتهم .

لكن ما تجدى الشجاعة والفروسية أمام هذه الأضعاف المضاعفة ؟ .

أخذ فرسان أهل البيت يتساقطون بطلا بعد بطل .

ولبت الحسين ينافح وحده في معركة ، لا أمل بها .

قال عبد الله بن عمار — وهو ممن حاربوا الحسين — حملت عليه بالرمح فأنهت
إليه لأقتله ، ثم قلت : ما أصنع بقتله ، ليقته غيري . فأنصرفت غير بعيد فقاتله رجال
عن يمينه وشماله فحمل عليهم الحسين بقوة حتى تفرقوا — وعليه قميص من خبز ممتم —
فوالله ما رأيت مكسوراً قط — مات ولده وأهل بيته وأصحابه — أربط جاشاً
ولا أمضى جناناً ولا أجراً مقدماً منه .

ولقد وجدوا ييدنه بعد استشهاده ثلاثاً وثلاثين طعنة ، وأربعاً وثلاثين ضربة
كلها فيما أقبل من وجهه وجسمه .

ويروى أن الحسين قال وهو يخوض هذه المعركة ، أو هذه المجزرة .

سأمضى ، وما بالموت عار على الفتى ! إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلماً !

وآسى الرجال الصالحين بنفسه . . . وخالف مثبوراً وفارق مجرماً !

فإن عشت لم أندم ! وإن مت لم ألم ! كفى بك ذلاً أن تعيش وترغماً !!!

وبهذا الختام الحالك انتهت مأساة كربلاء .

قتل الذكور كلهم إلا طفلاً ، وأخذ سائر النسوة أسرى .

ومشى أهل البيت إلى يزيد يجرّون قيود الهزيمة والشكل .

وللألم فترات يتبدّل فيها إحساسها ، فتطيف الأخبار الهائلة بها وهي حالة

ساهرة ، بين روعة المفاجأة ، واستكانة المعجز ، وخزى الفشل .

وقد سرى موت الحسين في أرجاء العراق ، وبدأت أصداءه السكينة ، تتردد في

الآفاق ودويّه المزعج يطن في كل فج .

وبين وطأة القوة المتحصرة وتربص الجاهير المحنّقة جعل هذا المصارع المؤسف

يعمل عمله السريع والبطيء في نفوس المسلمين .

فكان مثار فتن وقلاقل بقيت تهز كيان الأمة الكبيرة أجيالاً متطاولة . . .

والمؤرخ للعقائد وعملها الحاسم في توجيه الحياة ، يجب أن ينبه إلى أمور :

منها أن كل جهد في محاربة الباطل لا يذهب سدى ، وأن التضحيات المبذولة

— وإن بعدت نتائجها — تعمل عملها المتمهل أو المتقطع في القضاء على الطغیان ،

وأن صدق النية قلما يضيع أثره عند الله ، أو عند الناس .

والجبناء في حرب المنكر يتعلّلون لقمودهم بأعذار شتى .

منها أنهم قد يهلكون دون جدوى ، وبظل المنكر قائماً لا صدع به .
وهذا خطأ . فإن الانتقال المتجدد عليه يقرب مصيره ، إن لم يجعل به . .
وقد مات الحسين ، وظل ملك أمية بعده حيناً
إلا أن دمه المسفوك هو الذى قوض الحكم الأموى وألب عليه ، فما زالت
تناوشه حتى انهار . .

والعاطفة النبيلة ضد الظلم لا تنفى ألبتة عن رأى الحصيف والتدبير الحسن .
وعندى أن قول الشاعر :
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكَّب عن ذكر العواقب جانباً
لا يناقضه قول الآخر :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول ، وهى المحل الثانى
وذلك أن هناك فروضاً يعتدُّ بها الفكر المجرد ، فلا معدى عن حسابها .
وهناك فروض يُظهرها الخوف على العمر ، والحرص على المال فلا بد من تنجيتها
فالشجاعة لا تعنى الحق وإطراح الرأى وتقليب وجوهه .
والمقل لا يعنى تجسيم الأوهام ، والتشبث بأذيال الحياة على أى لون .
وقد عاش الحسين شجاعاً ومات شجاعاً .
وربما تسرَّب الخطأ إلى خطته فى المقاومة ، على أن الملابس التى اكتتفتها قد
تخفف من لومه ، والخطايا التى ارتكبتها الحكومة فى قمع تبرر سوء الظن بها إلى
حد بعيد . .

والحسين السيد لا يتوقع منه إلا أن يكون — إلى الرمح الأخير — بطلاً على الهامة .
إن أصحاب العقائد عندما يحاط بهم يشبهون النار عندما تنفخ فيها الرياح .
تتحفز مشاعرهم كلها ويجهلون الأخطار بئس شديد .
وقد قتل قبله بشهور ، مسلم بن عقيل ، فكان فى دفاعه وتصبره وجلده مثلاً
للرجولة المبرِّاة المساجدة .
أحاط سبعون من شرطة ابن زياد بالدار التى لجأ إليها ، فلم يشعر مسلم إلا
والقوم حوله .

فلما دخلوا عليه قام إلى السيف فأخرجهم من الدار ثلاث مرات .
وأصابت شفته العليا والسفلى . ثم جعلوا يرمونه بالحجارة ، ويلهبون النار
في أطناب القصب ، فضاق بهم ذرعا ، فخرج بسيفه يقاتلهم . فأعطاه رجال الشرطة
الأمان ، فأمكنهم من يده ، وجاءوا ببغلة فأركبوه عليها ، وسلبوا عنه سيفه فلم يبق
يملك لنفسه شيئا .

فبكي عند ذلك وعرف أنه مقتول .
فقال بعض من حوله : إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكي إذا نزل به هذا .
فقال : أما والله لست أبكي على نفسى . ولكنى أبكي على الحسين وآل الحسين
إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة .
وأوصى مسلم من بعث إلى الحسين باسمه يأمره بالرجوع بعد فوات الوقت .
كان مسلم يريد تنبيه ابن عمه ألا يثق بصدق أنصاره فى العراق ، فهم خاذلوه
حما كما تركوه هو ، يقتله ابن زياد .
ولكن القدر غلب . فتبع مصرع هذا مصرع ذاك .

وفىما نطالع من أنباء المكافين والأبطال نرى الرجال لا تخونهم شمائلهم فى اللحظة
الآخيرة ، بل تكون خصائصهم الكامنة فى أوج تألقها .
ولقد غاظنى — وأنا أتبع محاكمة الإخوان — أن أجد نفرا من قادتهم لا يستطيع
أن يتماسك لما أصابه من ذعر . . .
ولم يعزنى عن هذا الشعور إلا أن هؤلاء سرقوا مناصب القيادة من ذويها ،
وما كان هؤلاء الذين احتلوا الصف الأول ، أهلا للبقاء فيه لحظة .
فلما ضاعت الأمانة افتضح أهل الإيمان . . .

العلم يدعو للإيمان

إلى متى يظل الإنسان منطلقاً في هذه الحياة كالتذيفة الطائشة ، لا يدري كيف يسير ، ولا إلى أين المصير ؟

وإلى متى يبقى مندفعاً بقواه المذخورة وأهوائه المحصورة حتى إذا نفدت قوته وبطلت حركته سقط حيث طاشت به مطارح الدنيا « فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ يَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » ؟ . . .

عجبت لقوم ينكرون الله ، ويحجدون مبتداهم منه ومنتهاهم إليه .
وأعجب من ذلك أن يتوسلوا إلى إلحادهم بالعلم ! ! العلم الذي هو نهج الإيمان الحق ، ودليل الوجود الأعلى !!

فإذا ذهبت تتعرف شبههم وجدت إما قصورا في العلم يلحق صاحبه بالجهال ، وإما غرورا بأدنى الحظوظ منه .

والغرور بالقليل يرسل أحكامه مبتسرة مضللة ، لا وزن لها ولا معول عليها . .
وفي بلادنا صنف من الناس ليس له زاد من المعرفة ، إلا قراءات على هامش الأسفار الضخام التي كتبها العلماء الراسخون .

قابلت أحدهم من سنين وما زلت أذكر الحوار العنيف الذي دار بيني وبينه !
كان هذا المغفل يجادلني في وجود الله ، ويسوق كلمات حفظها من نظرية النشوء والارتقاء ، ويريد ليوهمني أن خلق إنسان سوى الشاعر نابض الأجهزة لمآح الذكاء أضحي عملاً في مقدور العلم ! وأن معامل الكيمياء توشك أن تفاجئنا بهذا الإختراع !!

فلما تحسست حصيلة هذا الجادل من علوم الكون والحياة وجدتها قشورا يسيرة ، فاستغربت أن رجلاً بضاعته حروف المهجاء في فن من الفنون يصطنع فيه درجة الإمامة التي تمحو وتثبت .

وفي ماذا ؟ في حقيقة الوجود الأعلى .

فاكتفيت بأن أكشف لهذا المغرور جهالته ، ثم تركته ، وعلى لساني قول الشاعر :

نجّا بك عرضك منجى الذبا ب ، حتمه مقاذيره أن يُنالا !
وتذكرت قول الله تبارك وتعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانی عطفه لبُضِلَ عن سبيل الله ، له في الدنيا خزيٌ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » .

من الخرافات الشائعة ، أن كثيراً من عطاء التاريخ لا أخلاق لهم ، وأن كثيراً من علماء الكون لا إيمان لهم !

وأحسب أن ترويح هذه الخرافة بعض ما تلجأ إليه الشياطين في محاربة الإيمان والأخلاق ، حتى تنشأ الأجيال الغضة وهي تحسب التحلل والتمرد أخصر الطرق إلى العبقرية والسمو . . .

والحق أن عرا الأخلاق هي التي صنعت ألوف الرجال ، وأن الإيمان بالله حقيقة مقررة لدى جمهور العلماء الراسخين .

نعم قد تكون لدى هؤلاء العلماء ريب في أغلب الديانات المشهورة أو فيها كلها . بيد أن العيب لا يرجع إلى أولئك العلماء الماديين قدر ما يرجع إلى أصحاب الأديان الذين شوهوا رسالات الله ، إما بتحريف الكلم عن مواضعه ، وإما بالأعمال الشائنة التي تضع من أقدار المتدينين ، وما يحملونه من دين .

والقرآن الكريم لم يصم بالكفر إلا قوما تكشف لهم الحق فجدوه ، وعرض عليهم الدين كاملاً فأزروا به وانتقصوه « إِنَّ الدِّينَ ارْتَدَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » .

« وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ . . . »

أقول ذلك بعد ما انتهيت من مطالعة كتاب « العلم يدعو للإيمان » للعلامة الجليل « كريسي موريسون » .

وموضوع الكتاب يفهم من عنوانه ، إنه تعريف بالخلائق يقودك إلى خالقها وشرح للكون ينتهي بك إلى باريه . . .

وهل للإيمان الذكي العميق نبع يحيش به إلا من هذه الطالعة الدارسة
للحياة والأحياء ؟

ولأمر ما ، قال الله عز وجل : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات
والأرض وليكون من الموقنين » .

إن الإيمان لا ينمو في قلب ويتخلل شعابه وينمر رحابه إلا بمدى ما يمي المرء من
آيات الله في ملكوته .

ومسلك المؤلف العالم في كتابه هذا ، يقوم على عرض الحقائق المتيقنة عرضاً ، لا أثر
فيه للأوهام والفروض ، ولا مكان فيه للمغيبات والنصوص .

إنه يحترم قوانين المنطق الحديث والفلسفة الحرة ويستهدى إلى غاياته طرقاً
لا يختلف على صحتها المؤمنون بما وراء المادة والجاحدون لها .

ولقد تابعت به بقلبي كما تتبع العين الأشعة الكاشفة ، وهي تنتقل من أقصى الأفق
إلى أقصى الأفق .

إن ثروة هذا الرجل في المعارف الكونية طائلة هائلة وإنك لتعجب أهو
إخصائي في الفلك أم في التشریح أم في الكيمياء أم في غيرها ؟

ولا غرو فهو رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك « تخديته عن العالم الكبير الذي
نعيش فيه ، وعن القوانين الضابطة لسيره ، وعن الأسرار الكامنة في فنونه وحواشيه
حديث الخبير الراسخ المتأنق في سرده واحتجاجه . . . !

والكتاب كله تفصيل مطرد متسق ، لما أسماه علماء التوحيد عندنا « بدليل الإبداع »
وأساس هذا الدليل على وجود الله لفت النظر إلى مافي الكون من دقة وحكمة .
هل رأيت شريط السكة الحديد الممتد من القاهرة إلى الإسكندرية مثلاً ؟ إنه
يربو على مائتي ميل .

والمسافة بين الخططين المتوازيين الممهدين لانطلاق عجلات القطار فوقهما
لا تزيد ولا تنقص .

ألا يدل ثبات هذا العرض على إعداد مقصود لسير القطار فوقه .

ألا تدل طريقة المد والتسكين على أن القطار المنساب سيجرى بسرعة معينة ؟
ويحمل أثقالاً كثيرة ؟

هل إذا رأيت أذرعة القاطرة تغمز العجلات بعدما حركتها سلسلة مضبوطة منسقة من الآلات والأجهزة ، فإذا بالقطار يتحرك وينهب الأرض نهبا .

أنحسب أن هذه الأجهزة المترابكة والآلات المتناسقة قد أخذت أوضاعها العتيقة من غير فكرة صاحبها وغرض تنتهى به ؟

هذا مستحيل !

على هذا النحو أخذ الباحث الضليع يسوق آلاف الأمثلة من حقائق الأرض والسماء ، فإذا بك أمام حشود لا آخر لها من براهين الوجود الأعلى اسمع إليه يقول : « قد رأينا أن العالم فى مكانه الصحيح ، وأن قشرة الأرض مرتبة إلى مدى عشرة أقدام ، وأن المحيط لو كان أعمق مما هو بضعة أقدام لما كان لدينا « أوكسوجين » ولا نبات ! وقد رأينا الأرض تدور كل أربع وعشرين ساعة ، وأن هذا الدوران لو تأخر لما أمكن وجود الحياة ، ولو زادت سرعة الأرض حول الشمس أو نقصت لتغير تاريخ الحياة إن وجدت تغيرا تاما ، وقد رأينا هذه الشمس هى الوحيدة بين الآف التى جعلت حياتنا على الأرض ممكنة وأن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها يجب أن تكون صحيحة كلها على ما وجدناها ، وهى صحيحة فعلا ورأينا أن الغازات التى بالهواء منظم بعضها إلى البعض بنسب دقيقة . وأن أقل تغيير فيها يكون قتلًا . . الخ » ماذا يعنى ذلك كله ؟ ألا يردك إلى الله ويعلمك به ؟

ومع ذلك فيوجد من الناس من يقول لك : إن الساعة التى فى معصمك قد استدارت تروسها وتشابكت آلاتها وانضبطت دقاتها وتحرك عقرب الدقائق بعد ما تحرك عقرب الثوانى وتحرك عقرب الساعات بعد ما تحرك عقرب الدقائق ، كل ذلك بمحض الصدقة !

فهذا الحساب المحصى للزمن لم تشرف على تسجيله وإحكام مراصده ففكرة وافية ولا يد صناع ! !

كذلك يقول بعض المتعالمين عن السموات والأرضين وما بينهما وقد تحدث هذا العالم الحصيف عن الصدفة وما ينسبها لها الواهمون من تنظيم واقتدار فقال : « إن

الصدقة تبدو شاردة غير منتظرة وغير خاضعة لأية طريقة من طرق الحساب .
ولكن إذا كنا ندهش لمفاجأتها فإنها — مع ذلك — خاضعة لقانون صارم نافذ .
لنفرص أن معك كيسا يحوى مائة قطعة رخام ، تسع وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء .

والآن هز الكيس وخذ منه واحدة .
إن فرصة سحب القطعة البيضاء هي بنسبة واحد إلى مائة .
والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس وابدأ من جديد .
إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة وإن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (المائة بعد ماضوغت مائة مرة) !!

ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية !!
إن نتائج المصادفة مقيدة بقانون صارم تقييدا وثيقا كما أن اثنين واثنين يساويان أربعة .

ويقول في مكان آخر : وإذا نظرنا إلى حجم الكرة الأرضية ومكانها في الفضاء وبراعة التنظيمات التي تمسكها فإن فرصة حصول بعض هذه التنظيمات مصادفة هي بنسبة واحد إلى مليون . وفرصة حدوثها كلها معا مما لا يمكن حسابها حتى بالبلايين .

ونقول : بل لا يمكن افتراضها إلا في تصور المستحيلات ، فإن العقل الذى يمنع أن تبني المصادقات داراً من بضع حجرات يجزم أكد الجزم بأن هذا العالم الكبير — بأفلاكه وآماده وحيوانه وجماده وأنسه وجنه — يستحيل أن تنشئه صدفة عارضة .

ثم هل نحسب أن مثونة إبقائه وحياطته أيسر من إيجاده لأول مرة ؟
إن كلا الأمرين ليس له إلا الله « الله خالق كل شيء » . وهو على كل شيء وكيل .
له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون .

رجال عز أشباههم

إن الرجال الذين تصلح بهم الحياة ويطيب معهم العيش ليسوا نماذج معتادة من هذا الغناء الكثير الذى تراه العين ولا تجد فيه طائلا .

بل هم نماذج فريدة للفضائل الجليلة والأخلاق النبيلة والمواهب التى قلما تلقى نظائرها لأنها كالمعادن النفيسة لا توجد إلا على ندرة .

وحاجة العالم إلى أولئك الرجال كحاجة العقل إلى المعرفة التى يتألق بها . وحاجة الجسم إلى الطاقة التى يتحرك بها . .

بل إن وجود أولئك الرجال بعض الخير الذى يثبه الله فى الحياة ليعيد إليها توازنها إذا اختل .

وبعض الأمان الذى يسكن به النفوس القلقة ، ويرجع إليها ثقتها بالحق والكمال إذا هالها ازدحام الدنيا بالأوغاد والمبطلين .

ألا تنحنى احتراماً للإيثار العالى وأنت تسمع أحمد بن حنبل يقول : اللهم إن قبلى عن عصاة أمة محمد فداء فاجعلنى فداء لهم . . .

إن النعم الذى يرين على فؤادك من الأثرة الطافحة الناشئة هنا وهناك ينكشف كله أمام الشعاع الطهور الوضئ الذى يبرق فى هذه الكلمة الرائعة .

وانظر إلى طبيعة الخير المتغلغلة فى أعماق هذا الإمام وهو يدعو فى سجوده : اللهم من كان من هذه الأمة على غير الحق - وهو يظن أنه على الحق - فرده إلى الحق ليكون من أهل الحق .

دع هذه القمة الشماء ، وتقل بصرك فى قوم إذا رأوا الحق معك كرهوك من أجله ، أو كرهوه من أجلك .

فإذا حملوا عليه حملا أو نقل إليهم نقلا ، حولوه إلى تجارة خاصة ، ثم حاولوا احتكار الصنف ، لينفردوا بمفاته

كأن الإيمان سلعة تباع فى سوق الجشع والمنفعة ، وليس جهادا ترجح مفارمه بكل ما ينشده الانتهازيون من مال وجاه . .

إن النهضات الإنسانية البحتة لا تبلغ تمامها إذا أشرَف عليها صغار القلوب
وعبيد أنفسهم .

فإن الله قدر — في نظام هذا الكون — إن العظام كفوها العظماء ، وأن من
طلب عظيماً خاطر بعظميته .

فإن بك هذا في ميدان العمل للدنيا أمراً لازماً فهو في ميدان العمل للدين ألزم
وأحكم ! . . .

كنت أحسب أحمد بن حنبل رجلاً يغلب على تقواه التزمّت ، وعلى مذهبه في
الفقه القسوة والصرامة .

ولعل لفيفاً كبيراً من العامة والخاصة يحسبون الرجل كذلك ، وهذا وهم
بجانب الصواب .

وأروع ما قرأته وأكبرته وأغراني بالتعرف عليه موقفه الكريم يوم طلب منه
— بالسب والضرب — أن يشارك في بدع المتكلمين وأن يقول بخلق القرآن . .

قال أحمد : وجيء بالضرايين ومعهما السياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول
له المعتصم : شد قطع الله يديك . ويجيء الآخر فيضربني سوطين ، ثم الآخر
كذلك . فضربوني أسواطاً حتى أغمى على وذهب عقلي مراراً .

فإذا سكن الضرب يعود إلى عقلي .

وقام المعتصم يدعوني إلى قولهم فلم أجبه !

ورجال حاشيته يصيحون : ويحك . الخليفة على رأسك ، فلم أقبل . . وأعادوا
الضرب ثم عاد إليّ فلم أجبه . . فأعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس به .

وأرعبه ذلك من أمرى فأطلق سراحى ، ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من البيت
وقد أطبقت الأقياد من رجلى . .

قال ابن كثير وجاء الأطباء إلى الإمام المذب فقطعوا لحماً ميتاً من جسده ،
وجعلوا بدأونه حتى عاد إليه روحه الذي كاد يزهى ، فلما شفاه الله بقى مدة
وبهاماه يؤذيها البرد . .

أتدري ما كان موقفه بعد ؟

جعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدع ! وكان يتلو قوله عز وجل « وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم » .

يقول : ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك وقد قال الله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

وينادي المنادي يوم القيامة : ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا . . .
ولست أسوق هذا الكلام في معرض المهادنة للاستبداد السياسى كما قد يسبق إلى أذهان الجهلة ، فإنى منذ أمسكت بالقلم لم أترث في مهاجمة الجبابة والإعانة عليهم بالتافه والجليل .

وكم أعيانى تدريس الحريات الاقتصادية والسياسية لجاهير من المتدينين ما كانت تعقل في الإسلام شيئاً منها .

وإنما أسوق كلام ابن حنبل ليعرف الناس أن الرجولة لا تحقد .

وأن الأتقياء فوق الأهواء .

وأن رغبتهم في انتشار الخير وثبوت الحق أسبق في أفئدتهم من رغبة التشقى وسورة الانتقام لأشخاصهم .

وعلى ضوء هذه الحكمة الرقيقة الندية للإمام أحمد « ماذا ينفعك إن أيعذب أخوك المسلم بسببك » تعرف أقدار قوم لا يرون بناء حياتهم إلا على أنقاض الآخرين ، ومن هم أولئك الآخرون ؟ إنهم ليسوا خصوماً يطلبون عفواً لإنهم البناءون الأولون والمعلمون المجحودون .

لقد عرفت من عاطفة السباحة التى أودعها الله قلب ابن حنبل سرّاً من أسرار الاصطفاء الإلهى للإمامة فى الدين والإمامة فى الدنيا . .

والذين يتعشقون خلال الرجولة أين كانت يرون أن الإمام أحمد كان يسير على سننها العتيد ، الذى أوضح الشاعر معالمة بقوله :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى وبين بنى عمى لمختلف جداً

فإن أكلوا لحى وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيبى هويت لهم رشداً

وإن زجروا طيراً بنفحس تمرٌ بي زجرت لهم طيراً تمرٌ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
إن النهضات المجوسية يوم ترزق رجالاً ذوى قلوب كبيرة تسير وتصنع العجائب .
واليقظات الإسلامية يوم يتصدرها رجال لا يفقهون منطق ابن حنبل في قوانين
السلوك تسكبو وتتعتز .

وإني أتصفح تاريخ ديننا يوم هجوم (المغول) على أرضه فأجد عجباً من صنع
أهله بأنفسهم ، وصنع أعدائه لأمتهم وعشائرهم .

أنتسمع عن (جنكيز خان) قائد المغول ؟ إنك للوهلة الأولى تحسب أن زعيم
أولئك الهمج كان وحشاً شرساً لا تعرف الرقة سبيلاً إلى قلبه .
خاض إلى بلاد الإسلام بحراً من الدم السفوك ظمأ وعدواناً . .

لا ، إن الأمر يتجاوز هذه الظنون إلى حقائق ينبغي أن نعيها وعياً جيداً . .
هب أن (هتلر) ساق جيوش (ألمانيا) على الملك « عبد الله » وشعب « الأردن »
أو « اليمن » أنحسب أن مثل هذه الحرب تصوير دقيق للصراع بين الإسلام يقوده
واحد من نسل النبوة ، وبين الصليبية الغربية يقودها زعيم أناى متطلع . . ؟

كم يكون حظ الإسلام كايا في هذه المبارزة ، وكم يكون ميراث
نبيه مبخوساً ؟

قال ابن كثير متحدثاً عن (جنكيز خان) وشمائله : قدم له بعض الفلاحين
ثلاث بطيخات — وهو يصطاد — فاتفق أن لم يكن عنده أحد من الخزنة ،
ليعطوه الثمن ، فقال لزوجته أعطيه هذين القرطين اللذين فى أذنك . وكان فيهما
جوهرتان نفستان جدا ، فشحت المرأة بهما وقالت : أنظره إلى غد . . ! فقال لها
جنكيز خان : أنه يبيت هذه الليلة مقلقل الخاطر . . وإن هذين لا يمكن أحد إذا
اشترهما إلا جاء بهما إليك — فأنزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح . .

قد تقول : فما بال هذا الذى عز عليه مبيت فلاح ليلة قلق الخاطر يشن على
المسلمين الأمنين هذه الحروب المهلكة ؟

وندع الجواب لابن كثير يقول فيه : كانت البداءة بالشر من خوارزم شاه ،
الملك المسلم (١) .

فإن تجارا من رعية جنكيز خان انتهوا إلى إيران ومعهم بضائع كثيرة فقتلوا وسلب ما معهم .

وبلغ النبأ جنكيز خان المشرك (!) فأرسل إلى خوارزم شاه يستعلمه : هل وقع هذا الأمر عن رضا منه ؟ أو أنه لا يعلم به فأنكره ؟ وقال له فيما أرسل به إليه : من المهود لدى الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون التحف والنفائس ، ثم إن هؤلاء التجار — الذين أصيبوا — كانوا على دينك فقتلهم نائبك . فإن كان أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم ، وإلا فاستنكره واقتص من نائبك . .

فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان لم ير جواباً سوى أن يأمر بضرب عنقه (!)

قال ابن كثير : فأساء التدبير ، وقد كان خرق وكبرت سنه ، فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهز لقتاله واحتلال بلاده . فكان — بقدر الله تعالى — ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع .

إذا كان الإسلام في ميدان الحكم والسياسة يقوده أولئك الملوك السفهاء فهل يقودونه إلا إلى البوار ؟

وإذا كان الإشراف يقوده أولئك الملوك العقلاء فهل يقودونه إلا إلى السيادة ؟ وقل مثل ذلك في ميدان الدعاية والإرشاد والتربية والإعداد ، أفتحسب أن أصحاب الأفتدة الصغيرة والأهواء الكبيرة يحبون فضلاً أو يحسنون صنعا . .

إننا أمام أزمة الرجولة التي نمانها ، لا نطمع في رجال من أمثال ابن حنبل يعفون عن ظلمهم ، ولكننا نريد نخسب رجالاً ، لا يتلمسون للأبرياء العيوب ، رجالاً لا ينجحون من أن يصفوا المؤمنين بالنفاق ويقولوا فيهم : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً . . . » (١) .

اللهم إليك المشتكى ، وبك الحول ، وأنت المستعان .

(١) رمانا بها خطيب في المركز العام ليسكت صيحات المطالبين بعودتنا إلى صفوف الجماعة ، هذا والسكامة كلها — كما رأيت — عتب وتعليم .

بين الغيبة والنقد

إذا نصحت المسيء وأنت فرح لما فرط من إساءته ، وتربصت به العقاب ، وأنت شامت لما أصابه من جريرته . . فأنت امرؤ لا تقوم لله ولا تقنم حدوده . وكلامك في وعظه - وإن كان حقاً - إلا أنه كجهاد المنافقين .

وطلبك للجزاء - وإن كان عدلاً - إلا أنه إشباع للشهوة لا إقامة للدين !! . إن النية الصالحة روح كل عمل ، وبها ترسو الموازين كالجبال ، أو تخف كالهباء . وصدق رسول الله إذ يقول : « إنما الأعمال بالنية » .

المؤمن الصادق رجل يعشق الخير ويهوى وقوعه ويحب أصحابه . . جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل : « ما علامة الله فيمن يريده وما علامته فيمن لا يريده؟ » فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « كيف أصبحت؟ » . قال : أصبحت أحب الخير وأهله ، وإن قدرت عليه بادرت إليه . . وإن فاتني حزنتم عليه وحزنت إليه قال : « فتلك علامة الله فيمن يريده » هذه النفس التي تحب الخير عن نقاء وطهر ، تكره الآثام بداهة وتنكش من ذوبها .

فإذا رأيت جرماً استنكرته . وإذا كانت بيننا وبين صاحبه جفوة قديمة لم تفرح لمعرتة .

إن العصيان قذارة تلوث وجه الحياة كما تلوث الأقدار وجوه الطرق . ومجرد الفرح بوقوع معصية - أيًا كان مرتكبها - يدل على طبيعة مريضة كنود .

إن المؤمن لا يهجه وقوع سيئة من أحد .

ويوم يحس الرضا في نفسه لجريمة تقع من إنسان عدو أو صديق ، فليثق بأن في إيمانه علة خفية ، ولتسع إلى الاستشفاء منها .

كذلك ليس من الإسلام أن تندفع فاضحاً مشهراً بمن أخطأ . . مظهراً الشامة به . طالباً له النكال به ، وكأنما تدرك ناراً فاتك ، ومكنتك الأيام منه !!

إن المرء قد يهتاج لظلمة تنزل به . وقد يسره أن تقتص الأقدار من البغاة والجبابرة ، ولكن هذا أمر غير ما نحن بصددده .. إنما نعالج هنا نفوسنا تندد بالشر لوقوعه من فلان ، ونخرس عنه لوقوعه من فلان .

وهي تحارب الخطأ بقسوة من الأول . وتتغاضى عنه من الآخر، أى أنها تحارب بعض الناس — باسم الخير — شفاء لضغنها ، وتبسط اللسان فيه لا شتماً شخصياً — كما هو الواقع — بل نقداً دينياً ، وهذه هي الطأمة !! .

إننا تثبت هذه الصور بين يدي بحث مفصل في الغيبة ، ليعرف المسلم الحدود التي تحرم فيها قطعاً ، والحدود التي تنفصل بها عن دائرة المحرم شرعاً .. وسترى أن القصد المصاحب للعمل هو الفيصل المميز بين هذه وتلك . عن أبي هريرة . قيل : يا رسول الله . ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره قيل : « أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ » قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

إن ذكرك أخاك بما يكره جريمة ، ضرب لها القرآن هذا المثل الشنيع : « أُوْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَسَكَّرْهُتْمُوهُ » وذكر النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء المغتابين بما يكشف عن خبيثة الإثم في أفئدتهم فقال : « لما عرج بنى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم . والحق أن تناول الناس بالسوء قد ينال من أقدارهم ، بل ربما يدمر حاضرهم ومستقبلهم .

فكلمة القدح قد تُميت ، كما أن كلمة المدح قد تحيي . . . ! هب أن رجلاً كبير القلب حيّ الضمير ألمَّ بخطيئته مآ . . . إنك تزلزل قدمه في طريق الخير حين تُندد به .

وتمطيه فرصة لتجديد حياته واستعادة ثباته إذا سترت عليه . لذلك يقول رسول الله : « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة » إن الفضيلة الجريح في نفس مؤمن أزاله الشيطان ، تجدد في هذا السر دواء تحيا عليه وتقوى وتنمو .

أما إذا اطلع على سوانها رجل سليط أو خصم حسود فهو يجب أن ينكأ الجراح ولو اندملت حتى يوردها القبور .

وأدب الإسلام - في هذه الحالات - أن ليس كل حق يقال . . فلا تذكر أخاك بخطيئة اقترفها ، لا لأن الإسلام يريد بقايا الخطايا في المجتمع ، فإن هذا ما يستحيل أن يريده دين .

بل لأن هذا أسلوب ناجع في محاربة الإثم ، وتخليص النفوس من أوضاره . . فكم من ستر أعان على متاب ، ومكّن من عصمة .

والناس ليسوا سواء في الإفادة من هذا العلاج إن المدح قد يشجع رجلا على الكمال والإجادة ، وقد يقصم آخر بالغرور والتراخي ! !

والإحسان يستعبد نفوسا ويملكها ، وقد يفسد نفوسا أخرى ويضر بها ، حتى تفتك بمن أحسن إليها . .

والكلمة التي لا يبالي بها عبد قد يُرعد لها أنف الحر .

ومن الناس من ترهبه فيشُمس ويتمرد . . فإذا خففت له جناحك وألّفت له القول ملكك لسانه وقلبه . .

وكثير من الناس إذا طويت معايبهم ونشرت محامدهم أخذت أحسن ما فيهم وسرت بهم إلى الخير . .

وذلك ما ينشده الإسلام حين يحرم الغيبة . وحين يشغل الناس بأنفسهم يصلحونها ويجمعهم يعلون مكانتها وينفون عنها الريبة والفاحشة .

فإذا لم يكن بدٌّ في سبيل الإيمان والإحسان - من ذكر رجل أو قوم بما يكرهون فليذكروا ولو طفحت نفوسهم بالأذى ، مادام تناولهم بما فيهم ذريعة إلى غاية شريفة ومادام هذا التناول محكوما بالحق الذي لا تزيد فيه ولا نقصان :

روى أبو داود تحت عنوان « من ليست له غيبة » جاء أعرابي فأناخ راحلته . ثم عقها ، ثم دخل المسجد فصلى خلف رسول الله ، فلما سلم رسول الله أتى الأعرابي راحلته فأطلقها . ثم ركب ، ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا تشرك في رحمتنا أحدا . . . ! !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتقولون : هو أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا
إلى ما قال ؟ قالوا : بلى . !!

وترجمة أبي داود لهذه القصة بالعنوان الآنف جمعت كثيراً من العلماء يقسم
الغيبة إلى قسمين :

قسم محرم ، وهو ما يقوم على نهش الأعراض وفضح الأخطاء لشهوة رديئة .
وقسم مباح أو واجب ، وهو ذكر الأغلاط لفتنة المجتمع منها . . فالجزم الفار من
القضاء إذا حوكم غيايباً فشرحت جنائبه وكشفت سواته وتكلم فيه بما وقع منه
فهذا . في نظرهم من الغيبة الجائزة .

وقد عني أولئك العلماء عناية بالغة بهذا الموضوع ، وألفت فيه رسائل شتى .
منها ما كتبه الشوكاني « رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة » .
ونظم بعضهم - على عادة القدماء - مواطن الجواز فقال :

القبح ليس بغيبة في سotte متظلم ، ومعرف وعذر
ولظهر فسقا ، ومستفت ، ومن طلب الإعانة في إزالة مفكر
ورأى أن الغيبة المحرمة شئ .

والأمور التي أحصاها الأئمة شئ آخر ليس من قبيلها ، ولا ينبغي أن يجمعها به
عنوان واحد وإن تشابهت الصورة العامة .

ألا ترى أن قتل الغيلة . . وقتل القصاص . وقتل الجهاد ، يلتقي كله في أنه
إزهاق للروح ؟ ومع ذلك فشتان بين قتل وقتل ؟ كذلك الوضع هنا .

إن حرب المظالم ، وتغيير المناكر ، وتحديد الفواصل بين الحق والباطل ، تقتضي
أسلوباً ربما قسا على الأشرار قسوة لا تهتم بأشخاصهم قدر اهتمامها بملاج
ما يقع منهم .

ولا تشبه النيل منهم قدر اهتمامها بإثبات المصلحة ومحو الفسدة .

وهذا المعنى نقيض ما هو ملحوظ في الغيبة من رغبة في الفضح والشتم والنشفي ،
بل من رغبة في بقاء الجريمة يصلح المجتمع نارها ، ويصلح صاحبها عارها
في وقت واحد !!

قالوا : التظلم غيبة مباحة .

وأقول ، إن ذكر الظالمين بآثامهم التي بعثت على الشكوى منهم ليس استثناء شاذاً عن قاعدة ، بل هو أطراد مع قاعدة أخرى وعمل بنصوص لا ريب فيها ، تهدف إلى صيانة الأمة من البنى والعدوان : « لا يحبُّ اللهُ الجهرَ بالسوءِ من القولِ إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً » .

وقالوا : المجاهر بفسقه لا غيبة فيه .

وأقول : بل إن تعريف الغيبة لا يشمل ابتداء ، فإن المرء الذي يفخر بمعصيته ويصبح بكشف ستر الله عنه بعد ما أسبله عليه ، ويقول — ذا كرأ نفسه بمقايحها — : فعلت كذا وكذا .. لا يسوءه أن يذكره الناس بما فيه ، بل قد يستحب ذلك منهم . إلا أن ذكر هذا المجرم على سبيل التسلية والتلهي ليس بإيمان ولا إجمال . فإن الواجب تتبعه بالنقد والصد ، وتناوله بالخصام والملام ، وإن الحملة على مثله دين !

إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وحماية المصلحين حتى يؤدوا رسالتهم ، وكبح المجرمين حتى تنحسر شرورهم ، وإزال الناس منازلهم حتى يوضع كل أمرى موضعه الذي لا يخس فيه ولا شطط . . هذه جميعاً من تعاليم الإسلام الأولى . وعليها تمهدت قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأداء النصيحة وحفظ الأمانات ورعاية الحقوق ومنع الإضرار .

ومن ثم كان لابد من المصارحة في وزن الرجال حين يترتب على تقويم أشخاصهم حق عام أو خاص .

فإذا سألك وليُّ الفتاة عن خاطبها فاذكره بما تعرف فيه ، ففي مثل ذلك سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عن معاوية : صعلوك لا مال له .

وإذا سئلت عن مرشح لمنصب ما ، فاذكره بما فيه ، ولا تقل عدل في مستور الحال ولا جيد جدا في إنسان متوسط المواهب مثلاً .

وتعريف الرجال بما أوتوا وبما حرموا ليس أمراً مباحاً فقط ، بل هو من معالم التقوى ما دام القصد ألا ينخدع بهم ساذج ، أو يقع في شراكهم موهوم .

وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — في أحد السفهاء — : بئس أخو المشيرة هو ، وقال : أظن فلانا وفلانا لا يعقلان من أمرنا هذا شيئاً .

ولم تخف على علماء المسلمين هذه الحقيقة ، فقام علم الجرح والتعديل في صميم الثقافة الإسلامية ، يتعرض لأقدار الرجال الذين ينقلون السنن ، فيصف هذا بالصلاح ، وهذا بالفسق ، وهذا باليقظة ، وذاك بالغفلة !

بل إن تاريخ الأمم قاطبة تناول الحكم والقادة ، تناول الناقد المحصص ، فهاجم ودافع ، وعظم وحقر .

والقرآن الكريم ذكر الأمم المفرطة وما أسلفت من سيئات ، وكيف هوت بها مصارعها إلى أسفل سافلين .

والحكمة من هذه السياقات محض العبرة ، تستخلص من وقائع لاهمة فيها ، وتقدم إلى الأخلاف ، كيما يتعلموا ويتنبهوا .

والغرض النشود إحقاق الحق وإبطال الباطل ، بغض النظر عن الأشخاص وشؤونهم الذاتية .

سئلت يوماً عن « فلان » الزعيم الإسلامي الكبير ما رأيك فيه ؟ فقلت : ليس بأديب ولا خطيب ولا فقيه ولا شجاع ولا سياسي

وحظه من كتاب الله وسنة رسول لا يرتفع به عن مستوى العامة .

فقال لي أحد أتباعه : إنك تغتاب المسلمين ! ؟

فقلت : بل أعرف الناس بأقدارهم وأزلهم حيث يستحقون .

ولو قلت غير هذا لغششت أمة محمد بن عبد الله

إن التزييف في النقود جريمة ، لأنك تروّج النحاس بوصفه ذهباً

وأوغل من ذلك في باب الإجرام أن تروّر في قيم الناس ، فتوهم تاجراً ما أن فلانا

يصلح شريكاً له ، وفلان هذا خائن ، أو توهم جماعة ما أن فلانا يصلح نائباً عنها في أحد

المجالس وفلان هذا أعجز من أن ينوب عن نفسه بله عن غيره

غاية ما يوصى الإسلام به تصحيح النية فإن كلمة التجريح ولو كانت صدقا ، إذا

أملت بها شهوة الولوغ في أعراض البشر والزراية عليهم فهي عند الله ساقطة داحضة .

أما إذا قصد بها دفع مضرة وحفظ مصلحة فلا حرج على قائلها .

إباحية

إن احتلال الغرب لبلادنا عسكرياً أعقب نتائج بعيدة المدى في أخلاقنا الخاصة وعلاقاتنا العامة .

ويحزنني أن أعترف بأن الأجيال الجديدة تذبذبت في مغارس رديئة وبيئات ملوثة وأن الفضائل الشخصية والجنسية تذوب في حرارة الإنهم الزاحف كما تذوب كتل الجليد فوق ألسنة اللهب . .

كنا ونحن يافعون نعتقد أن النظر إلى مفاتيح امرأة ، سيئة تسطر في صحائف الإنسان وتدع في فؤاده نكتة سوداء .

ونعتقد أن الاتصال الحرام يسمى « زنا » ، وأن الفحش السكمن فيه لا يقل عن الفحش السكمن في جرائم القتل والشرك وما إليهما .

وكان وازع الإيمان يصون المجتمع من مزالق الفتنة ولا يدع المنكر يظهر إلا شذوذا يتوجس منه صاحبه وتهتز له ضمائر الناس .

أما اليوم فإن النسوة المتبرجات في الطرق يأخذن على المرء كل وجهة .
فإما أن يسير مغمضاً ، وإما أن يفتح عينيه مكرهاً على العورات المفضحة قد صبت في قوالب تستغفر الشهوات استغفاراً .

وإلى جانب هذا السيل القدر تسهم دور اللهو وأصوات الغناء في تأجييع الشر وإيقاظ الأهواء وتيسير الفجور وتسمية السمار الحيواني المتمرد حباً شريفاً أو غير شريف . ثم نعتذر عن هذا السقوط المتتابع بأنه نداء الطبيعة .

والواقع أن عمل الدين في علاج هذا الفساد العريض إذا كان دقائق من الوعظ في محطاة الإذاعة أو حصصاً من الدروس التافهة يلقنها التلامذة كارهين ، فإنه عمل لا طائل تحته .

بل إن هذا الصوت الطيب - لو قدرنا أنه خلص واستقام - سيعتبر نشازاً وسط الضجة الهائلة المتواصلة سحابة النهار والليل تصرف الناس عن الله وعن دينه وتجرحهم على اعتداء حدوده وغشيان محارمه . .

وستعبر الصحائف القليلة التي تخدم الإسلام والتي يقرؤها نفر محدود من المتعلقين به لونا من التفكير الضيق يحيا اليوم لموت غدا ، ويموت معه الآخذون به . . .
إن الغزو الخلفي المقارن للاستعمار الغربي بدأ يؤتى ثماره المرة في تمزيق أمتنا وفض تقاليدنا واهلاك آدابها .

والأمراض النفسية التي تصحب هذا التحلل أسرع فتكا بنا من الغربيين أنفسهم فإن انتشار الشهوات في الغرب جاء بعد ازدهار الحضارة والمعرفة ، وبعد أن نال الفرد حظوظا كبيرة من الفهم لمصلحته ومصلحة أمة .

فهم يقبلون على العمل وعلى اللهو معا .
ويبنون المصنع الفذ والسرح العاثر ، ويقسمون أوقاتهم على هذا وذاك بحكمة أو نزق . .

أما نحن فقد اندفعنا إلى تقليد الغرب في ناحيته الماحقة قبل ناحيته الجادة .
فلما مرت في بلادنا جرائم الفسق لم تجد مناعة تسكس ضراوتها ، فكان هذا الفساد العريض .

وعادت إلى الأذهان قصة الحمار حامل الإسفنج عندما تبع زميله حامل الملح وقد اعترضهما مجرى ماء نفرج هذا متخففا وذاك موقرا .

منذ أيام شغلتنا إحدى الصحف بقصة مدرسة اختفت أياما مع عشيقها ثم ظهرت لتجد صورتها مطبوعة براها أهل الأرض فلا يطالعون في ملاحظها ولا في النبأ النثير الذي كتب معها إلا شيئا تمودوه فتركوه يمر بلا نكير .

هذه المدرسة هي التي وكلت إليها وزارة المعارف تعليم بناتنا الصغار وتنشئتهن لا أدري على ماذا ؟

هل فكر أحد في المطالبة بطردها من ميدان التدريس أم ستشارك مع مثيلاتها من النسوة العابثات والرجال الفاسدين لقيادة البلاد إلى الخراب والفوضى . ؟

ثم أين الأتقياء العاطفون على دينهم الحراص على استنقاذه مما عراه ؟
أما لهم من جهد يوقفون به هذا السيل قبل أن يتحول طوفانا مدمرا ؟

أما يتجمعون لمدارسه الوسائل التي تحد من خطره وتخفف من ويله ؟
إن النسكبة — عندى — لا تتمثل فى وقوع هذه الفواحش قدر ما تتمثل فى
بلادة الشعور بها وقلة الاكتراث بمحاربتها .

ولا أدرى ماذا يتمخض عنه هذا البلاء من ظلام يحيق بمستقبل الإسلام فى
بلاده لافى حكمها بل فى خلقها . ؟

والغريب أن ناسا ممن كانوا يحيون قدوة فى الدين أضحوا يحيون غير مكترئين
لهذا العيب فثمنهم من يقضى الصيف بين السابحات القاتنات ، ومنهم من يدع صور
محارمه ، فى الأحفال الساهرة تنشر ، فيراها هذا ، ويراه ذاك . .
إن مستقبل الإسلام يفرض على حراس الشرف والعفاف أن يتيقظوا للنوازل
السود التى دهمتنا فعرضت أعراضنا للذئاب والكلاب .

هل الصراحة الجنسية تغني الدعارة ؟

قرأت مع أوف القراء تلك الرسالة التي نشرتها « الأهرام » للدكتور مصطفى الديواني يتساءل فيها مستنكراً « . . . لماذا لا نراجع أنفسنا وقوانيننا في حدود التطور العالمي الخلقى ؟ فلشباب ثورته ، ولا مفر من مهادنته بطرق محتشمة حتى يزهد في المرأة عند ما يراها في متناول يده ! »

والدكتور يقول ذلك بعد أن يعلن رضاه عن الحال التي وصل إليها « الغرب » من ناحية العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة فيعرض علينا المشاهد التي راقته « . . . نظرت من نافذتي وأنا أكتب هذا فرأيت أجمل « السويسريات » يمشين في الشوارع دون أن يلتفت إليهن شاب أو يما كسهن فتى رقيق ، وتذكرت كيف ذهبت أمس إلى مسرح « باتا كلان » - الذي تقصده أرق طبقات « جنيف » - وكيف صُدمنا - نحن المصريين - في بداية الاستعراض ، إذ وجدنا الراقصات عرايا تماماً لإلّا من ورقة توت صغيرة ، ثم لم نلبث أن اعتدنا العري والجمال بعد الدقائق الخمس وأصبحنا ننظر إلى الاستعراض ، على أنه قطعة من روائع الفن العالمي ! .

ثم تذكرت « باريس » وكيف أبيحت فيها الدعارة سرّاً وعلماناً ، وإيطاليا وكيف نظمت الدعارة فيها بشكل محتشم « ! » غامض ، وإنجلترا العجوز وكيف أباحت الحرية الشخصية في حدود القبلات والمقابلات في الحدائق العامة .

تذكرت هذا كله ثم قلت لنفسى : هل حالت الصراحة الجنسية دون تقدم هذه الأم ؟ »

وأخيراً يعلن الدكتور حكمه على الطريقة التي تعالج بها الشؤون الجنسية هنا وهناك فيقول : « إن آفة الشرق كذب في رياء .

وتعلق بالقشور دون جوهر الأشياء .

الغربي يقابل الداء صريحاً ويكافحه صريحاً .

والشرقي يحاور ويداور حتى يسقط في الميدان صريحاً أو جريحاً . .

ثم يختم الدكتور رسالته بهذا الدعاء الصالح ! « اللهم ألهمنا الصواب فأن خير العالمين » . .

كاتب هذه الرسالة مثل صادق للجيل الذى يرمى حضارة الغرب بإعجاب وإعزاز ، ويتقبل تقاليده فى نواحي شتى ، لافى الناحية الجنسية وحدها ، تقبل الفاقه المقتنع ! أو تقبل التابع السجور .

ويؤسفنى أن أذكر أن هذه التقاليد الوافدة علينا من بعيد .

تكتسح فى بطن ، مختلف السدود التى أقيمت فى وجهها .

وأن أمورنا العامة إذا ظلت سائرة فى الطريق التى اندفعت إليها من ثلث قرن فهى لا بد منتهية إلى الوضع الذى يقترحه الدكتور المعجب بالأجساد العارية تكسوها — أو تكسو جزءا منها — ورقة توت ..

أو المعجب بالبقاء المباح يقدم للشهوات المسعورة ما يطفىء لوعتها . . !
أجل فهناك حداثة للإثم كثير .

وعلى لحنهم الصياح المتنازع أخذ مجتمعنا الضعيف يهفو إلى الشر ويتطلع إليه بنهم .
ومن آثارهم أن أزقة المدن الكبرى والصغرى تعج ببجهاير من النساء يرتدين ملابس قد فصلت لغرض واحد هو استثارة الفرائز الدنيا وإيقاظ ما نام منها .
فكأنها وقد أبرزت الأنداء ولفت الأدبار وعرت النجور والسيقان تقول للشباب الجائع : هيت لك !

وكاتب الرسالة الآفة لم يجر فى باله أن يستفتى الإسلام فى شىء مما اقترح وما أظن أنه استفتى الإسلام فى مسألة نافهة أو جليلة عرضت له ، بل ما أظنه يهتم لأن الإسلام يقبل أو يرفض بعض ما يفكر فيه .

إنه — كهذا الجيل الذى صنعه الغزو الثقافى — يحمل اسما مسلما وليس له قلب مسلم ولا عقل مسلم . ومن ثم فلا مكان فى حياته لصلاة أو صيام أو جهاد أو غيره .
والغزو الثقافى فى الغارة التى شنتها أوربا على بلاد الإسلام يقوم على تجهيل المسلمين فى دينهم وشحن أذهانهم بمعارف محدودة ثم ترك أفئدتهم هواء !
وليت الأم القهورة — إذا أعجبت بالمنتصرين — تقلدهم فى فضائل القوة وعناصر الغلب

إننى أفهم أن يغبط المصدور الضعيف عملاقاً سليم الرئتين عريض المناكب

وأن يتمنى لو كان مثله ! أما أن يكون هذا العملاق مولماً بالتدخين فلا يجد هذا
المسلول العليل ما يزهيه في حياة صاحبه إلا الدخان يتنزل في سجاثره ولفافاته
فهذه هي الطامة التي — لاشك — مودية بحياته .

لقد تركت الخرطوم من بضعة شهور وإحدى شركات الخمر تبني فيها مصنعاً
هائلاً للبيرة !

وهكذا نسارع إلى إنتاج اللهو والمجون قبل إنتاج الخير والقوة وحجتنا أن
« أوروبا » لا يخلو بيت فيها من خمر .

والفرق الذي جهلناه أو تجاهلناه ، أن مصنع الخمر في أوروبا أنشئ بعد أن أسست
آلاف المصانع للإنشاء الضخم في السلم والحرب . .

أمانحن ققبل أن ننشئ في عاصمة السودان شيئاً طائلاً نسمح ببناء هذا الخبث ! .
واذكر إنني قرأت في المكان نفسه الذي نشرت فيه رسالة الدكتور مصطفى
شكة حارة لمواطن كادت العلل تفتك بابنته فلما عزَّ شفاؤها بمصر ارتحل إلى
« أوروبا » حيث أمكن تشخيص الداء ووصف الدواء في أسابيع . .

ونعى الكاتب على أطبائنا تخلفهم في مضار سبق فيه أطباء الغرب سبقاً بعيداً . .
ووددت لو أن الدكتور — كاتب رسالة العرى والفن — استفاد من سويسرا
ما يزيد علمه بصناعة الطب بدل أن يقحم نفسه في أمور لا يحسن منها قليلاً
ولا كثيراً . . .

ولندع كاتب الرسالة ولنعد إلى موضوعها .

إن الإسلام حين حرم جعل فيما أحل غنية عن كل محذور .

حين حرم لحم الخنزير لم يكتب على الناس أن يقرموا إلى أكل اللحم فليديهم
في لحوم الضأن والطير والإبل والبقر ما يسد شهوتهم أو يزيد . .

وحين حرم شرب الخمر لم يسلمهم إلى الظلم ، فعندهم من أشربة الليمون والبرتقال
والفواكه المختلفة ما يروون به ويستمتعون .

وعند ما حرم الربا أباح البيع . .

وعند ما حرم الزنا أباح الزواج .

إن محمد بن عبد الله جاء إلى الناس كما قال الله « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرمُ عليهم الخبائث . . . » .
فتماليم الإسلام متكاملة لا يغنى أمر عن نهى ، ولا تصلح أمة بانفاذ وصية من وصاياه وإهمال أخرى ، بل لابد لإدراك رضوان الله في الدنيا والآخرة ، من انفاذ وصاياه كلها . .

والدعاة الذين يحسنون ذكر المحرمات ، دون أن يذكروا الموض الذي شرعه الله ليسد مكانها أناس فاشلون . .

وقد اتسعت حاجات المجتمع وتشعبت أفضيته وأمسى لزماً على من يتصدى لخدمة هذا الدين أن يذكر ما يثبتته قبل أن يذكر ما يحجوه .

وأن يظهر قدرته على البناء قبل أن يظهر قدرته على الهدم .

فإن السلبية في مواجهة المشكلات تبقها ولا تزيلها . .

إنك إذا لم تقم نظام التأمين الاجتماعي — كما يطلبه الإسلام — فسوف تبقى منطقة فراغ لا يملؤها غير شركات التأمين .

وإذا عسرت الاتصال الجنسي الحلال في الوقت الذي تقول فيه بجحمة الزنا فأنت تتيح للكبت والتزوير والشذوذ طرائق ممهدة . .

والناظر إلى العلاقات الجنسية في عصرنا يرى أن المسلمين لم يضعوها أيَّ حلٍّ .
هم يقررون أن الزنا حرام .

بيد أنهم رسموا تقاليد الزواج تجعله مستحيلاً ، إلا بعد بضعة عشر عاماً على نضج الفرزة الجنسية . فكيف يقضى الشباب هذه الفترة ؟

إن الآباء والمدرسين والوعاظ يفرون من هذه الإجابة المريعة لأنهم يعلمون أنها فترة ظلم أو ظلام عند كثير من الفتيان .

أما أوربا فخلت العقدة بإباحة الدعارة ، وإطلاق الحيوانات النابحة في دماء البشر تلغ وتعض كيف شاءت . .

وأما أسلافنا الأول فقد يسروا الزواج وبنوا نظام الجماعة على مواجهة الحقائق الجنسية دون موارد .

وأما نحن — فكما علمت — بعضنا مصرٌّ على احترام دين الله واعتبار الزنا فاحشة

ومقتاً ، وقد استطاع هذا الفريق تحريم البغاء العلني أو حمل الحكومة على تحريمه ولا يزال يقاوم ضراوة الغريزة المحتاجة ويحارب الكتاب الفسقة ويوصد أبواب الخلاعة التي تفتتح هنا وهناك . . .

إلا أنه يحارب في ظروف عاتية ويلقى أشد العنت من أعدائه وأقل العون من أنصاره . .

أما البعض الآخر فهو يجهر دون حياء بإباحة الفسق أو ما يسميه الدكتور مصطفى (!) بالبغاء المحتشم . . !

فهل تيسير الدعارة وجعل المرأة في متناول اليد هو الحل الصحيح أو العلاج الصريح لتأعبنا الجنسية ؟

وهل الغرب أذكى من الشرق لأنه انتهى إلى ذلك المصير ؟

دهل هذه هي الصراحة الجنسية المنشودة ؟

وإذا كنا نستريح إلى هذه النهاية فلماذا لا نعدُّ الاختطاف والاختلاس

وظائف محترمة لكسب العيش وجمع المال الحلال ؟

إنني لا أسأل أحداً من دعاة البغاء : هل يجب أن يقدم أخته لتلميذ فائر الشهوة

أو زوجته لرقيق يعاكس النساء حتى يمنعه من ذلك الصنيع ؟ أو يجب أن يرى ابنته

ترقص عارية إلا من ورقة توت أمام الأعين الساهرة والحالمة ؟ إنني لا أسأل أحداً

من دعاة البغاء هذا السؤال لأنني أتوجس أن تكون الإجابة : نعم . أقبل !

فإن الضمير الذي يُلحُّ بضرورة إشاعة الفاحشة في الناس لا يتحرج من إشاعتها

في بيته وبين أهله وعشيرته .

ولكنني أسأل أهل الأرض : أليس لهم رب يرجون ثوابه ويخشون عقابه ؟

أليس لهم دين يُحلبون حلاله ويحرمون حرامه ؟ إن الزنا وما يؤدي إليه منكر قبيح

في ديانات موسى وعيسى ومحمد جميعاً .

فكيف يطلب منا أن نرخص له ونهش لمرآه ؟ إن الصراحة الجنسية غير

الدعارة الجنسية .

الصراحة الحميدة أن نبحث عن الموانئ الموضوعة أمام الحلال لنزيحها

وأن نستعرض العقد التي تواجه الشباب فنحلها .
وألا نتهرب من أمور يعتبر التهرب منها تمكيناً للرديلة وتجاهلاً للعبائل التي
نصبها الشيطان في طريق الإنسان . .
إن في دين الله حلولاً سمحة للمشكلات التي يُظن بادی الرأي أنه لا حلَّ لها
إلا بالمروق والفسوق .
وأستطيع أن أجزم بأن السلف الصالح لم يتعرضوا - لا شيوخاً ولا شباناً -
للأزمات العصبية والنفسية التي يسقط في مخالها جمهور غفير من شباننا
المحافظين والمنحليين . .
ذلك أننا لم نحسن صياغة أوضاعنا في القوالب التي ارتضاها الإسلام جعل
ما سواها إفراطاً أو تفريطاً .

إن الكُتَّاب الذين يتملقون الفراز الدنيا على هذا النحو ، لا يُعالجون عِلْمَنا
إلا كما يعالج السكر بلاءه بقوله : وداوني بالتي كانت هي الداء . . ! !
سنستريح من بلائنا يوم يفوق هذا من نشوته أو من غشيته .
وخير لنا أن نستعيد ثقتنا في أحكام الشرائع ، وقيم الأخلاق .
فهما اصطنعنا الحضارة بالتحلل فلن نزداد إلا انتكاسا .

وفاق وخلاف

طالباً تساءلت عن موقف الكنيسة من طوفان التحلل والفسق الذى سرى إلى العالم ممزوجاً بمحضارة «أوربا» ! ونضح علينا بحكم التفوق المادى الذى ساند الغرب ورجح كفته فى كل ناحية .

إن الإنجيل غالى بفضائل المغاف والطهر ، وحسم دوافع الجريمة ومفاتن الغريزة وفى إنجيل « متى » أن العينين إذا أزلتا الإنسان فهما جديرتان أن تفتقا .
إن تلف عضو واحد أيسر من هلاك المرء كله .

وعيسى بن مريم — كاخوته من أنبياء الله — غيور على حرمت الله أن تنتهك ، وعلى أعراض عباده أن تهان وتداس ! .

فما هذا الرجس الذى عم وطم وافجرت عيونه الجمثة بين شعوب أوربا وأمريكا ، ثم منها إلى أقطار العالمين ؟ .

وفما أنا حابس نفسى على نقد واستنكار لهذا الصمت المريب ، إذا بى أقرأ نداء حسناً . « بابا روما » وجهه إلى النصارى الكاثوليك جاء فيه :

... إن ملابس السيدات أضحت مأساة خلقية يندى لها الجبين ، وإن محاربة هذه الخلاعة هى إحدى بنود الإصلاح الذى يعترمه « البابا » .

واستطرد النداء يقول : « إن العرى لم يعد مقصوراً على ملابس الشاطئ بل ساد الأماكن العامة والخاصة ، حتى الكنائس ودور العبادة أمست مليئة بالمرأة .

ويسير علينا أن نتصور مدى الفساد الذى ينتج عن ذلك ، وخاصة بين طوائف الشباب » .

وأشار « البابا » إلى جهود الكتاب الأوائل أمثال « شيشرون » و « وسينكا » فى الدعوة إلى الاحتشام وارتداء الجلابيب . وبين أن الجسد الإنسانى ينبغى أن يحاط بسياج من فضائل العفة وآداب السلوك ، وحض رجال الدين — فى كل مكان — على الدعوة إلى ذلك والدأب على تحذير الأطفال والشباب من تقاليد العرى التى تتجدد كل عام فى فصل الصيف ، وتبصيرهم بمواقب هذا الاستهتار فى أنفسهم ومجتمعهم .

وختم « البابا » نداه بأن هذه الحرب الشعواء على « مودات » الخلاعة جزء أصيل من رسالة الكنيسة .

سرقني هذا الوعظ الحكيم ، ورأيت فيه غيرة محمودة على فضائل توشك أن تندثر في أنحاء العالم . إن البنات في أى بلد كدن يحسبن عملهن الأول إبراز محاسنهن لاجتذاب الرجال ، ووظيفة الملابس الأولى — عندهن — أن تكون إطاراً لما يراد تعريته ، وستاراً خادعاً لما تحسن تغطيته .

وقد انطلق مرده الإنس والجن في سباق فاجر لا يتكار ألوان من الملابس المختلفة تلتقي كلها عند غاية واحدة ، هي تجسيم مفاتن المرأة طويلاً وعرضاً ، حتى تحظى بنظرة خبيثة أو اشتها حرام .

والإحصاء الثابت في أغلب أقطار العالم عن الأمراض السرية والنفسية ، وعلل الشذوذ والانحراف ، وعن اختفاء « البكارة » في فتيات بعض الأمم ، يدل على شناعة الخراب الأدبي الذي انتهت إليه الدنيا ، ونالت به سحق الله .

والقوادون من الرجال هم الذين يزينون هذا المهر ليجمعوا الفتك بالمرأة عُملةً متداولة لا يَحْتَشِيها أحد ولا تحذر مغبتها امرأة .

ومن المصائب السود أن ترى إعلانات « السينما » صوراً داعرة لرجال احتضنوا نسوة في أوضاع تسرق ألباب المراهقين .

وقد رأيت — منذ أيام — امرأة معها أطفالها قد وقفت تتأمل — في دهشه — منظر فتاة مستلقية ، قد جثم عليها كلب من نجوم السينما — لا تدري أو تدري — ما يفعل بها .

التقطت هذه الصورة ثم ألصقت على جدران القاهرة إغراء بحضور رواية من الروايات الخليعة !

ويبدو أن منظر الأم وأطفالها أمام هذه الصورة المزرية قد آذى مشاعر أحد الإخوان السائرين معي .

ولعله سبى بفكره بعيداً ، إذ قال لي : ربما كانت تلك الأم أرملة وهؤلاء يتامها . إن هذه المسكينة تحيا في مجتمع ، يحث على السقوط ! ولنعمد إلى حديث « بابا روما » .

وددت لو أن رجال الكنيسة في الشرق — على اختلاف مذاهبهم — أيدوا هذه الصيحة وأكدوا ما تضمنته من دلالات طيبة ، حتى يشعر المارقون من الفضائل أنهم خارجون على كل دين .

وإن بهيميتهم تلك منكر لا يرضاه أحد ممن يتصلون بالسماء مهما كانت طبيعة هذه الصلة .

إن في أسفار العهد القديم والجديد نصوصا شتى تحارب الفاحشين وتطارد وساوس الهوى لتقضى عليها ، وواجب على آباء المسكن أن يقيموا تعاليم دينهم في هذه الناحية ، وأن يتعاونوا معنا في حفظ تقاليد الشرف وحدود الفضيلة .

لقد جاء في (العهد القديم) .

خروج ٢٠ : ١٤ ، ١٧ (من الوصايا العشر) .

« لا تزني » . « لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته » .

وجاء في (العهد الجديد) .

متى ص ٥ : ٢٧ (من عظة المسيح على الجبل) .

« قد سمعتم أنه قيل للقديماء لا تزنوا . وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه » .

وفي كورنثوس الأولى ٦ : ١٨ .

« اهربوا من الزنى . كل خطيئة يفعلها الإنسان هي خارجة عن الجسد لكن الذي يزني يخطئ إلى جسده » .

وفي كورنثوس الأولى ٥ : ٩

« كتبت إليكم في الرسالة أن لا تخاطبوا الزناة » .

وفي كورنثوس الأولى ٦ : ٩

« لا تصلحوا . . . إنه لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مذبذبون ولا مضاجعو ذكور ، ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون ، يرثون ملكوت الله » .

وفي كورنثوس الأولى ١٠ : ٨

« ولا تزنوا كما زنى أناس منهم (بنى اسرائيل) فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً » .

وجاء في تحریم الخمر .

أمثال ٢٣ : ٢٩ — ٣٢ .

« لمن الويل ؟ لمن الشقاوة ؟ لمن المخاصمات ؟ لمن الكرب ؟ لمن الجروح بلا سبب ؟ لمن ازمهرار العينين ؟ للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طاب الشراب المزوج . لا تنظر إلى الخمر إذا احمرت حين يظهر خبابها في الكأس ، وساعت مرقرة في الآخرة تلسع كالحيّة وتلدغ كالأفعوان » .

(المهد الجديد) .

أنس ص ١٨ : ٥ .

« لا تسكروا بالخمر التي فيها الخلاعة » :

لو أن الكنيسة المسيحية — على اختلاف مذاهبها — جدّت في الحملة على الفسوق لكفكت من حدة المعاصي في حضارة أوربا . ولأعانتنا — نحن كذلك — على تجنب ألوف الشباب المفتونين بها مهاوى الرجس التي ينزلون إليها ويستمرّون فيها .

إن الملابس المتحشمة تهدي إليها الطبائع النظيفة ولو لم ترد بوصفها نصوص مفصلة .

وقد زكيت — في كتاب لي — ملابس الراهبات النصرانيات ، وأشدت بالنسب القريب بينها وبين ملابس السيدات الريفيات في بلادنا . وهذه الملابس وتلك بقايا فاضلة من تقاليد الدين الحق .

ماذا ينقم الفساق من الملابس الطويلة ؟ ينعمون أنها تحجب عنهم ما يهيج الحيوان الرابض في دماهم ؟

إن الحفاظ على قوى الأمم السادية والروحية يوجب على الحكومات اليقظة أن تعنى بهذا الأمر . . .

ولقد كتب رجل أجنبي إلى « الأهرام » يقول : إن محافظة حكومة موسوليني على الآداب العامة بلغت في هذه الناحية حداً أنها أصدرت قانوناً حددت فيه ما يجب أن يكون عليه طول الثياب التي ترتديها المرأة — وهي خارج دارها — وصدرت الأوامر إلى رجال البوليس ، كي ينفذوا — بدقة بالغة — تعليمات القانون .

فكان يقع كثيراً أن يستوقفوا بعض النسوة لقياس ملابسهن عند ما يشتهون في قصرها عن الطول المقرر .

وقرأت كذلك في الصحف أنه :

- قامت في أسبانيا حملة أخلاقية يترعها الأساقفة الكاثوليك تدعو إلى :
- ١ — الامتناع عن مشاهدة الأفلام أو ارتياد المسارح المحملة بالآداب العامة .
 - ٢ — عدم ارتداء المايوهات أو الملابس الرياضية العادية .
 - ٣ — عدم ارتياد حمامات السباحة التي تجمع بين الجنسين .
 - ٤ — الابتعاد عن أماكن الرقص ، حيث لا تراعى الأخلاق العامة .
 - ٥ — عدم قراءة الكتب التي تحوى ما يخالف التعاليم الكاثوليكية .
 - ٦ — عدم استعمال الألفاظ النابية أو البذيئة في المعاملات الشخصية .
 - ٧ — عدم التفاضى عما يرتكب من أعمال تنهك حرمة الأخلاق العامة .
- هذا في أسبانيا ، حيث لا يكون احترام الدين سبباً في الاتهام بالتأخر والعودة إلى الوراء .

ونحن نرجو من شبابنا الذين يُقلّدون أوروبا ومن فتياتنا اللاتي يحاكين أزياءها وسلوكها ولهوها ولعبها أن يروا في هذه التقاليد الأسبانية الجديدة ما يستحق النظر أو ما يحسن تقليده دون التوجس من اتهام بتأخر أو رجعية .

والغريب أنى عند ما طويت الصحيفة بعد مطالعة هذا النبأ تناولت جريدة الأخبار لأقرأ فيها ما يكتبه الأستاذ زكى عبد القادر « نحو النور » فوقعت عيناي على الفقرة الأخيرة من كلمته « وهذا صعيدى من الأقصر هاله أن يرى رجلاً أجنبياً يخاصر فتاة في منظر مخجل أشد الخجل ، وفي الطريق العام ! فاستماذ بالله وأدار وجهه ناحية اليمين فإذا به أمام منظر ثان ثم ثالث . ورابع . . . »

عدد من السائحين كل منهم يمثل دور « روميو وجوليت » جهرة ، والذي أزعجه أكثر وأكثر أنه لفت نظر الشرطي الحارس ، فكان جوابه أنه لا يتدخل فيما لا يعنيه ما دام الأمن في سلام .

أجل أن قصور القانون عندنا سمح بمخازي شتى وليننا ننفذ قوانين «موسوليني» في رعاية الفضيلة إن عز علينا إقامتها باسم الإسلام . . .

والخلاعة العالمية هي بعض مانوئيد الكنيسة في محاربته ونسر لما بدا من حملتها وتيقظها .

إن الإسلام أخذ أهل الكتاب الأولين بأنهم مفرطون فيما لديهم من نصوص لا يبالون أن يواقموا الحرام في ما كلهم ومنكحهم . ولا يصدون نوازح الهوى يوم تغريهم بمدوان أو احتلاس . فقال عز وجل « ترى كثيراً منهم يسارعون في الإنثم والمدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإنثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » .

فالرعية مؤاخذه بما اجترحت ، والأحبار والرهبان مؤاخذون بما سكتوا .

وإن لم يتدنوا إلى قول إنثم ، أو أكل سحت .

وهذه الأحكام التي اتفقت فيها الأديان كلها واطردت في تبيانها وتوكيدها الكتب الثلاثة في الديانات الكبرى «التوراة» و«الإنجيل» و«القرآن» لا بد من إقامتها حتى تصح نسبة الأمم إلى كتبها ونسبة الأديان إلى السماء . وإلا فالأمر كله لغو وأدعاء . وذلك معنى قوله تعالى « قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » .

مثل هذا الإنذار يوجه إلينا نحن المسلمين كذلك فلسنا على شيء حتى نقيم ما أنزل إلينا من ربنا . . !

ونحن نفرح أشد الفرح يوم تفلح الكنيسة في القضاء على الخلاعة ويوم يستجيب النصراري في أوروبا للنداء الجليل الذي وجهه إليهم « البابا » الأكبر ، ذلك لأن الميوعة في بلادنا رشح الفيضان الموار الذي تضطرب به حضارة الغرب وهو رشح نعترف بضعفنا الشنيع في ردم مصادره والتغلب عليه .

وتمَّ عَصر آخر في رسالة المسيح عيسى بن مريم ، نود لو اهتمَّ آباء الكنيسة العظام بإبرازه وأخذ شعوبهم به ، فإنَّ غُصَّة البغى ليست أقلَّ شأنًا من غُصَّة البغاء ورسالة البابا ضدَّ العرى جميلة حقًا ، وأجلَّ منها لو وجه نداء آخر معها يحثُّ الدول المستعمرة على نبذ سياستها القديعة في السلب والنهب ويوصيها بترك الأمم المستضعفة تجدد حياتها وتبني كيانها بدل التسلط عليها بالجبروت واستنزاف دماؤها بالهجوم إثر الهجوم .

إن فرنسا أم الخلاعة في عصرنا وهي كذلك ، أم الكبر في ميدان الاستعمار . والمجازر التي تصنعها في المغرب الأقصى لا تحف ، وفي فزعة العدوان ورهبة الأسى ، أرسل رؤساء الأحزاب في مرا كش المذبذبة إلى « البابا » يستنجدون به .

فإن فرنسا ابنة الكنيسة الكاثوليكية البكر . ولو أن نداء إلى شعبها وحكامها أردف به « البابا » نداءه في محاربة العرى لكان لذلك وقع في نفوسنا عظيم . أجل ، ولو عصاه الفرنسيون ! فإن إنقاذ الأديان من تهمة التواطؤ مع الجبارة والسفاكين أكبر لدينا من أى نتيجة أخرى .

جاء في نص البرقية المرسلة إلى « قداسة البابا » و « فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر » طلب بالتوسط إلى فرنسا لوقف العدوان على علماء المغرب المسلمين . والطلب بالنسبة إلى شيخ الأزهر تذكير بما يلقاه إخوانه في ميدان الجهاد من قسوة الأقوياء العادين .

وهو بالنسبة إلى « بابا روما » تذكير بما يفعل أشياعه دون أن يسمعوها نكيراً أو يخشوا عقبي .

إننا نريد أن نسمع نداء في محاربة البغى كما سمعنا في محاربة البغاء . وقبل ذلك سيكون الحديث عن التعاون بين المسيحية والإسلام لونا من الضحك على الدُّقُون إن لم يكن عملاً مقصوداً لتنويم المجاهدين ثم تموت نشاطهم . ولا بأس من أن أثبت هنا رداً مبيناً لكبير من رجالات الإسلام سئل : كيف يتم التقارب بين الإسلام والمسيحية على مقاومة النظم والنظريات المادية التي تهدد حضارة الجنس البشرى ؟

فأجاب : هنا أمران يجب التنبيه لهما وإعطاؤهما حظهما من العناية والتقدير .

أولهما : ألا تنظر الكنيسة الغربية إلى الإسلام كما تنظر إلى العدو البغيض الذي يجب التخلص منه فإن ، مثل هذه النظرة تضر الإسلام والمسيحية جميعا وتفسح الطريق أمام الإلحاد ليهدم الديانتين معا . ولهذا يجب أن يكف المتعصبون من أهل الغرب عن المفتريات التي يلصقونها بالإسلام وينالون بها من جلاله وقديسيته في أنفس المسلمين ويحاولون بها أن يخرجوا المسلمين بالترغيب والترهيب عن دينهم .

وبإني لوائق من أن المسلم الذي يخرج عن دينه — بدافع الرغبة أو الرهبة — إنما يخرج عن الدين نفسه . فلا يكون مسالما ولا يكون مسيحيا .

ومعنى ذلك أن هؤلاء المتعصبين يقومون بعملية هدم خطيرة لن تستفيد المسيحية منها شيئا . إنما تستفيد منها مذاهب التحلل والإلحاد وحدها .

الثاني : ألا تنظر الدول المعترفة بالكنيسة إلى بلاد المسلمين نظرتها إلى البقرة الحلوب تسخرها وتسوقها إلى الخضوع والاستعباد . وإن أخشى ما أخشاه أن يوازن المسلمون — مضطرين — بين المعسكر المادي الذي لا يعترف بالدين ، وبين المعسكر المادي الآخر الذي يعترف بالدين ، ثم يرون أن معسكر الكنيسة يحتل بلادهم ويمتد على مقدساتهم وينظر إليهم على أنهم عبيد مسخرون ، فلا يجدون فائدة من التعاون معه والاطمئنان إليه .

وعند ذلك يفقدون الأمل ، ويطوف بهم طائف اليأس ، فيهتفون هتاف الوحش الذي أخذت عليه سبيل النجاة : على وعلى أعدائي .

هذا كلام صادق في تصوير العلاقات بين الإسلام والنصرانية ، وبين الأمم التي تعتنق الديانتين الكبيرتين .

وسرى ما يصنعه العقلاء في محاربة البغي والبغاء .

وعلى ضوئه يكون الغدا القريب والبعيد .

تذكر...

التعليم شفاء الجهالة ، والتذكير دواء النسيان .
وهناك حقائق كثيرة هُدى إليها الإنسان ولم يكن من قبل يعرفها .
وحقائق أخرى كانت نفسه مستعدة لها أو مألوفة بأطراف منها ثم — لأمر ما —
غابت عنه وذهل عنها . فإذا أعيدت عليه ، تعلق فكره بها ، كما يتعلق فكرك بوجه
رجل برز إليك فجأة ، وكنت قد رأيت من بضع سنين ، فأنت تشق حجب الماضي
الملتهمة بذاتك حتى تستبين الملامح الأولى ، وتربط بين ذكريات الأمس المدير
وصفحة اليوم الجديد . . .

الحقائق الكبرى في دين الله من هذا القبيل .
توحيد الله ، اللجوء إليه في الشدائد ، الإحساس بالعودة إليه ، إن قريبا ، وإن بعيدا .
احترام الفضائل وأهلها ، الاشتراز من الرذائل ومقترفيها النشوة من انتصار الحق
وإقرار العدالة . . . الخ

إن هذا كله مغروس في الفطر السليمة ، لاندھش له إذا سمعت به . ولا تستغربه
إذا اقتيدت إليه ؛ بل تحس كأنها تسير في طريق لها به عهد ، وبينها وبينه أواصر شداد .
ومن هنا سمي الله القرآن الكريم ذكرا ، لأنه يجيئ بتعاليم جديدة على الفطرة
الأصيلة تعد معرفتها علما بعد جهل مطبق ، لا ، إنها تذكير للعقل بما لا يليق أن
يعزب عنه ، تذكير للضمير بما ينتظر أن يحكم به ، تذكير للمرء بماضيه الأول ونسبه
العريق وصلته الموثقة بمن أحياء واستبقاه إلى أجل مسمى . .

وقد اطرّد استعمال هذا اللفظ في القرآن الكريم في مناسبات شتى .
« مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى : إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى » « وَكَذَلِكَ
أُنزِلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ
ذِكْرًا » « وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » .
« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »
« كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ » .

« إنما أنت مذكرٌ لست عليهم بمسيطرٍ » .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

« فلما نسوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء » .

« فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » .

« فتولَّ عنهم فما أنت بملومٍ وذكِّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

والآيات التي تخبرت هذا التعبير كثيرة ، وهي كلها تشير إلى أن قضايا الإيمان والبعث والجزاء ليست غريبة على نفس الإنسان ، وأن الذين جاءوا بها لم يكتشفوا المجهل المنكورة ، أو يبدعوا ما يضيق به أو لو النهى .

الحق أن الوحي الأعلى جاء منظماً لقوى موجودة ، أو موجَّهاً لمواهب قائمة ، أو محرَّكاً لأجهزة معطلة . . .

فإذا حدث — لأمر ما — أن اختفت هذه الأسس العتيدة فإن يكون للدين عمل ، إذ ما يصنع البناء وقد فقد اللبنة التي يرضُّها والأرض التي يشيد عليها ؟ إن عمل الدين إيقاظ قلوب غفت ، ودفع أفكار توقفت .

فإذا مات القلب وهمد الفكر ، ففيم العمل ؟

قد يوقظ الطبل النيام إذا غفوا فمن لك بالطبل الذي يوقظ الموتى ؟

إن الإيمان بالقيمة الذاتية للإنسان نفسه جزء من الإدراك الصحيح لرسالة الدين ، لا يصح أن يغيب عن داعية حسيِّف . .

على أن القلوب أوعية متفاوتة جدا . . .

ورؤيتها للحق التي تذكِّره ، واستفادتها منه ، أمر لا يعلم مداه إلا الله . . .

أرأيت هذه العيون الشاخصة في وجوه أصحابها ؟ إن في بعضها قصورا لا يكمله إلا منظار طبيِّ معين . وهذه العيون الضعيفة ، وما يكملها من عدسات قد لا تلمح من الشخصوس والمسافات ما يلمحه بصر حاد بأصل الخلقة يستجلى المرئيات الدقيقة دون وساطة ودون إعياء . . .

كذلك القلوب !! إن بعضها - من غير دراسة طويلة - يدرك من حقائق الوجود أقصاها وأخفاها .

وبعضها - على طول الدراسة - لا يكاد يعي .

إن المطر ينزل من السماء فتمتلئ به الأواني التافهة وتموج به الأنهار والبحيرات . .

كذلك الوحي النازل من السماء ، يتحول منابع جياشة بالرى في قلوب ، ورغوة زائلة في أخرى .

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة « أنزل من السماء ماء فسالَتْ أوديةٌ بقدرها . فاحتمل السيلُ زبدا رابيا . ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبد مثله . كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ . فأما الزبدُ فيذهبُ جفاءً . وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ . كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ » .

إن القرآن لا يزال بين أظهرنا . وهو صوت يذكر بقوة وجلاء .
وبقى أن نسأل لآعن عدد السامعين ، بل عن عدد من يشعرون أن النسيان المضروب عليهم قد زالت غشاوته وتقطعت ضلالتة .

حياة ...

قال الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » . . .

الحياة التي يدعو إليها الرسول ليست حركة الأجسام على ظهر الأرض في طلب الضرورات والمرفهات .

فإن الناس ليسوا بحاجة إلى من يذكرهم بهذا ، أو بشيء منه .

إنما الحياة التي يراد نقلهم إليها ، أو بعثهم بها ، هي حياة العقل الذي عرف الحقيقة والضمير الذي هفا إليها والإنسان الذي يتحرك بعد ذلك فتتمشى في أوصاله فكرة يريد تحقيقها ورسالة ينشد أداؤها .

هذه هي الحياة الصحيحة التي يتصور أن يدعو إليها رسول .

ومن ثم فإن الاستجابة له تعنى حياة أرقى مما يعرف الجهال ويألف السفهاء . حياة أسمى مما يصل إليه أصحاب المشاعر المحدودة والحواس الموصولة بظاهر الحياة الدنيا فحسب . .

والصورة الجلية لهذه الحياة اليقظة الذكية التي لا بد منها لاتباع الرسول وفقه دعوته وإبلاغ رسالته تراها في قول الله لنبيه : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ » .

إن البشر الذين احتبست أنصبتهم من الحياة في حدود ضيقة من الجهل والخرافة ، وسقوط الهمة وخور العزيمة ، ليسوا أهل الاستجابة للرسول الداعي إلى حياة راشدة ماجدة ، يُقْبِل الإنسان فيها على الدنيا وعلى الآخرة ، إقبالاً عارماً جاشاً . وقديماً قيل :

ليس من مات فاستراح يميت إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيها كاسفاً باله قليل الرجاء

فإذا لم نعلم أن الإسلام حياة تجدد المجتمع ، وروح يخلق الفرد ، فقد جهلنا الإسلام

الذى يباعد البون بين رسالته وبين غيرها وبين أتباعه وبين غيرهم فيقول :
« وما يستوى الأعمى والبصير ؛ ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ،
وما يستوى الأحياء ولا الأموات » .

لا أدري سر هذا الفتور الشائع في بلادنا شيوع الخدر في العضو
الخامل النوم .

إن الجماهير في الغرب كالنحل في خلاياها ، لا تهدأ لهم حركة ، ولا يسكن لهم
مطمع ولا يضمن لهم إنتاج .

والدول — كبرها وصغرها — تحشد رعاياها في مشروع ضخم لا يكادون
يخلصون منه حتى يشغلهم آخر أضخم منه .

أما نحن — أعنى بلاد الإسلام كلها — فلا تزال ندور حول أنفسنا ونتحرك
في مواضعنا ونذهل عن مصائرنا ، وتصلنا أنباء الحياة الزاحفة هنا وهناك وكأنها
أنباء العالم الآخر . ما هذا . . ؟

إن الوحي الإلهي روح يدفع الملهمين ، وينرس في نياتهم الصدق وفي أهدافهم
السمو ، وفي حركاتهم الجهد والمشقة وركوب الأخطار .. فكيف جعلنا الوحي الملهم
قيداً معوقاً وركننا في ظلاله إلى الدعة والخلول ؟

بل كيف عشنا في ظلاله أصحاب عيون لا تبصر من آيات الكون شيئاً
وأفئدة لا تلمس من أسرارهِ إلا قليلاً . . ؟

على الدعاة المخلصين لله ورسوله أن يحملوا من تعاليم هذا الدين الخصب بذرة
تعيد الحياة إلى هذا الركام الكثيف من العامة الهامدين والخاصة الجامدين ، وأن
يفهموا الدنيا الحائرة أن الإسلام دعوة مفرطة في التحرر والتقدم إذا كان بمض
الحق يحسبه رجعية واستكانة . .

يا أسفاه . كم حل الإسلام من أهواء الناس وكم أصابه من جهل بنيهِ .

كاذب اللبالي . وكادته بحالدة وارتد عدوانها من بعد تقمّال
ثم انثنت — وبها من صبره حرق — وإن كسته — لكيد ثوب — أممال

في سيديل من . . . ؟

نحن نتبع بعواطفنا صراع الثوار الحمر مع الغزاة الفرنسيين في الهند الصينية مؤملين أن تجيء نتأججه قامة لغرور المستعمرين وهاشمة لصلفهم القديم . .

ومؤملين كذلك — شأن الضعاف الموغرين — أن تقتص الأقدار لقتلانا في المغرب ، بعد ما عجزنا نحن عن الانتقام لهم .

ألم نقرأ في صحف اليوم مصرع الأبطال الثلاثة الذين حاكمهم الفرنسيون في تونس ثم حكموا عليهم بالقتل رميا بالرصاص ؟

أولم زوَّع من إقدام الجبناء وهم ينفذون ما قضوا به ، فإذا بالضحايا الكرام يستقبلون الموت محذقين جرَّاء ، رافضين أن توضع على أعينهم عصائب ، ومسامهم الهلاك تنطلق إلى صدورهم ورءوسهم وأعناقهم . . ؟

فإذا يصلنا بهؤلاء الفرنسيين الوحوش ؟ وماذا يجعلنا نحبس مشاعر الشماتة وجيوشهم تتلاشى فرقة بعد فرقة أمام الثوار الحمر . . ؟

بيد أن شيئاً يحيك في أنفسنا كلما طالعنا أنباء هذه المعارك .

هو أن الدم الفرنسي الصَّرف ليس وحده هو الذي يسفك في ميادين التحرير بالهند ، فهناك ما يسمى بالفرقة الأجنبية ! جيش ذو لُجب يقاتل — في جانب الغزاة — أهل البلاد الأصلاء !!

ممن تتكون هذه الفرقة ؟ من الزنوج . . ومن المسلمين المغاربة الذين شأهت بلادهم تحت وطأة أولئك الفرنسيين .

أرأيت ؟ أن كتاب العبيد تغنى بين يدي جلاديه !!

ماذا دهى أولئك الذين يسمون مسلمين ؟

ما هذا العمى الذي طمس على أبصارهم وأفئدتهم ؟

لقد تبعت قتال أولئك المسلمين تحت رايات مبتوتة الصلة بتوحيد الله ، مبتوتة الصلة بحقوق البشر فيما يقدسون من دماء وأعراض ، مبتوتة الصلة بما يتمشقه الناس من أجداد وآمال ، فلم ألقه له معنى ألبتة .

ولقد ضحكت - وشر المصائب ما يضحك - يوم أذاع « رويتر » في أنحاء العالم أن المسلمين الأتراك كانوا يقاتلون في ميدان « كوريا » بحماس بالغ ، وأن صيحاتهم التقليدية في القتال « الله أكبر » كانت تلقى الذعر في صفوف أعدائهم .

يا للفوضى المفرقة ! ما صلة تكبير الله بحرب تقع بين روسيا وأمريكا ؟ .
ولماذا يكون الدهاء من المسلمين علف مدافعها ؟ .

ومن قبل ذلك تبعت قتال أهل الريف وراء الجنرال فرانكو .
إنهم استماتوا مع رجاله حتى أكسبوه النصر العظيم في أسبانيا ، ضد أعدائه وأعداء الكنيسة الكاثوليكية العتيدة .

واليوم تتكرر المأساة نفسها ويقاثل رجال الفرقة الأجنبية من زوج ومسلمين !
في سبيل مجد فرنسا التي أسست في العصر الحديث أسوأ استعمار عرفه العالم .
كان المسلمون قبل غيرهم رماد ناره المستعرة . .

إن التعليل الوحيد لهذه الظامة الشنعاء أن هناك جمهوراً كثيفاً من هذه الأمة المسلمة قد تحجّر أو استعجم ، لا ندري كيف نصفه ، فأرسي لا يبحر صواباً ولا يعقل خطاباً ، فهو يستأجر للأغراض الدنيئة كما تستأجر الدواب للحمل سواء بسواء .

وإلا فلماذا لا يدير الجندى الغربى سلاحه ليقتل به من قتل قومه واستباح حماء وأذل أرضه وأرض آبائه . . ؟ ؟

بدلاً من أن يحارب في قارة أخرى لا يعرفه أهلها ولا يعرف أهلها ؟

ربما قلت : هذه قسوة في الحكم . لعله مستضعف أحكم الإسار حوله ، فقلبه ضد فرنسا وسيفه معها .

وهذا - لو صح - لا يغير من النتيجة شيئاً .

فإن ذمة الله بريئة من كل أحد يمكن للظلم على هذا النحو ، ويوطئ ظهره لإراحة الطغاة وإرهاق المستضعفين كما ترى .

إن هؤلاء الجنود المرتزة يذكروننا بما روى في المسلمين الذين قتلوا مع المشركين

في معركة بدر ، فإن بعض المستضعفين ممن اعتنق الإسلام حمله كفار قريش أن
ينحاز إلى جانبهم ، وأن يبق مع أهل مكة في هجومهم على الرسول وصحبه ، فقتل وهو
ظالم لنفسه .

فنزلت فيهم الآية : «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .. فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » .

إن الظالم لنفسه كالظالم لغيره ، كلاهما حرب على الحق والكرامة ، فلا مكان له
في دين الله ، ولا منزلة له في هذه الدنيا .

والمسلمون الذين ينتسبون لهذا الدين ويلوثون دعوته وأمته بالعمل في خدمة
الظالمين يجب أن يبتروا بترًا وأن ننساهم نسيًا .

وسائل

يظهر أن الإسلام أكبر منا ، وأن تكاليفه أبعد من هممنا ، وأن مطالبه
الكثيرة لا تزال تتحدى مزاعمنا .

وأول ما يكشف عن هذا العجز الشائن أننا نريد الوصول إلى أهداف إسلامية
— كما نقول — بوسائل مبتوتة الصلة بالإسلام .

وأظن أن هذا المسلك لا يتحمل إلا تفسيراً واحداً ، هو أن الإسلام ليس بغيتنا
وأن شيئاً آخر هو الذى يسيطر على نياتنا وأعمالنا .

هل تظن أن إخوة يوسف كانوا صادق الرغبة فى صلاح النفس ورضوان الأب
يوم قرروا قتل يوسف ؟ كلا !

فأى صلاح . هذا الذى يتوصل إليه باقتراف جريمة ؟

« اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ
بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ » .

إنهم لن يكونوا قوماً صالحين بوسائل فاسدة ، وغارس الأشواك لن يلقى جناها
ورداً أبداً .

وقد لفت البوصيرى أنفسنا إلى هذه الحقيقة ، فإن المرء قد تحدّثه نفسه أن يشبع
هذه النهمة فحسب ، وأن يدرك هذه الشهوة وكفى ، وبعد ذلك تسكن نفسه إلى
ما حصلت عليه من حرام وتستأنف حياة أفضل . فقال الرجل الحكيم :

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها إن الطعام يقوى شهوة النهم

أى إن الوسائل الفاسدة لن تزيد مرضى القلوب إلا علة ، وإذا حسبوا أنها
تكسر شهوتهم فهى فى الحقيقة تطنى شرّتهم وترسخ فى الإثم أقدامهم .

وعند ما كان بعض اللصقاء بالإسلام يطلبون منا مداينة فاروق وأمثاله ابتغاء
نصرة الإسلام ، قاومت هذا العوج النفسى جهد الطاقة ، لأن الإسلام الباقى بعد ترصّى
التألهين فى الأرض شيء آخر ، غير الدين الذى ارتضاه الله لعباده .

ولن نكون أصحاب رسالة صحيحة إذا كان الملوك الفسقة وأمثالهم من دهاقين الاستبداد السياسى هم رعاة الدعاة إلى الله وحماتهم الأشداء .

إن الإسلام بحاجة إلى من ينجده من هؤلاء الطغاة .

وإن أمتة المهيضة بحاجة إلى من ينقذها من عتوهم وعلوهم ، فكيف يطلب منا أن نركن إلى أولئك الطغاة والله يقول : « وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ » .

وعلى المسلمين ألا يخامروهم القنوط إذا ما رأوا بعض المرتزقة فى ميدان الجهاد لا يزالون يبحثون عن طاغوت آخر ليخدموا الإسلام بالانحناء له ، والاعتراف من خزائنه .

إن العبيد لا يقدرّون الحرية يوم تساق إليهم عفواً . ألم تر كيف صنع اليهود مع موسى لما استخرجهم من مصر واستنقذهم من بطش فرعون ؟

حَنَّتْ نفوسهم إلى صنم ينكسون عنده رؤوسهم كأن ارتفاع الهامة أمر معنت ، « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرِبُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ؟ »

إن الإسلام صنع الرجال الذين هدموا كسرى وقيصر ، ولم يلتحق أحد من رجاله بالوثنيات السياسية ليستقرّوا فى مقاصيرها نصر السماء .

فلنعد إلى صفوفنا المتواضعة ، وقروشنا القليلة ، فذلك أجدى من خزان الذهب تلتمس عند ذوى السكفور .

ما تمسكنا بهذه الوسائل ؟ إن كنا صادقين فى إعزاز ديننا وإحياء أمتنا ؟ إنه فى سبيل العمل للإسلام توجد أعمال تحتاج الجندى المجهول ، تحتاج المكافح الصامت ، تحتاج الرجل الذى يبذل من وقته وماله ، دون رياء أو ضجة .

وقد كان لدينا قسم « البر والخدمة الإجتماعية » والفروض في منهاج هذا القسم ، أنه ينظم أعمالا واسعة ، أعمالا استطاع إخواننا الأقباط — بقليل منها — أن ينهضوا بطائفتهم ، وأن يدفعوا بها إلى الأمام .

فإذا فعلنا نحن لنستدرك ما فاتنا ، وأن نلحق من سبقنا ؟
لقد جمعنا الألوف من طرق شتى لإصدار مجلة نحن في غنية عنها .
وضئنا بأى قدر من المال — مهما زهد — على أعمال البر والخدمة الإجتماعية .
فهل هذه وسائل الفوز والفلاح .

كم تكلفنا محاربة الرذيلة والتفكك والجهالة من جهد وسهر ؟ ومن
تجميع وتنسيق ؟

كم نحن فقراء إلى المدارس التي ترفرف عليها روح القرآن والمستشفيات ؟
والملاجئ والأندية البراءة ، ولجان الخدمات العامة ، ومحاضن الأولاد والشباب .
كم نحن فقراء إلى مؤسسات تشد أعصاب أمتنا .

هذه الأعصاب التي استرخت ، وهنت لطول ماعراها من أرمان ونكبات .
إن الإسراف في هذه الأبواب ، لا يعترضه أحد ، ولا يتوقع منه إلا أطيب
النتائج أما « تسوّل » المبالغ الطائلة ، لتنفق في غير مصرف ، وترك الأعمال
الصحيحة تتطلب العرن ، فلا تجده ، فذاك مسلك عجيب .
إن الوسائل الصحيحة وحدها ، هي التي تخدم الإسلام .

تحدّى

الكارهون للعرف السيئ، والخارجون على التقاليد القديمة مكروهون من العوام والجامدين .

وعلى قدر ما تكون قداسة الخرافة الشائكة يستمر الغضب ضد المتبرمين بها والمنكرين لها .

ولذلك يقول الله لنبيه « وإن يكادُ الذين كفروا ليزلِقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكْرَ ، ويقولون : إنه لمجنونٌ . وما هو إلا ذكرٌ للعالمين . . »

وأصحاب الحق بإزاء هذه العيون التي تقدح شررا ، وهذه النفوس التي تتميز غيظا ، لا يزدادون إلا ثقة بما لديهم واستهانة بما يواجههم .

وإنك لتسمع إلى واحد من حملة الوحي يعالج جهالة الجماهير حوله فترى آية من آيات الله في الرسوخ والصرامة والتحدى .

كأن عناد العوام معه عبث صبية يلعبون في أصول طود ذاهب في الجوزاء .
قرأت هذه الآي يصف بها القرآن دعوة نوح لقومه « واتلُ عليهم نبأ نوحٍ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبرُ عليكمُ مُقامي وتذكيري بآياتِ الله فعلى الله توكلتُ ، فأجمعوا أمرَكم وشركاءَكم ثم لا يكن أمرُكم عليكم غمّةً ثم اقضوا إليّ ولا تنظِرونِ » .
وراعني ما فيها من إصرار وإقدام .

إنه يقول لهم .

إن ضايقتكم دعائي إلى الله فما أبالي بكم ، ومهما اشتد سخطكم فإن أحذر جمعكم أو أتعب عقبى النزاع معكم . . فإنني أستاذ إلى الله وأطمئن إلى تأييده وأعرف أن ما ملقتم به من دون الله أنجز من أن ينالني بضر فاجهدوا جهدكم ، واجمعوا كيدهم ..
ثم اصنعوا ما شئتم وعجلوا بما تقدرون على فعله فلا ضرورة لتريث أو إهمال . .

ويشبه نوحا في هذه المقالة هو عندما صاح بقومه « إني أشهدُ الله - واشهدوا -

أَنى بَرَى : مِمَّا تَشْرُكُونَ مِنْ دُونِهِ ، فَسَكِّدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبُّكُمْ .

وهذا التوكل ضرب من القوة التى يزود الله بها المصلحين كما يزود الصحيح بالمناعة بين المرضى ، فيعتلون وينجوا ، ويقعدون ويسير .

ثم يقول ما قال الشاعر :

ويوجد بيننا أمد قصيٌّ فَأُمُّوا سَمْتَهُمْ وَأُمْتُ سَمْتِى

والتوكل هنا أمانة من أمارات القدرة على الحياة والأمل فى المستقبل ، إن ضعفت الطاقة واكفهر الجو ، فهو قرين الصلابة والبأس وسر الرباط والكفاح .

لكن هذه الأمة لما جف عودها تحولت الخضره البانعة الطاخة بدلائل الحياة إلى هشيم تذروه الرياح بل توقد به الأفران .

وإذا كان التوحيد قد انقلب إلى شرك فلا غرابة إذا انقلب التوكل إلى انكسار وخور ، وانهباز وهزيمة .

إن التوكل على الله يبعث الجرأة على الناس .

فلن يكون أبدا سبب ضيعة فى الدنيا أو هوان بين أهلها .

وقد سمعت نوحا وهودا كيف يحفزها التوكل إلى أن يقولوا لقومهم : هاتوا ما عندكم فلن نحفل به .

إلا أن ثَمَّتَ عنصراً آخر يقارن هذا التحدى أو يعين عليه ، هو تجرد الداعية واستغناؤه المطلق عن البشر قاطبة .

فن التناقض المثير أن تحرص على تملق الدهاء فى الوقت الذى تسكف فيه بردهم عن غوايتهم وشفائهم من جهالتهم .

إن المعلم يترضاه تلامذته وليس هو الذى يترضى تلامذته .

وخير ما يقال فى داعية : إنه استغنى عن دنيا الناس فلم يخافوه عليها ، وبذل ما لديه من خير فهرعت إليه الوفود ترجوه .

وهذا المعنى أكدته نوح لقومه « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَآمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

صدق من قال : أذل الحرص أعناق الرجال .

إنه ليس أعصى على فنون الإغراء من الرجل الزاهد ينظر إلى الناس وهو بنجوة من مشاعر الرغبة التي تدنيه حيث يجب أن يبعد ، أو مشاعر الرهبة التي تبعده حيث يجب أن يدنوا .

كلا . إن غناه في قلبه حصنه من هذه الثغرات التي تستندل الملوك .

فهو مليء النفس ، رفيع الرأس بما يدخره عند الله وحده . .

وتنزيه الدعوات عن المتاجرة بها هو معنى الزهد الذي لازمه الأئمة واحتقن به العلماء .

فليس الزهد هو الجهل بالحياة وهجر أسباب العمل ، وقصور الباع في مختلف الحرف ، وترك زينة الدنيا عجزاً عن بلوغها أو بلادة عن تذوق الجمال الذي أودعه الله فيها . .

ورب نبى استمتع بالمال والبنين وهو — مع ذلك — من الزاهدين . . !

ورب محروم عاش يتشهى ويتلمظ فما كان فقره رفعة لشأنه ولا زيادة في حسنة .

إن الزهد ألا تبيع مثلك العليا بملك الدنيا أن خيرت بين هذه وذاك .

فإن الله عاب قوماً بأنهم آثروا الأولى على الآخرة فقال : « . . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَاُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

أما أن تحس نعمة الله وتستمتع بها ويشوق بدتك وروحك حسناتها فهذا مالا يضير رجلاً مؤمناً مجاهداً وفيّاً لفضائله .

ألا ترى القرآن الكريم ينبه إلى ناحية من نعم الله على أبناء آدم فيقول . . . في تسخير الأنعام — « وَلَسَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ » .

إن هذا الجمال مِنَّةٌ تستحق التنويه ، فما بالك بألوان الجمال الأرقى ، وقد أتاحها الله جميعا للذين آمنوا . . ؟

إن أصحاب الدعوات قد تحجب لهم من الدنيا أشياء . بيد أن شيئا مما يروقههم فيها لا يحجبهم عن الله ولا يهون عليهم الحق ولا يذلهم للناس . . . !

وهذا الذى سقناه من دلائل التوكل والتجرد . خُلِقَ بنى عليه أولو العزم من الرسل ، وكلف الله صاحب الرسالة الخاتمة أن يعتصم به وأن يتأبى فيه بأخوته السابقين « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » .

وعلى السائرين فى آثار النبوات الأولى أن يأخذوا بحظوظهم من هذه الخلائق الصلبة ، فإن رسالات الله لا يستطيع حملها طلاب الدعة ومتملقو الجماهير . .

ليس أقوى فى عرض قضية ما من الرجل الذى لا يهاب أحدا ، ولا ينشد رفدا ، فإنه يعتمد على الله ولا يرقب إلا جداء . . .

نصيحة

المسلمون الآن في مرا كز حرجة تقع بهم المآسى وتلاحقهم الإهانات .
فما يخرجون من غمة إلا ليدخلوا في مثلها أو أنسكى منها .
كل ذى قوة في الأرض يفتات عليهم ، وكل ذى مأرب يتجه إليهم ، وبلادهم
تدور فيها ربحى المطامع ، وينتجعها الرواد من كل صوب وحذب .
شأن أى مكان ممرع أغنى أهله وذهب حراسه .
والإسلام — تبعاً لأصحابه — يلقى العنت وتكتنف مستقبله الصعاب .
ونحن لانذكر متاعبنا هذه لنقنط من زوالها أو نستكين لبقائها .
فإن الاستسلام للهزائم لا يقول به رجل ، مسلماً كان أو كافراً .
أجل ، إن الرجولة المجردة تتحمل السكاره فكيف إذا اصطفت بالإيمان ،
وفاض في نواحيها اليقين والأمل ؟؟ ألا تفعل العجائب ؟؟
عندما سقطت الدولة الإسلامية في القرن السابع على أيدي التتار المغيرين لم تقن
هذه الأمة ولا ضاع دينها . بل لم تمض أيام طوال حتى ذاب التتار أنفسهم في غمار
المسلمين . فهضمتهم الأوطان الإسلامية وفرضت عليهم دينها وتقاليدها .
ثم مضت أيام أخرى فإذا بالمغيرين الأوائل يتحولون جندا للإسلام ، ويمدون أمتهم
الأولى بمناصر جديدة ، بادية الحماس ، شديدة الوطأة .
وبديهي أن الفاتحين الذين اعتنقوا دين المغلوب وأعجبوا بتقاليده لم يفعلوا ذلك
إلا لأن الأمة التي انهزمت عسكرياً ظلت من الناحية العلمية والاجتماعية أرجح كفة
من الغزاة المزهوئين .
وأحسب أننا — وسط الدائرة المعتمة المحيطة بنا — يجب أن نبني سياستنا
الإسلامية على أمرين متكاملين ، هما المنفذ الوحيد من هذا الحصار الخانق .
ولأبدأ بآخرهما ترتيباً . وهو حسن الصلة بالناس . إن الدعاة الذين يُخَلَّفُونَ
وراءهم أحقاداً اجتماعية عنيفة يدمرون على أنفسهم وعلى رسالتهم . ولو كانت قوى
البر والبحر تظاهروهم !

ونحن المسلمين أولى الناس طُراً بالاعتماد على الحكمة والجدال الهادئ والإقناع الكريم في عرض قضايانا المعقدة وقضايا ديننا المظلوم .

نحن أجدر بذلك - ولو كنا مدججين بالسلاح - من رؤوسنا إلى أقدامنا .
أما إذا كان السلاح ومصانعه عند خصومنا فإن التحدى الطائش لون من الانتحار فوق أنه ضرب من العصيان . ولا أحب أن يفهم امرؤ من هذا الكلام إنى من أتباع غاندى في سياسة المقاومة السلبية ، أو أنى ألابن الغاصبين وأنسى ضرورتهم بنا وباخواننا في كل قطر . كلا كلا .

إننى أرى ظهر الأرض خيراً من بطنها إذا لم نعيش أعزة بديننا . بل إنى من دعاة الاستقلال دون أن تطيش غاياتنا ومهون مقدساتنا .

والروح أرخص ما يُدفع غضبا لله وذيادة عن حقوقه . هو أرخص ما يدفع ولو في معركة لا تكافؤ بين أطرافها ، نحمل فيها العصي ويحمل أعداؤنا فيها قنابل الذرة المتفجرة . !

هذا مفتحى غير ما نحن بصدده هنا . إن حق الدفاع غير أسلوب الدعاية والعرض والاستدلال .

والإسلام أغنى الأديان بمغريات القبول ، فإذا قلت إنسانا حظله الواجب من إدراك هذه المغريات فلن يعضه عنها الجماس القائم على الخشونة والجلافة والغيرة البالغة ، سواء كان ذلك عن إخلاص أو اضطرار . !

إن هناك أناسا أحيوا السنة عن صدق ، لكنهم أساءوا خدمتها بشئ من القسوة بدا عليهم أو آثموا به فتقهقروا في المجتمع العام وتقهقرت معهم السنة .

وفي الدنيا فتانون كثير يصرفون الناس عن الحق بسوء فهمهم فيه وسوء عرضهم له . وضيق المطن آفة فريق من المتعرضين للكلام عن الإسلام . حتى لقد أوقعوا في أوهام شتى أن الإسلام يوم يقوم حكمه فلن يسمع إلا صوته .
وهذا جهل بالدين والدنيا معا . .

ومن حق العالم كله أن يصيح : خذوا الطريق على أولئك الملتائمين ، قبل أن يوصدوا منافذ الفكر الحر على أهل الأرض .

يجب أن يعلم الناس عنا أننا — استجابة لديننا — حراس على نشر الإسلام بأسلوبه العتيق ، أسلوب الأدب والرونة والتجمل وأنا — لو ملكنا قوى الذرة — ما استعنا بها في إقامة دليل أو تدعيم حجة .

إن معتمدنا الأول والأخير هو الإبانة عما في الحق من جمال تهوى إليه الأفئدة ؛ وسلاحنا الفذ اجتذاب الألباب بما يقنعها ، لا بما يرغبها .

هذه نصيحتي لإحسان الصلة بالرأى العام .

أما الأمر الأول الذى يسبق تلك الوصاة فهو أن نضمن عناية السماء بنا ، وأن نستوثق أن الله معنا . وذلك بتطهير النفوس والتزام التقوى .

إن الغنى قد تطفئ ثروته :

والقوى قد تبطره قوته :

والأثم المتمكنة فى الأرض قد تدفعها أسباب الغلب إلى الفتك والاستعلاء .

أما أن يطغى البائس ويستكبر العاجز وينسى المستضعفون فى الأرض ربهم وما يحب له من توقير ، وعباده وما ينبغى لهم من مرحة .

فهذه هى الطامة :

ونحن المسلمين إذا كنا — على ما نزل بنا — لن نصحو من سبات ولن نرجع عن إعنات . وإذا كنا سنظل سراعا إلى مواطن الأثرة والحقد والقطيعة ، فكيف نرقب أن تعمل قوى السماء معنا ، وأن تمر جانبا المهيب .

إننا — فى هذه الحن المشابكة حولنا — أفقر خلق الله إلى تأييد الله . باصلاح ما بيننا وبينه ، والاستقامة على سننه السمح الرحيم .

ويوم تكون أحوالنا من السمو والسناء بحيث تجعل البشر يرمقوننا بإعزاز وإعجاب ، ورب البشر ينظر إلينا نظرة الرضا والقبول فسوف تتكشف هذه الكروب كلها .

أما أن نفضب الله بالعصيان وننأى عن خلقه بسوء السيرة ، فأمر لا تصلح به دنيا ولا يصلح به دين .

لو انهزمنا أمام الغرب هزيمة المسلمين الأول أمام التتار لأوشك الغرب أن يدخل فى ديننا وفصير وإياه سواء .

أما أن نتحول نحن إلى أخلاق التتار أنفسهم فتلك هزيمة لا قيام منها .

طبيعة الإسلام

أحق امرئُ بوظيفةٍ ما ، من كل استعداد له وتمت طاقته عليها . . فنصب القضاء يرشح له المبرزون في دراسة الشرائع والقوانين ، وأعمال الهندسة الكبرى والصغرى يقدم لها من أوتوا حظوظا موفورة من الدراية والخبرة ، وكذلك سائر شئون الحياة الأخرى ، لا يعد أحد من الناس أهلا لها حتى يستجمع الأسباب الميسرة لمباشرتها ، وإلا نُحَى غير مأسوف عليه .

واستكمال القدرة على ولاية وظيفه ما ، لا يقع بفتة .

إن الإنسان في هذا المجال كالثمرة ، لا تنضج إلا بعد مراحل متأنية ، فإذا أُنعت صلحت لما خلقت له ، أما قبل ذلك فإن فجأحتها تغرى باطِّراحها لا محالة .

وإذا كان الفرد لا يحمَد في منصبه إلا إذا نهض بأعبائه ، فكذلك الجماعات والأمم إن إصلاح الأرض وترشيد الحياة ليسا أعمالا هينة ، ليسا ادعاء يملكه أى قبيل من الناس .

إن الأقدار التى تتبرم بموظف مهمل في عمله ، تتبرم أشد وأوسع ، من أمة مهملّة في واجبها .

وكما تطرد الدولة الموظف الكسول التلاف ، تؤخر العناية العليا كل أمة أعجزها القصور وشللها الفساد .

نعم تؤخرها وتقدم من هو أكفأ منها على إصلاح البلاد ونفع العباد . .

وعندما تنظر إلى الأمة الإسلامية الأولى تعرف أن الرسالة التى اضطلعت بها في الحياة هى التى منحتها حق السبق ووضعت في أيديها الزمام .

ولقد شرحنا في موضع آخر كيف أنه كان من مصلحة البشر قاطبة أن تتحول السلطة عن الدول الكبرى يومئذ لتستقر في هذه الأمة الجديدة ولتبقى في ربوعها حيناً من الدهر .

إن السيادة التى واثت المسلمين الأولين لم تجب عفو الخطاير أو محض الصدفة ، ولم تجب ربح قمار أو جائزة « يانصيب » كلا .

إن الدولة التي أقامها المسلمون الأوائل بنتها نفوس بلغت شأواً بعيداً من مجادة الخلق وسعة الكفاية وعمق اليقين وروعة التجرد وصدق الإخلاص .

ومن وراء هذه النفوس الكبيرة تلمح صاحب الرسالة العظيم يتعهد القلوب بالصقل ، ويأخذ النفوس بالأدب الشامل ، وينسق الصفوف بالوعى لا بالغباء ، وبالخلق لا بالهوى .

وقد تستطيع عصابة من الناس أن تخطف « حكماً » بالاغتيال والنسف أو بالاغتيال والعسف ، بيد أن نسبة هذا « الحكم » لله حق كبير .

إن الانتساب لله يقتضي شمائل أنبل وفضائل أجل مما تواضع الناس على إكباره من شمائلهم وفضائلهم .

وفي أقطار العالم اليوم حكومات يشرف عليها رجال أولو عزم وبأس ، وهي حكومات ناجحة في حدود برامجها وأهدافها ، ولن نبخس أصحابها حقهم من تقدير .

لكن البؤن بعيد بين حكم ينجح في إسعاد شعب ما ، وبين نبوءة انخلعت من حظوظها الخاصة ومشت في الأرض تفرس أعواد الوحى ، وترقى بالعالم إلى آفاق أزهى وأنضر ، تريد أن يعرف الناس ربهم الذى جهلوه ، وأن تُمسكهم بكتابه الذى جحدوه وأين ورَّاث هذه النبوة ، ورعاة هذا الميراث ، بل سل قبل ذلك : أين أساليب الأنبياء في العمل والبلاغ والإعذار ؟

لقد ضجَّتْ نفسى من أناس تنقصهم القدرة على إقامة حكم لأنفسهم ثم يزعمون أنهم يريدون إقامة حكم لله ؟ ، بهم ؟ كيف ؟ بأدوات معطوبة ووسائل مقلوبة وغرور بعيد . . ؟

إن الأمة المسلمة ، إذا لم تدعُ للإسلام بسيرتها ، صارت وبالا عليه .
فإن عبثاً بالنصوص التي بين أيديها واضطراب أمورها نتيجة هذا العبث ، سيكون فتنة تصد الآخرين عن اعتناق هذا الدين .

وقد فسر العلماء قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » بما يشبه هذا ، قال مجاهد : لا نعدبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . .

إن الرجال الذين يحملون الحق يجب أن يشرفوه بعملهم . لا أن يشوبوه بهوهم ، فإن إهانتهم له تبعه الكثير عن قبوله ، وقد يدخلهم ذلك في نطاق مَنْ عَنْهُمْ الْآيَةُ « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ » .

إن الموائيق التي أخذها الرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الأولى على الأنصار الداخلين في دينه تستدعي التأمل ، كان الإسلام محصوراً مُعْتَصِياً في شعاب مكة يتربص أعداؤه به الدوائر وتهدد مستقبله الخطوب ، ومع ذلك فإن اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالأنصار الجدد لم يتعد الطريق المرسوم لتكوين الرجولة المؤمنة ، فبايعهم أولاً على ترك المناكر الشائعة من شرك وسرقة وزنا وبهتان ، ثم استوثق من أنهم توابون يمودون إلى الله عجولين ، إذا باعدهم الشيطان عنه .

فلما رست مكارم الأخلاق في جذورهم واستقامت مع أصول التقوى طريقهم جاءت البيعة الأخرى على الكفاح والتضحية .

والقرآن النازل بمكة سار على هذا السنن ، رَبِّ الرِّعِيلِ الأول على الإيمان والعفاف والأدب والوفاء ، وصنع منهم نماذج رِيَّةً للدعوة التي ينادون بها ، فلما اصطدموا بقوى البغى نزلت ملائكة السماء لتؤيد إخوانها على الأرض .

إن العالم شهد قديماً وحديثاً ألوفاً من الجنود المرتقة يسيرون في ركاب الجيوش الغازية ابتغاء السلب والنهب . .

وهؤلاء الغامرون من طلاب المنافع — ولو بأرواحهم — ليسوا أصحاب دعوات ولا حملة رسالات .

وما كان محمد صلى الله عليه وسلم يجمع أمثالهم حوله بل ، ما كانوا هم ليطبقوا السير معه وهو يكلفهم بالصلاة والزكاة والذكر والعبادة . . فطبيعة الارتزاق لا تقبل دروس التربية .

ماذا يصنعون في قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا : مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

إن هذا الحديث مبين عن طبيعة السلام في الإسلام وكاشف عن العروة الوثقى في تعاليمه ، وعن الغاية التي يدفع عباد الله إليها ، فإذا أكره بعدئذ على حرب خاضها ليخلص منها إلى هذه الغاية وحدها .

دروس التربية العملية ومراتب الارتقاء النفسى هى في الإسلام كيان الفرد وكيان المجتمع ، وهى وسيلة وغاية وسبب ونتيجة معا .

روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : كان إذا نزل على رسول الله الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فلبثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا !

ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة .
ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون الخ . . . الآيات المذكورة صدر سورة المؤمنين .

أترى أحداً يجمع هذه الشيم الرفيعة ثم يضل أو يزيع أو يجاهد لمغنم عاجل ؟
كلا . . . ولو حرصنا على اتباع منهج الإسلام في عملنا لانتهى بنا إلى خير كثير .
إن التأسي برسول الله لازم علينا ، فلنعد إلى أنفسنا ، ولنستأنف السير على بصيرة .
وإني لأسجل هنا ما كتبه الأستاذ أحمد حسن الزيات في التنفيذ بما يصطنعه « البعض » من أساليب مخزية في خدمة الإسلام . قال :

هل قرأت منذ يومين في الصحف ما أذاعته شركات الأنباء من أن عصابات مسلحة تألفت في اندونيسيا باسم الدين وسمت نفسها (جماعة دار الإسلام) ، وسيلتها الإرهاب والقتل والتدمير والنهب . وغايتها إقامة دولة إسلامية تحكم بدستور القرآن وتقضى بشريعة الله . وقد بدأت (جهادها) بغارات دامية على بعض القرى في غرب (جاوة) قتلت فيها عشرين جنديا ومدنيا ، ودمرت أربعة وستين منزلا بعد أن سلبت ساكنيها الحياة والمال ! ! فإذا دهى الحنيفية السمجة حتى تبدلت سنتها في هذه النفوس فارتد نورها ظلاما وترياقها سما ، وسلامها حربا ، ونظامها فوضى ؟ هل يرى هؤلاء الضالون مازعمه (الباطنية) من أن للقرآن ظاهرا هو ما يعلمه الناس ، وباطنا هو ما يعلمونه هم ؟ فالللال هو الحرام ،

والحرام هو الحلال . والمعروف معناه المنكر ، والمنكر معناه المعروف ، وكذلك يقولون في الصلاح والفساد والخير والشر ؟

حقيقة الأمر وواقعه أنهم لا يعلمون من القرآن ظاهرا ولا باطنا ، ولا يفقهون من الدين أصلا ولا غاية ، إنما هم كقوم عثمان : طعام مثل النعام ، يتبعون أول ناعق ، والناعق قد يكون طماعا يريد المال ، أو طامحا يريد الملك . وعلة ما أصاب الإسلام من الانتكاس في هذه الحقبة الأخيرة ، أن المثقفين من ذوى البصائر والضامرات قد شككتهم مادية العلم في روحية الدين ، فوقفوا من الإسلام موقف المحاييد ، لا يؤمنون ولا يكفرون ، وأخطأوا القياس ، فظنوا كما ظن بعض دول الغرب : أن الدين عائق عن التقدم فقطعوه عن دنيائهم وتركوه للعامة وأشباههم من جهال العلماء يقترون على الله مالم يوح ، وينسبون إلى رسوله مالم يقل ، ويؤولون آى الكتاب على الوجه الذى يدينهم من الثمرة الحرام ويؤديهم إلى النفقة الضارة ، ويحشون رءوسهم ورءوس الأغرار والسذج برواسب من مخرفة اليهود وصوفيه الهنود ، لا تدفع إلى الإمام ولا ترفع إلى فوق . لذلك اختلف مفهوم الإسلام في أذهان أهله اليوم عما كان في أذهان عمر وخالد ، والرشيد والمأمون ، والناصر والحكم ، والعزیز ، والحاكم ، في صدر الدعوة الإسلامية ، وفي قلب الحضارة العربية ، مفهومه اليوم في أذهان الخادعين الطامعين من طلاب الغنى أو الحكم الإرهاب والاضطراب والغيلة والفرقة والتزمت والتعصب ، وكان مفهومه في أذهان صحابة الرسول ، وخلفائه العدل والإحسان والوئام والسلام والنظام والتسامح والمحبة .

فلنجدد أولا هذا المفهوم في أذهان الناس ، ثم لندع بعد ذلك إلى أن يكون الحكم له والقضاء به . وتساألنى من الذى يستطيع أن يحدد هذا المفهوم على النحو الذى أنزل الله القرآن به وأصلح أمر الأولين عليه ، فأقول لك : إنه الأزهر . ونقول نحن : ذلك ، يوم يعود الأزهر إلى الكتاب والسنة ويجعلهما لباب ثقافته ومحور دراسته .

ثم يوم يوائم بين ما يعلم من دين . . . وما بلغته الحياة من أطوار .

من تجارب داعية

[من عشر سنين أثبتت هذه الكلمات
ويبدو أنه لا يزال فيها ما يغرى بمطالعتها]

ذكاء في الضلال وغباء في الهدى :

أكره الرجل يكون قويا في عصيانه فإذا اهتدى كان ضعيفا في تقواه .
وأكره الرجل يفهم دقائق الأمور ، ويحسن مواجهة الحقائق ، ولا يستطيع أحد
أن يضحك منه إبان انطلاقه مع شهوته واسترساله في مطاوعة أهوائه .
فإذا تاب وأناب استغلق تفكيره واضطرب تصرفه .

فلو كان تاجرا لم يحسن الربح في تجارة الآخرة ، كما كان يحسن في تجارة الدنيا
ولو كان رئيسا لم يستطع ضبط شئونهِ ، كما كان يديرها قبلا بكل دقة .

ومن المضحكات ، أنى أعرف رجلا كان في جاهليته بارزا مرهوبا ، فلما طلق حياة
الشقاوة آثر أن تكون طاعته لربه على نحو لاغناء فيه ، فهو يصلي الصبح في الحسين
والظهر في السيدة ، والعصر في الإمام الخ .

ثم هو يندفع في هذه العبادة بحماسة تجعل قلبه يتعلق بما أدخله العرف الخاطيء
على الدين من قشور ومظاهر ؛ فكأنما انتقل من ضلال إلى خيال .
هذا إخلاص قتل الجهل قوته ، وبدء فائدته .

والإيمان يحتاج إلى العلم والذكاء ، كما يحتاج إلى طيبة القلب .
ويحتاج إلى المهارة والحنكة ، كما يحتاج إلى مرونة النفس .
ولأمر ما ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعز الإسلام بأحد العمرين

كلمة الربحامة :

قد يشترك بعض الناس في وصف واحد ، ولكن اختلاف أنصبتهم منه لا يجعل
الحكم لهم كما لا يجعل الحكم عليهم ، سواء في الخير أو في الشر !
فإذا كانت ٥٠ ٪ هي النسبة الفاصلة بين النجاح والسوب ، فليس معنى هذا
أن رسوب الذي نال ١ ٪ كرسوب الذي نال ٤٩ ٪ أو أن نجاح الذي نال
النهاية الصغرى كنجاح الذي نال أعلى الدرجات ، وإن اشتركا جميعا في وصف
النجاح والرسوب .

وقد يشترك بعض الناس في النطق بكلمة واحدة ، ومع ذلك لا يعنى أحدهما من المعانى ما يعنيه الآخر ، ولا يقصد أبداً إلى ما يقصد إليه الآخر من أهداف .
وخير مثل لذلك ما ذكره أحد الأدباء من أن « الحمائل » فى محطات السكك الحديدية يقول « الدنيا كلها متاعب » وهو قول يكاد يتحد فى لفظه مع قول أبى العلاء المعرى :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راعب فى ازدياد
فأبو العلاء لا يشكو من حمل ثقيل ناء به كتفه ، ولكنه يقرر فلسفة التشاؤم ويستعرض أموراً لا عداد لها ، قيل أن يرسل حكمه على هذه الدنيا .
وكثير من المسلمين يشترك فى النطق بكلمة التوحيد ، فيهم المستغرق ، وفيهم
الذاهل ، فيهم المتفانى ، وفيهم العاصى . . . وفيهم من يقولونها عندما يشبهون
فيعطسون فيتشهدون .

فإذا أردت توزيع الأحكام على هذه الحالات فإياك إياك أن تخلط .
لا تعط مرتبة الامتياز لكل ناجح ، فإنها للأوائل فقط .
ولا تعط صفة التفكير الفلسفى لحمالى المحطات ، فإنها لأصحابها من طبقة
أبى العلاء .

وإذا سمعت أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : من قال « لا إله إلا الله دخل الجنة » فاعلم أن البشرى ليست لكل قائل . .
فما أكثر الذين يهبطون فى فهمها إلى درجة حمالى المحطات فى فهمهم لمتاعب
الحياة ، وما أكثر الذين ينجحون فيها بالنهاية الصغرى ، بعد مختلف الشفاعات
والاستثناءات . .

صماسة :

للعمامة مفارقات فى أقوالهم وأعمالهم تستحق أن نقف لديها قليلا لنعجب من
كثرة المسارب النفسية ، التى تهرب إليها الحقائق ، وتتوارى فيها إلى حين . !
جاءنى مرة رجل يسألنى عن حقيقة صلاة التسابيح ، فقلت له : لا داعى لأن
تعرفها لأنها لا تنفعك بشئ .

فقال : كيف ، انتهاني عن الصلاة ؟ قلت له : أنهاك عن الدجل ، فأنت شخص تخون في أداء واجبك ، وتفطر في ضرورات دينك ، فتفكيرك في استحکال نوافله كتفكير بائع الفسيخ في الروائح العطرية ، قبل تنظيف جسمه وغسل ثوبه .

وسمعت خطيباً يرغى ويزيد ، ويبرق ويرعد ، يقول : إن الناس تهاونوا بالدين وأصبحوا يلقون بضائهم في أوراق الصحف والمجلات ، وفي ذلك إهانة للإسلام وانتهى الرجل من قوله ، ثم بدأ أن أفرج عن نفسي بمناقشته .

فقلت له : يا فلان . ولكن الناس تعدوا من حدود الله ما هو أخطر من ذلك وأبين في ضلاله ، فلئن أغضبك اتخاذ الصحف لفافات لشتي السلع ، فهلا أخرج صدرك من قبل أن الناس اتخذوا آيات القرآن هزوا ولعبا وأن أركان الإيمان مهدمة في نفوسهم ومجتمعاتهم وأجاثاتهم ؟ ؟

وخرج الرجل وأنا أؤكد أن عين الشيطان قريرة بجهاذه الهزيل .

لقد ذكرني الاستمساك بهذه التوافه بنبأ قوم جاءوا يستفتون عن حكم الصلاة في ثوب عليه دم البعوض ! على حين كانت سيوفهم مخضبة بدم البشر ! والجنون فنون ، والنفاق أيضا فنون .

ولعل من عجائب الجهاد في هذا العصر ، أن الجماعات الإسلامية أعيابها أن تعمل للدين كله ، فجزأت الفضائل والردائل ، وتخصصت كل طائفة في محاربة رذيلة بعينها ، ومناصرة فضيلة بعينها ، والوقوف على الحياد فيما وراء ذلك من فضائل ودرائل .

وكذلك يكون الجهاد :

نهاية الجدل :

دين المرجثة شائع الآن في أغلب الأقطار الإسلامية :

والمرجثة طائفة تربطها بالمناقين الأولين أواصر متينة ، ترجع كلها إلى ترك الأعمال وإهمال التكليف ، والتهرب من الواجبات والتبعات ، والزعم بأن الإيمان منفصل عن هذا كله .

ولاشك أن هذه الإباحية في الدين ، هي التي هدمت المسلمين ، وأسقطت دولتهم .
فما يعقل أن يقوم بناء على هذا الانحلال الشائن .

والعلة في شيوع هذا المذهب جاءت من الإبقاء على الجدل الكلامي ، الذي دارت
رحاه بين الفرق الأولى للمسلمين . ثم دراسة هذا الجدل للعامة من المتعلمين ، والعامة من
الرعاة ، والغفلة عما سيخلفه من آثار سيئة .

في القرآن آيات وعد ووعد ، لو تركت في مجراها الطبيعي لأدت رسالتها الحققة
في توجيه النفوس إلى الخير ، ولحفظت على المسلمين قوتهم ودولتهم .

أما الآن فلا يروعى إلا أن آيات الوعيد يعرفها الكثيرون مقرونة بالتأويل
الذي يصرفها عن ظاهرها ، وبالتالي يسلبها أثرها التوجيهي المطلوب .

هذا التأويل القديم جهد العلماء في تقريره هدماً لمذهب الخوارج .

ففهم الجمهور منه نصفه الذي يحلوه ، وترك غلو الخوارج . . . إلى باطل المرجئة ،
وضاع لب الدين الصحيح وجوهر الحق الواضح في تيار هذا الجدل .

إن جماهير المسلمين الآن يجب أن يفقهوا دينهم كما أنزله ربهم ، وليتق الله
أولئك العلماء الذي يسردون جدل الفرق الأولى سرداً مجنوناً .

فربما وضوا السلاح المرفف في أيدي من لا يحسنون استخدامه ضد أعدائهم
بقدر ما يحسنون استخدامه في إيذاء أنفسهم وجر البلاء عليها .

هكته :

طب الأرواح كطب الأجسام . . . علم وفن .

يزور الطبيب رجلان مريضان يطلبان لديه الشفاء ، من ضعف يحسان به ، فيصف
الطبيب الغذاء الجيد لأحدهما لأنه مريض بالسل ، ولا يصف هذا الغذاء للمريض الآخر
إذ أنه مصاب بالسكر .

ومعنى هذا ، أن سبب الضعف هو الذي يملئ نوع الدواء .

ومثل هذا يقال في علاج الأرواح واختيار الأدوية الناجمة لمرضى القلوب .
فقد يصف الرسول صلى الله عليه وسلم دواء لشخص ما ، فيكون من الخطأ
أن نصف الدواء نفسه لشخص آخر .

لأن الرسول الحكيم وضع لهذه الحالة الأخرى دواء آخر يخصها .
المربي الجاهل قد يسيء إلى الدين وإلى الناس ، بعدم بصره بأسباب الداء وأصول
الدواء ، فيصف للإيمان المصاب بفقر الدم رياضة تقتله ، ويصف للإيمان المصاب
بضغط الدم علاجاً يزيد سوءه على سوء .

إذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تغضب » فاعلم أنها لم تقل لشخص
بليد العاطفة ، فلا تقلها له ، وإذا قال « اتقوا الله وأجلوا في الطلب » فاعلم أنها لم
تقل لقعدة البيوت فلا تقلها لهم ، وإذا قال « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق »
فاحذر أن تقولها لرجل كسول في العبادات . . الخ .

إن قراءة النصوص — وخاصة السنن — دون معرفة الملابسات التي أملت بها
ليست باباً إلى العلم الصحيح ، ولا وسيلة إلى التربية الجيدة . .

أخرج ابن أبي خيثمة من طريق ابن إسحاق عن عمر أو عثمان بن عروة عن أبيه
قال : قال أبي — الزبير بن العوام — : أدنى من هذا اليماني — يعني أبا هريرة —
فإنه يكثر من الحديث عن رسول الله . فأدنيته ، فجعل يحدث . والزبير يقول
صدق ! كذب !

فقلت : ماهذا ؟ قال : صدق أنه سمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولكن منها ما وضعه في غير موضعه .

أخطاء :

عندما قامت هذه الحرب^(١) أعطيت نفسي حق الباحث المدقق في أسبابها ونتائجها
وبدايتها ونهايتها ، وتنبأت بمصير أسود لحضارة الغرب ونظمه ، كما تنبأت بمستقبل
زاهر لبلدان الشرق الإسلامي المتعب .

(١) الحرب العالمية الثانية

وجلست أنتظر من الأيام أن تصدق ظنوني . فإذا بالأيام تتكشف لي عن نقائص مزعجة .

وإذا بي أجد أن آرائى كلها أو أكثرها خطأ في خطأ ، ولم تجد فلسفتى الفارغة شيئاً في تغيير الواقع .

تبين لي أنه ليس صحيحاً أن الحضارة الأوربية تنهار بمثل هذه السهولة ، أو تختفى في مثل هذه المدة ، نتيجة حرب أو حربين .

فإن هذه الحضارة قامت بعد قرابة مائتى عام من اليقظة العقلية الجارفة ، وغارت جذورها في بيئات المغرب إلى عمق بعيد ، فإن احترقت ثمارها يوماً ، تجددت أغصانها وثمارها ما بقيت عوامل الحياة موفورة بتربتها .

وربما لم يزد الحصاد المتكرر إلا نمواً .

ومهما كان الحصاد شديداً ، فإن النمو بعده يكون شيطانياً عاتياً .

على أن الجوانب المادية لهذه الحضارة ليست شراً كلها ، وليس من مصلحة العالم الإتيان على كافة معالمها .

أما مستقبل الشرق الإسلامى فهو - برغم ما نؤمل - ليس واضحاً مشرقاً ، ذلك أن طول الأمل وكثرة الانتظار لا يردان السواد بياضاً فإن علل المسلمين التى أصيبوا بها كأمثلة بينهم كونا غريباً .

لقد اعتري بناءهم الحيوى من الضعف العقلى والأدبى ما يمتري الأجسام ، من فقر الدم ، وضعف الأعصاب ، ويوم يلح الإنسان بواذر الشفاء من هذه الأدوية ، يوم يلح فى الأفق طلائع النهضة الصادقة ، ويوم يتحدث عن مستقبل الشرق الباسم .

أما بناء نصرنا على هزيمة غيرنا ، وانتظار النجدة من الغيب المبهم ، فذلك مسلك هو الحق بعينه .

نعم قد تكون هناك عوامل مساعدة ينتفع بها فى تدعيم نهضتنا ، ولكن العوامل المساعدة ثانوية إضافية ، أما عوامل النصر الأولى فهى ما نقوم به نحن من تلقاء أنفسنا وبقوة سواعدنا ، لا ما نحلم به من آمال .

المرتدية والنطيحة :

هذه قصة شهدت وقائعها ولم أعجب لها ، لطول مارأيت من أمثالها ، وأحسست من آثارها .

كان لرجل ترى ولد مريض البصر ، عاث الرمد في عينيه برغم جهود الأطباء المتوالية ، حتى كاد يأتى عليهما لولا بقية من ضياء يعرف بها الولد ألوان الحياة . وجلس الأب يوماً فقال لأصحابه : أنا وهبت ابني لله ، وسوف أدخله الأزهر بعد أن يحفظ القرآن !!

وماهى إلا أيام حتى كان الولد يرتل الآيات ويستظهر الصفحات على يد فقيه أعمى معروف بالمهارة !!

ولكن القدر العجيب لم يشأ أن يترك المسألة تمر على هذا النحو ، فإن الولد الذى جار الطب فى عينه ، بدأ يصح ، وكلما مرت الأيام كلما ازداد بصره حدة ، وازدادت أجفانه نضارة وإشراقاً ؟

وحار الوالد وجاشت فى نفسه شتى الخواطر ، لقد وهب ابنه للأزهر على أساس أنه أعمى أو شبه أعمى ، وذلك ما يجعله يقفه على التعليم الدينى ، من باب قول الله « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ » .

أما الآن فماذا يصنع ؟

لم يطل تردده فماهى إلا أيام حتى كان الفقيه الأعمى طريداً والولد ملتحقاً بإحدى المدارس المدنية !

ذلك مبلغ عناية المسلمين بدينهم ، لا يهبون لتعلمه إلا طوائف من الفاس ، فيها العمياء ، والموراء ، والمرتدية ، والنطيحة ، وما أكل السبع !!

أما أصحاب المواهب العريقة والخصائص الدقيقة ، والوجوه الصبيحة ، والأجسام المكتملة ، فليس من البر أن يظفر بها دين الله !!

أخشى أن يرتفع المستوى الصحى فى الأمة ، فلانجد من يتعلم الإسلام . . .

بين الأوكفاء والأرعباء :

قال لى صديق ذكى - ظلمته أوضاع الحياة - : لو أن هؤلاء القصار - أعنى قصار
الباع والرأى والتدبير - أحبوا أن يتناولوا على غيرهم ، بطريقة لبقة هادئة لكان الأمر ،
ولتساحنا فى ارتفاع رؤوسهم على رؤوسنا !

قلت له : وما هذه الطريقة التى ترضاها ؟ قال : لو صعدوا على أكتافنا لما وجدنا
ضيراً فى أن نحملهم

ولو استووا على قوائم من خشب فاستطالت بها قاماتهم ، وامتدت بها أعناقهم
لما شعرنا بخرج فى استواء الصفوف حتى على هذا النحو !

أما الذى يملأ النفس حنقاً أن يحاول هؤلاء الأغبياء تحطيم أقدامنا حتى نعجز
عن الوقوف .

ومن ثم يتناولون فى الحياة كيف يشاءون !

قلت - وأنا أبتسم - : يا صديق إن الذكاء كالجمال ، ربما جنى على صاحبه .

ألا تعلم أن عمر نبي أحد الملاح من المدينة ، سدا للذرائع ؟

قال لى - ضاحكاً - : إذا أنصرف قبل أن تفكر فى تفريبي .

وذهب صاحبي ولم يذهب من نفسى وقع حديثه .

فقد طافت برأسى صور من تاريخنا الغابر والحاضر عرفتني مدى الخطر فى تولية
المناصب الكبرى من ليسوا لها أهلاً .

فإن هؤلاء الضعاف لا يستعينون على ضعفهم باصطفاع الأكفاء واحترام
مواهبهم وتقدير كفاياتهم ، بل تراهم يحقدون ويخذرون ، ثم يبذلون جهدهم فى إقصاء
كل ذى نباهة أو فى استغلال حاجته إليهم - إن كان ذا حاجة - فيصرون على
إذلاله وتقليم أظفاره .

وتأمل فى تاريخنا وفى مصارع كثير من أئمة العلم والدين ، تجد مصداق ذلك
واضحاً فى تهشيم الأغبياء لرؤوس الأذكياء ، لا لأقدامهم - كما قال صديق -
خشية على منازلهم التى قفزوا إليها فى غفلة الزمن .

ألا فلنحسن اختيار من يَكُونُ أمورنا ، فإن النبی لا ينفع ولا يترك لغيره
المجال كي ينفع .

فالنسكة به مضاعفة ، والمصيبة فيه فادحة .

لست أستكثر على الرجل الممتاز أن يعرف لنفسه قدرها وأن يقرر لها حقها !
وليست مبالغته في ذلك جرماً يؤاخذ عليه بعنف ، ولكنه قد يكون إفراطاً
ينبه إليه بلطف !

إنما الشيء الذي يستثير النفس أن يكثر الادعاء العريض ، وأن ترى الرجل في
منزلة غريبة يراها لنفسه ، فيصبح وليست له كفاية القواد ، ولا طاعة الجنود .
لأنه - في رأى نفسه - يجب أن يتقدم .

وهو يحرص على ذلك ، بينما لا تساعد مواهبه على الوقوف في الطليعة
وتحمل العبء !

ثم هو يكره أن يتراجع إلى مستقره العتيد وأن يتقبل - في طواعية - ما يلقي
إليه من توجيه .

وقد يؤثر العزلة على العمل ، أو يركب العناد رأسه ، فيكون على نفسه وعلى الناس
شراً مستطيراً !!

هذا المرض شائع بيننا ، فإذا أراد قوم أن يؤسسوا جماعة - مثلاً - في بلدهم
كان هذا المرض هو أول عوائق تقدمها وأول أسباب انحلالها . .
وما أكثر ما نجد مظاهر هذا الادعاء الذي يجعل الرجل - كما قلت - ليس له
كفاية القواد ولا طاعة الجنود .

وعندما يشبع الادعاء تفقد الحقائق قيمتهما ، ويستبد الجهل بأصحابه ويتقهقر العلم
والخلق ، وتضطرب موازين الأمور ! !

وذلك هو ما كَوَّنَ بيننا جيلاً من الناس يحسنون ، إصدار الأوامر فحسب ،
ويريدون أن يشرفوا من بعيد على تنفيذها .

فإذا تغير الوضع وصدر إليهم أمر ، لم تجد أمامك تنفيذاً ، بل لا تجد أمامك أحدا .

هذه الأمة :

دعاية المسلمين لدينهم لن تقوم لها حجة ، ولن تكون لها وجهة ، إلا إذا تغيرت أحوالنا العامة ، وبُدِّلَتِ الأرض غير الأرض .

فإن جمهور الأجانب ليسوا فلاسفة ، حتى يفصلوا بين الدين وأصحابه ، وحتى يهضموا أن مبادئ الإسلام شيء وعمل الناس بها شيء آخر قد يناقضها تمام المناقضة وقد لا تكون صلته بالإسلام أوثق من صلة الكفر بالإيمان ! !

... أمس رأيت جنازة تسير وأمامها صفان من المأجورين بملابس التشيع ، وخلفها جماعة يتصايحون بالتكبير ويتمايلون على أنغامه ، ومن خلفهم عربات تحمل النساء النادبات ، وقد اختلط صراخهن بصياح الحوزية ، وهم يكيلون السباب لمحيرهم ، كي تضبط سيرها في موكب الموت الرهيب ! !

وقد لا يكون في هذا - على أنه منكر - ما يغرى بالتعليق ، لأننا ألفنا المنكر ، فقلما نغضب له . . .

إنما المؤسف أن خلف هذه الجنازة وملحقاتها ، كانت عدة سيارات تمشي يبطء وكانت تحمل فريقا من - الإنكليز - المحاربين .

ولمحت إلى جانب عجلة القيادة في إحدى السيارات فتاة ترتدى اللباس العسكري وتنظر إلى النسوة الصاخبات الباكيات ، وعلى فمها ابتسامة هائلة !

ودارت عيني بين وجهها ووجوه سائر الجنود المحملقين ، ثم بين أفراد الجنازة الشرقية الإسلامية المأججة بما فيها ، وشعرت بسخونة تكاد تحرق رأسي وبحياء شديد يستولى على أوصالي . وطن في أذني صراخ الصارخين وضحك الضاحكين ، ثم أدركت أن كل شيء في هذا الشارع يتساءل عن وجودي ، كعالم دين ، أو رجل دين - كما يقولون - فيهمس : أي معنى له ؟ أي معنى له !

فنونه الدعائية :

يظهر أن دعاية القلم واللسان مهما اتسعت فهي قليلة النتائج ، ضئيلة الآثار .
وقد يكون في الكتابة أو الخطابة شيء من الغناء إذا استخدمتا لغرض محدود ،
ولكن إذا كان الأمر يتعلق بإقامة نظام سياسى أو اجتماعى ، فالكتابة ، أو الخطابة ،
أسباب مساعدة ، وليست وسائل مباشرة للنجاح .

نعم قد تحدث الدعاية القوية بصحفها ، وخطبائها جواً يخلب أبصار الناس
بألوانه ، ومظاهره ، وقد يدوم ذلك أياماً أو أعواماً ، غير أن هذا الجو الصناعى
لا يلبث أن يزول ، كما تزول غيوم الدخان ، إذا دفعها الريح بصدرها فجعلتها — بعد
ما سدت الأفق — هباء باطلاً .

ومع ذلك فالذين يميلون بطبائعتهم إلى الجدل والثروة يؤثرون هذه الدعايات ،
ويعلقون عليه آمالاً واسعة و يرون الانتصار فى معركة كلامية أمراً له ما بعده فى
توجيه التاريخ ، والهيمنة على الحوادث ! !

وخصوصاً إذا كان الحق نصيب هؤلاء ، فيما يمتقدون ويدافعون . إنهم عندئذ
لا يدركون إلا منطق الكلام وحده ، وهذا — للأسف — ما وقع فيه المسلمون ،
وما اتجه إليه دعايتهم منذ زمن بعيد ، يحسبون أن مناظرة أهل الأديان الأخرى ،
والانتصار عليهم فى نقاش علمى حاد ، يجدى على الإسلام كثيراً .

وجرم ذلك إلى ترك العمل الصامت ، وهجر المسلك المغرى بفضائله .
على حين أن المبشرين المسيحيين جعلوا الأساس الأول فى دعايتهم عكس هذا
الانجاء ، فجعلوا من الاشتغال ببعض الأعمال الإنسانية وظيفتهم الدائمة . واختبأوا
بين ما توحى إليه هذه الأعمال فى النفوس ، ثم بدأوا يقومون بدعايتهم .
ومن ثم فتحوا المدارس والملاجئ والمستشفيات ، وأثرفوا على تحقيق غايتها
الأصلية ، والتبعية بمنابة ونظام ، وساعدتهم على المضى فى طريقهم أنهم اختيروا
بطريقة غير الطريقة التى يختار بها دعاة الإسلام عندنا ؛ طريقة اختيار
المجازين فى أجسامهم ، والقاصرين فى ثقافتهم ! ألا فلنراجع أنفسنا ! إن الدعاية
للإسلام لا معنى لها إلا بعد إقامة دولته وتكوين أمته ، وحشد النابهين من بنيهِ
لخدمته ، وإلا فإن الكلام الكثير لن يكون إلا لغواً .

متاعب الحياة :

لما انتهى العام السابق ، ووقفتُ على أعقابهِ أودع لياليهِ ، بجلوها ومرها ، بدرت مِنِّي لفظة تدل على الشعور بالضيق ، وعلى الإحساس العميق بما قد يكون أصابني من المتاعب والآلام :

وما كاد يساورني هذا الخاطر الضعيف المهزوم حتى راجعت نفسي ، وعادوني رشدي ، فعلمت مقدار ما أفسد حياتنا من معاني الضعف الإنساني .

إنني أشبه الطفل المدلل يصرخ للحوادث التافهة ، ويشور لأقل المضايقات ! .
والحقيقة أنني في ذلك كسائر المصريين — وربما كسائر الشرقيين — أنسوا بحياة الراحة ومعيشة الخفض ، فهم لا يطيقون أى تمكير لها !

وأرهفت إحساساتهم جدا فهم يحسّمون ما يمسهم من أشواك الورود ، فإذا بها طعنات رماح ، وتذكر قول القائل في وصف هذا الضعف العجيب .

خطرات النسيم تجرح خديه ولس الحرير يدمى بقلبه
ونتيجة هذه الدعة التى ألفناها كانت وخيمة فى نظرتنا للأمر ، بل كانت
وخيمة فى أوضاعنا الاجتماعية ، والسياسية .

فالموظف الذى يضطرب إذا نقل إلى الصعيد ماذا نقول فيه إذا قارنته بابن لندن
أو بنت لندن التى تجوب شوارع القاهرة آمنة ! ؟

والشاب الذى يشعر بالخطر على حياته الغالية لمجرد الوهم ، ماذا يكون أمره إذا كلف
— كما يكلف غيره — بأن يظل أياما طويلا فى قلب غواصة تجوب أعماء المحيطات ،
وتسكون بمن فيها كالذئب الجائعة ترتقب الفرائس لتتقضّ عليها .

والرجل الذى يجزع من خسارة قرش ماذا يكون موقفه إل جانب من يفضل
نفس بيته على الاستسلام للذليل . ؟

لنكن أقوىاء لا تهزنا النوائب ، ولا تقع منا إلا موضع أقدامنا .

لماذا لا يحيط بشغاف قلوبنا إطار من الصلابة والقوة يحميننا من الخضوع لمتاعب
الحياة ، ويشير فى دماثنا غريزة العناد والكفاح ! فإما سدنا الحياة ، وإما فقدنا الحياة .

الأغاني :

من الخير أن نعلم شيئاً عن منازع الطبيعة الإنسانية التي لا يصح أن تقاوم ، لأنه لا معنى لمقاومتها ! والغناء بعض هذه المنازع التي ترتاح إليها النفس وتسلم إليها الجماهير مقادها ، وتجذب فيها متنفسا لمواطفتها المكبوتة .

والكثرة العظمى من الناس يصنفون إلى الأنعام المتسقة والأصوات الطروب ، ويتفتح المستمع من مشاعرهم على هذه الأصداء الشجية أو المرحية .

وربما نسوا متاعهم وتجدد نشاطهم واستأنفوا السير الجاد في مواكب الحياة ، كما تستأنف الإبل اندفاعها في قلب الصحراء على حذاء القائد اللبيب .

وقد فهم قادة الأمم هذه الطبيعة ، فاستغلوا الأغاني في سبيل تدعيم نهضتهم والتمكين لها من أفئدة الناس .

وكان للصحابة غناء طيب ، حفروا الخندق حول المدينة على نبراته ، وذرعوا الصحراء الفسيحة وهم يرددون مقطوعاته .

وللشعوب المتحاربة الآن غناء أدى رسالته الرهيبة في دفع أبنائها إلى الميدان الدامي ! !

ونحن لانكر الغناء ولا نتجاهل أثره ، وكثيرا ما ألح طوائف الشباب تسمع وتستعجب ، فلا يؤسفني إلا شيء واحد !

هو أن هذا الاستماع يثير دماء الشهوة ولا يثير دماء التضحية .

ويهيج عواطف اللهو الخبيث ، ولا يهيج عواطف الروح الطيب والنخوة العالية .
إننا لانحرم الشعوب من متعتها ، ولكن هذه المتعة ستقتلها إذا تناولتها بهذه الطريقة المجنونة .

إننا بحاجة إلى الأغنية الجادة ذات المعاني الكريمة والأهداف النبيلة .

فلنوجد هذه الأغاني أو هذه الأناشيد ، ولنزاحم بها ما يملأ حياتنا الشرقية من لغو وعبث . . .

إن الشعوب دائماً الحركة فإن لم يتحكم في حركتها أهل الخير تحكم فيها أهل الشر .

وهي دأمة الغناء ، فإن لم يغن لها العقلاء غنى لها السفهاء .

نفسيات الشعوب

للشعوب نفسيات عامة تختلف عليها شتى المشاعر ، وتتوارد عليها الأحوال المتباعدة ، وتستقبل بها ما يعرض لها من المشكلات على النحو الذى تشاء من حفاوة أو جود ، ومن استخفاف أو جد .

وهذه النفسية غامرة قاهرة ، تفرض مسلكها على الجماهير ، فلا يكاد ينجو من ضغطها أحد ، ولعلها هي التى أوحى بقول القائل .

وما أنا إلا من غزية إن غوت غوبت وإن ترشد غزية أرشد

وهي كذلك متغلغلة مطردة تتناقلها القرون ويتركها السابق لللاحق ، ويبقى طابعها واضحا فى التقاليد والعادات ، وسائر عناصر البيئة .

والذى يهم الدعاة من هذا الكلام أن يعرفوا عوارض هذه النفسية فى أمتنا وأن يتبينوا الأسيل فيها والطارىء والخبيث فيها والطيب .

فإن ذلك أدنى إلى نجاح دعايتهم !

فى بعض الأحيان تكون نفسية الأمة فى حال استرخاء وفتور ، نتيجة لبعض الحوادث المفاجئة ، فقلما تكثرت لها يوجه إليها من نداء أو تلتفت لها يطلب إليها من عمل .

وفى بعض الأحيان تضطرم مشاعر الأمة وتحرك بقوة تستمعى على كل توقف .

والدعاة الأذكياء يلبسون لكل حال لبوسها ، فإذا لم يستطيعوا مواجهة أمر لم يعجزهم الالتفاف حوله والإحاطة به ، فلام الذين يقفون فى مد السيل ، ولاهم الذين ينكشفون فى جزره .

ونفسية المصريين على جانب من التعقيد الغريب ، ولذلك يحار معها من لم تطل خبرته بها .

كثيراً ما يخفى تحت مظهرها الوادع الساخر الباسم قدر كبير من العنف والضيق والألم ! .

ربما تجده هذه الأمة هادئة ، فسل نفسك ، أهو هدوء رضا ، أم هدوء انتظار ؟
وربما تجدها غرقت في جو نفى مادي ، فسل نفسك : أهى سورة اللذة ، أم هى
النفرة من الألم ؟

ومن الخطأ أن تحسب الأعراض الطارئة دليل علة قديمة فى نفسية الأمة ، فيدخل
اليأس إلى قلبك ، فالحقيقة أن جوهر الأمم قلماً يلتوى مع اليد الصناع ، وليس بينهم
الأمم بالنقص إلا من جهل أساليب العمل معها أو استتال أمده .

قيمة الرعاية

أثار التفاتى منظر بائع فواكه يسوق عربته الصغيرة أمامه ، وعليها صفوف
مرصوفة متسقة من الثمر الجيد ، قد وضعت الواحدة منه إلى جانب الأخرى بعناية
ودقة ونظام ، لم يضطرب عقده على طول ما انتظم فيه من مئات وألوف .

فكان المنظر — بحق — مغرباً على الإعجاب إن لم يكن مغرباً على الشراء .

إن هذا الرجل قد أفرغ وسعه فى إجادة عرضه لبضاعته التى يرتزق منها .

وهنا شعرت بخاطر سريع يعترض تفكيرى ، ويلوى عنانه إلى ناحية أخرى . .

سمعت سؤالاً خافتاً ينبعث من أعماق نفسى : هل أنت — كمال دين — تنظم
للناس بضاعتك ، وتحسن عرضها على أبصارهم وبصائرهم ، لتبعث فى نفوسهم
الإعجاب على الأقل إن لم تفرهم بالإقبال والقبول ؟

وشعرت بحيرة فى الإجابة ! ومعنى هذه الحيرة أن الجواب بالسلب !

وبدأ لى كأن علماء الأديان يكتفون بما لها من قيمة اسمية طنانة ، وبما لهم فيها من
منازل متوارثة عالية ، فهم لا يحشمون أنفسهم مشقات العرض المنظم الطويل
لما لديهم من بضائع ، هى — لا ريب — أنفس ما فى الحياة من عروض .

ماذا يتصور الناس عند ما يسمعون صوت الدين ، أو عند ما يلمحون

سمت رجاله ؟

إن أذهانهم تعتمريها صور مبهمه للحرمان والتزمت ، ورسوم فآرة للسكون الموحش ، والفناء القريب .

وتلك التصورات الخاطئة وحدها تكفى لهدم كل مايجب للدين من محبة خالصة عميقة ، وتكفى لصرف النفوس عن مبادئه وفضائله .

فالدعاية للدين ، تشبه أن تكون معكوسة النتائج لا تغرى الرائين بالحجى إلا لتغريهم بالانصراف ، وهذا فشل ذريع يحمل تبعته المعارضون المفرطون .

إن حسن المرض طابع العصر الحديث والمذاهب المتسكثرة التى تتراكض فى زحام الحياة تتمتع بدعاة أقوياء يشدون أزرها ، ويقىمون أمرها . .

ومن الخير لعلماء الدين أن يهجروا — إلى غير عودة — حياة التراخى والطمأنينة ، وأن يُقبلوا على مآلديهم ، يعرفونه على حقيقة ، ثم يعرفون الناس حقيقة من غير تزبد ، ولا انتقاص .

فمن الظلم الفاسد للجهال الغالى أن يلف فى بالى الخرق ، وأن يتراكم عليه الوسخ والتراب .

ومرة الأديان :

حاجة النفس الإنسانية إلى الدين كحاجة الجسم إلى الغذاء ، ووجود الدين فى المجتمع الإنسانى ضرورة ماسة ، يفقد المجتمع — إن فقدها — عقله وأمانه وتوازنه والأديان الكبرى تقوم حقائقها على أصول سماوية ثابتة ، وتعتمد على الوحي من الله عز وجل . .

أما الأديان الأرضية الأخرى فهى — فى الحقيقة — فلسفات نفسية ، صادفت فى بيئاتها رواجاً وقبولاً جعلها تشبه الدين ، وليست بدين .

وكلا منا الآن عن الأديان السماوية الحققة ، ومبلغ تقارب حقائقها ، ومدى صلة الناس بها .

فإن الأديان تواجه من فوضى الإلحاد والإباحية حرباً ، إن لم تتحد أمامها ذهبت فيها .

والناظر إلى الإسلام ، وإلى أركانه الخمس ، وإلى سائر شرائعه يراه قد وضع

الأساس لوحدة دينية يصح أن يلتقي الناس جميعا عليها ، كما التقت بها الهدايات الأولى تلك الهدايات التي بشر بها جميع الأنبياء وظهرت بها كتبهم ووصاياهم ، وانتفع الناس بها حيناً ، ثم زاعبوا عنها حيناً آخر .

الإيمان بالله وحده عامل مشترك في كل دين ، والقرآن يقول « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » .

وكذلك تطهير النفس بإقامة الصلاة ، وإعانة الفقراء بإيتاء الزكاة ، والقرآن يقول عن أمم الأنبياء السابقين « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ » .

والصيام ليس بدعا في التشريع الإسلامي ، ولكنه طاعة روحانية عريقة في قدمها « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » . والحج عبادة شرعت على عهد شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي بنى الكعبة ، ودعا الناس إليها

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة لم تخل منها رسالة ، ولم يعذر في تركها جبر ولا راهب ، من أصحاب الديانات الأولى .

والدعوة الحارة إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن الرذائل .

بل العقوبات الرادعة في كثير من هذه الجرائم تكاد تكون واحدة في الأديان كلها ، كما تتشابه الملامح المتوارثة بين أدنى الأقرباء .

إن وحدة الدين في كل زمان ومكان ، هي لب الإسلام .

وعوامل المسالمة والتقريب بين المتدينين في تناول اليد ، لمن يبتغى وجه الله ، والمسلمون من جانبهم أسرع الناس إلى محو بذور التفرقة والشقاق كما يأمرهم بذلك دينهم الذي يجعل من مقومات الإيمان الاعتراف بجميع الأنبياء ، وبجميع الكتب المنزلة .

وهل الإسلام إلا تأكيد للحقائق السليمة في الديانات الأولى ، وحث على الاستمساك بها ، وإزالة لفبار القدم عما نسي من تعاليمها ، وعتب على المقصرين من أبنائها بصح أن يوجه مثله ، وأشد منه إلى المسلمين أنفسهم إذا ما قصرُوا في حقوق ربهم وخرجوا عن هدى كتابهم .

إن القرآن يصح جعله كتاباً للأديان - كلها كما رأيت - وإن من مصلحة العالم أن يلتفت المتدينون فيه إلى ما بأيديهم ، وإلى ما بأيدي إخوانهم ، وأن لا يمكنوا لشرائطين الإلحاد والعصيان من الظفر بمصير الأرض ، والاستيلاء على أئمة الأمور فيها .
عمرو ولكن له فضله :

أستطيع أن أقول إنني استفدت من أعدائي بقدر ما استفدت من أصدقائي .
فإن كان بر هؤلاء بي قد دفعني إلى الإجابة ، وتطلب السكال ، لقد كان كره أولئك لي يدفعني إلى الحذر وتوقي النقص ! .
والمرء تتيسر له سبل الاستقامة بين عوامل الرغبة والرغبة ، فقلما يجيد أو يتراجع .

والهيئات والأحزاب يإزاء هذه الحقيقة كالأفراد ، وليس يغير من أثر هذه الحقيقة أن الناس يكرهون أعداءهم ، ويودون أن يمحطوا من أمام وجوههم .
فكم من هيئة تريت في حكمها ، خشية امتداد الألسنة إليها ، وكم من حكومات لزمت الصواب خشية ثورة المعارضة عليها .

ومن ثم يجب أن نرغب أعداءنا لنستفيد منهم كما أننا نرغبهم لنبتقي غوائل حقدهم ، وكوامن خصوصاتهم .

سمعت مرة أحد أصدقائي يتكلم - بحماسة - عما صنعتته دول الغرب بأهم الشرق فقلت له : يا صديقي لست أظنك جاوزت حد الصواب فيما ذكرت .

إن هؤلاء الناس أهانونا حقاً ، ولكننا كنا نياماً ، فاستيقظنا على ركل أقدامهم ، وصفع أكفهم .

ومن الخير لنا أن نستفيد من بواكير هذه اليقظة ، وأن نزيل بقايا النعاس من أجفاننا ، ثم نأخذ بعدئذ بتلايب هؤلاء القوم لنعاتبهم أو لنحاسبهم على أسلوبهم البارد في إيقاظ النائمين !

أما طريقي أنا في فهم الأمور ، فهي تلقى تسعة أعشار اللوم على النائم الغافل ، ولا تعني بتوجيه العشر الباقي إلى الموقظ الشرس .

ذلك لأنى أقدر الفائدة التى تصيبنى من أعدائى ، وأنتفع بها فى تقويم عقلى ،
وتدعيم شأنى .

ومن الخير لنا - نحن أبناء الشرق الإسلامى - أن نراجع أنفسنا قبل أن
نراجع غيرنا . وأن نداوى أخطاءنا على عجل قبل أن نفكر فى الانتقام ممن
نفذوا إلينا منها .

وإذا ضربك خصمك على عضو مريض ، فاستشف أولاً ... ثم انزل معه فى
ميدان المعركة ، وذلك طريق النصر .

إن أقواما محصتهم الشدائد فحمدوا مغبتها بعد ما كرهوا وطأها فلنستفد من
الخصومات التى تقع لنا ، فكم تهذى عين الناقد الناقم ، وكم تزل عين
الصديق المغضى .

موظفونه .

كنت أسير يوماً ، فسمعت اثنين يتجادلان . يقول أحدهما لصاحبه : أنا لا أقضى
لأحد من الناس عملاً إلا إذا أشعرته بأن دون ذلك عقبات صعبة التذليل . وأن
مصلحته معقدة ، ليس فى إمكان أحد حلها ، فإذا أحس بالحرج وأخذ يلح فى الرجاء
قت متبرماً متثاقلاً ، وأخذت أقضى له مسألته قليلاً قليلاً ، لى أطيل عليه أمد
بلائه ، وأستمع إلى شدة رجائه ! !

حتى إذا ما انصرف أدرك أننى صاحب الفضل عليه ، ووجدت أنا فى ذلك
ما يثبت مكانتى ، ويفخم وظيفتى .

وكان صاحبه يستمع إليه وهو يومئ برأسه ، موافقاً على مسلك صاحبه الموظف
الأمين على مصالح الجمهور . ويؤكد أن الناس يستحقون هذه المعاملة ، وأن هية
الموظف لا تقوم إلا بها . . .

وكنت أستمع إلى هذا الحديث ، وأنا أتميز غيظاً . وقلت : لو أن لى سلطة

حكّام القرون الوسطى لأمرت بضرب أعناق هؤلاء الذين يأخذون مال الأمة ، ليعذبوا
أبناءها ، ويهدروا حقوقها ، ويكتبوا مشاعر الأنفة والإباء فيها !!
ومالى أتمنى سلطة حكّام القرون الوسطى ، وفى أحداث الأيام المعاصرة ما يريح
من هذا البلاء .

لقد قرأت منذ شهور حكما روسيا بإعدام نفر ثبت عليهم التلاعب بأنظمة
الملاحجى ، والإساءة إلى من فيها ، فتقرر قتلهم بتهمة خيانة الشعب !!

إن خيانة الشعب أمر خطير ، وجرم دنى ، لا ينبغي أن تأخذنا فيه هواة ، بل
ينبغي أن تحدّد عناصر الجريمة فيه بدقة بالغة ، فإذا ثبت على أحد من الموظفين أنه
يستغلّ وظيفته لإشباع شهوته ، وإرضاء غروره ، جعلناه هدفاً لنكال أليم .

وبذلك تصان المصالح العامة ، وتقضى حاجات الناس فى هدوء وكرامة .

أعتقد أن فى مصر عدداً من الأطباء يكفى لمدّواة المرضى جميعاً .

وعددا من المدرسين يكفى لتعليم الأُميين جميعاً .

وعددا من الموظفين يكفى لتنظيم وادى النيل كله من منبعه إلى مصبّه .

ولكن وجود هؤلاء جميعا لم يستأصل المرض ، ولا الجهل ولا التراخي
فى إتمام الأعمال .

وعلة ذلك واضحة . فتى يؤدى كل واجب على ما يرضى الله ؟ .

نُزرة بالاصلاح :

بعض الناس يجدون مهارة ملحوظة فى وصف الآفات الخلقية والاجتماعية التى
تشيع بيننا . ولكن قلوبهم لا تنكاد تهتز لشيء مما يقولون .

فهم يقفون عند حد النعى على الناس ، ووصف ما يقع من تصرفات سيئة .

وربما جاوزوا ذلك إلى بعض تمنيات سطحية عن إصلاح الفاسد ، وإقامة المعوج ،
ثم لا يساهمون - بعد ذلك - بجهد ما فى نهضة إصلاحية ، ولا يهتمون بعمل ما ،
فى سبيل تغيير ما ينكرون .

وهؤلاء - في نظري - مجردون من معاني الدين الصادق ، والوطنية الصحيحة .
ولو أن سائحاً أوريباً جاس خلال هذه الديار ، وتعرف أحوال أهلها عن كثب ،
وشاهد حياتنا العامة من جميع نواحيها ، لاستطاع - ما دام له عين تبصر ، وفؤاد
يعقل - أن يعرف كثيراً من أخطائنا المنبثة في كل مكان ، والتي صارت سمّة لا تزول
في حياة هذا المجتمع المريض . بضعة شهور فحسب تجعل الأوربي الطاريء الغريب
يعرف الكثير عنا إن لم يعرف كل شيء .

فكيف بالمصري الذي يحيا على هذه الأرض من مهده إلى لحدّه !!

لاجرم كان طبائع قومه أبصر ، وبوجوه الخلل فيها أعلم .

فالوقوف عند سرد العيوب الشائعة ، والإفاضة في شرح أعراضها وآثارها
لا يدل على شيء من الكفاية ، ولا ينبئ عن ذرة من الإخلاص ، وهو ضرب من
الشقشقة يقتنه بعض الناس ، وخصوصاً المرضى بداء القنوط . لا تكاد تستمع إلى
أحدهم حتى يلقى عليك اخطبة طويلة عما أصاب الأخلاق من انتكاس ، وعما أصاب
المجتمع من تدهور ، وعما أصاب السياسة من ضلال .

ثم هو يعد لا يتحول من مكانته تلك .

أقصى ما لديه هذه المعرفة المجردة ، وكأنه يُدلُّ بها على من حوله ، فهو يظفر إليهم
كأنه فوق قّة .

وإنما يتفاوت الناس بعد معرفة الداء في البحث عن العلاج . وفي السعي إلى
إبصاليه لكل عضو مريض من جسم الأمة ، وفي السهر على ذلك حتى تتم السلامة
وتعود العافية المفقودة ، وتستأنف الأمة طريقها إلى الغاية العليا التي ننشدها وهي
أشد تماسكاً وأقوى على مواجهة صعاب الحياة .

كيف نعيشهم وكيف نموت (*) :

هناك شبه قريب بين حاضر المسلمين المبعثرين في قارات الأرض ، القابعين في أماكنهم من « الدنيا القديمة » وبين ماضى المسلمين القلائل الضعفاء يوم استجابوا لدعوة النبي العربي ، فما كادوا يؤمنون برسالته حتى وقعوا في مهاب عواصف حقاء من الحيف والخسف ، روعت يومهم وغدهم ، وأباحت ملهم ودمهم ، وجملت آفاق الصحراء الفسيحة أضيق في أعينهم من سم الخياط !

كان أعز المسلمين يلتمس (الحليف) القوى أو الجار العزيز ، ليدرك في ظله بعض الأمان على نفسه وأهله . وكان زمام الحياة الاقتصادية والسياسية في الوطن الخاص ، بل الدنيا كلها — بعيداً عن أيدي هذا نفر من المسلمين ، وأننى لهم به ؟ بل أين هم منه ؟ وهم قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ! . كانوا يعيشون على هامش الحياة كما نعيش نحن الآن ، أو لعلنا نحن الذين نعيش على هامش الدنيا كما كانوا يعيشون ! .

وأيّ ما كان الأمر ، فإن هذه الحياة التي فقدوها فسموا إليها — إذ كرهوا العيش على هامشها وفقدناها نحن ، ولم نزل نضطرب في حدودها المهيئة ، إذ لم نسع بعد إلى التخلص منها .. هذه الحياة المفقودة المنشودة — هي الحياة في ظل دولة مستكملة الحرية والسلطان ، تأخذ لربها ولنفسها ما تريد ، وترسل جندها في أى ميدان ، ليعودوا بالنصر الغالى ، وليفرضوا على الناس شروط المنتصرين . ولقد جاهد المسلمون الأولون بضعة عشر عاماً حتى استطاعوا أن يحققوا هذه الأمانى ، وأن يسجلوها يوم بدر تسجيلاً لا يزال يعجب له التاريخ .

أما نحن فلا تزال أماننا أمور وأمور ، ولئن كان الشبه قريباً من ناحية بين المسلمين الآن ، وبين المسلمين قبل بدر ، فهو بعيد من ألف ناحية أخرى . فهم ضعفوا بقلتهم ، على حين ضعفنا بكثرتنا . وهم عزوا في أنفسهم ، على حين استكننا في أنفسنا .

(*) قبلت في ذكرى بدر .

وهم منذ دخلوا الإسلام رفضوا كل وضع جائر ، وتربصوا به الدوائر .
أما نحن فمذ ولدنا في الإسلام لم نزل نغمض العين على القذى ، ونتفلسف
في تحمل الأذى .

وهم بنوا على العقيدة الراسخة آمالهم وأعمالهم ، وبنينا — نحن — آمالنا ،
وأعمالنا على المآرب والمنافع .

فكان من البدايات أن يبعد عنا النصر إذ فرّت من بين أيدينا أسبابه ،
وأغلقت دوننا أبوابه .

وكان من البدايات أن يبلغ المسلمون الأولون بعد بضعة عشر عاما أول نصر
يعملون له ، فإذا بدولتهم مكيمة البناء ، وإذا بدعوتهم خفاقة اللواء .

ومن الذي أحرز النصر ؟ رجال قلة ، يتسع بهم مسجد صغير من مساجد القاهرة .
بل إنهم يتيهون في صحن مسجد من المساجد الكبيرة التي توجد هنا وهناك ،
وتردحم كل أسبوع بالآلاف .

ولكنه النصر العزيز ظفر به من استحقوه بأخلاقهم وبطولاتهم .
ولم تضن عليهم عناية الله به ، بل جعلته لهم مكافأة باهرة ، ومعجزة القاهرة « قَدْ
كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ
يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

قلت لنفسي : ما أحوج المسلمين إلى من يعرفهم دينهم ! ثم فكرت مليا ، فإذا بي
أقول : بل ما أحوج المسلمين إلى من يعرفهم دنياهم !!

قد يكون للوعظ بالدين موضع بين قوم انشغلوا بإتقان حياتهم ، وانكبوا على
عاجل دنياهم ، فهم بحاجة إلى من يذكرهم بالله والدار الآخرة .

أما المسلمون فهم أحوج إلى من يعلمهم كيف يعيشون . .

وإلا فهل أحصيت ضحايا جرائم القتل التي حدثت من نحو ستين سنة ،
أى من بداية الاحتلال الإنجليزي إلى الآن .

إنها تبلغ عشرات الألوف .

فهل أحصيت عدد القتلى في موقعة التل الكبير ، وفي ما بعدها من محاولات لاسترداد سيادتنا القومية ؟ .

وهل رأيت بهذه المقارنة المادية كيف أن ضحايا النقص الخلقى والسقوط الاجتماعى أضعاف ضحايا الاستقلال المنشود ؟ ؟ .

وإن هذه الدماء التى سفكت للشيطان لو سُفِكَ مثلها فى سبيل الله لئلنا عزتنا وكرامتنا من زمن بعيد . .

ولكننا لم نزل بحاجة إلى تعليم واسع ، وتربية عميقة ، وتوجيه سديد يفهمنا كيف نعيش ؟ وكيف نموت ؟ ولبن نعيش ؟ ولبن نموت ؟

غلط يجب أنه بحارب :

يوجد خطأ جسيم فى تفكيرنا الإسلامى ، وقع فيه القدامى ووقع فيه المحدثون ، وكان له أثر وخيم على وحدتنا الأولى وبوشك أن يكون له نفس الأثر على نهضتنا الحديثة . .

هذا الخطأ يرجع إلى كثرة التفكير أو انعدامه فى حقائق الكون ، وخصائص مادته وأحوال المخلوقات المختلفة . مما جعل قسماً كبيراً من ميراثنا الثقافى الإسلامى بحوثاً لاهوتية نظرية خاض فيها المتصوفة والمعتزلة وسامح فيها علماء الكلام من سلف وخلف ، على حين قلت العلوم الطبيعية والمعارف الكونية العلمانية ..

مع أن منهج القرآن الكريم يقوم على عكس هذا الاتجاه تماماً ، فهو يصرف العقول عن البحث فى الخالق إلى البحث فى الخلق ، ويرفض الكلام عن الروح ويرد لسؤال عن حقيقتها ، ويلج فى لفت أنظار الناس إلى ما فى العالم من آيات وآثار وروائع وبدائع وما أكثر ما يقول : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض . . . » « أولم يتفكروا فى أنفسهم . . . » « أولم يسيروا فى الأرض . . . »

لكننا — للأسف — لم نهتد بضوء الوحي فى مسلكنا ، ولم نحدد على منهجه الحلى خطتنا . . فما أسرع ما أصابتنا لومة الأقدمين فى آرائهم وأفكارهم ، فإذا بفلسفة الإغريق الخرافية تترجم إلينا ، وإذا بالعقل الإسلامى النظيف يلوث بضروب من

السفسطة والجدل والأوهام المتصلة بذات الخالق وحقيقة الخلق ، واخترق المسلمون — حين عاجلوا ذلك — أسواراً مضاعفة القوة من نصوص القرآن والسنة حتى انتهى بنا المطاف أخيراً — ونحن أمام نصوص مؤولة شر تأويل ، وكتب فيها من حقائق الإسلام القليل ، ومن لغو أثينا وروما أكثر من هدى مكة والمدينة .

والعجب أن عوام المسلمين الآن يعتقدون كثيراً من هذه الأفكار ، فمنهم من لا يحسن كسب قروش يقتات بها ويريد أن يكافئ عن وحدة الوجود ، ومنهم من لا يحسن أن يخط الألف ويريد الكلام في حقيقة الصفات العليا ، ومنهم من لا تميز بين تصرفه وتصرف الحيوان ، ومع ذلك يخوض في فلسفة الجبر والاختيار ، أو فلسفة المعرفة والعمل .

وليت شعري لو اتجه التفكير الإسلامى اتجاهاً عملياً مفتحاً .
أما جند هؤلاء وأمثالهم لخدمة الدولة ونفع المجتمع ، بدلاً من هذا الهذر البعيد عن نصوص الإسلام وعن روح الإسلام والذي يعتبر أصلاً هاماً من أصول تأخرنا المعيب ؟ .

إيمان طوبى :

لقاء الله حق لا يعرفه شك ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يظلَّ في إيمانه بربه وعمله له حتى يدرك هذا اللقاء الذى لا محيص عنه . قال عز وجل :
« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » .

والحكم في النزاع الدائم بين الإيمان والكفر ، بين العدالة والظلم ، بين الرحمة والقسوة ، لا بد من إقراره وإن طال دونه المدى .

وهبه لم يصدر إلا بعد لقاء الله . فإن تأخره هذا لا يردُّ حقه باطلاً .
وبين الحاضر الذى يحتدم فيه هذا العراك ... والغد الذى يصدر فيه هذا الحكم بون واسع أو ضيق ، يُبتلى فيه البشر بما شاء الله من خير وشر فمن الناس من يفرض حاضره فيحسبه كل شيء .

ومنهم من يوقن بالله واليوم الآخر فيأخذ حذره ويُعد أهبطه .
على أن الله — سبحانه — يؤكد لنا في آياته أنه لن يدع الأمور بغير فصل ولن يترك البشر من غير جزاء . لماذا ؟ قال :

« لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ »
ويومئذ تَمْخِضُ الْأَوْهَامُ الْكَبِيرَةُ فَإِذَا بِهَا هَبَاءٌ ، وَتَقْشَعُ السَّحَابُ الْخَادِعَةُ
فَإِذَا بِهَا جَهَامٌ .

« حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا .
قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا » .

في عهد ما قبل الهجرة للدعوة الإسلامية كان المؤمنون يتعرضون لفتن مقلحة
ومحن متردفة ويتقلبون بين البأساء والضراء ويسيرون في طريق خُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ
وفرشت بالأشواك .

كان خصومهم شديدي الجرأة عليهم . وزادهم ضراوة في عدوانهم أن الحق
أعزل وأن ناصر به ضعاف وأن أشياعه قلائل :

والقوة المجرمة إذا أمنت العقاب واطمأنت إلى العاقبة انسابت في غيها
وأوغلت في إساءتها لا يرد لها عن طغيانها شيء .

وقد كلف المسلمون أن يصبروا على هذا الحاضر المؤسف وأن يؤملوا في مستقبل
أكرم لدعوتهم ولأنفسهم

وحُذِرَ الكافرون من غد تتبدل فيه الأحوال وتفرغ فيه أيديهم من أسباب
البطش ، ويومئذ يكونون أذل جانباً وأقل عدداً .

على أن النفوس ليست سواء في تحمل ما يفرضه الإسلام من مصابرة وثبات .
وكثيراً ما تجيش بالأفئدة آلام مبرحة كلما اشتد الضغط وغام الأفق وطال البلاء .

وقد تفتلق من النفوس همسات خافتة أو صيحات راعدة . متى يحىء هذا الغد
المرتقب ؟ متى تبدو معالم فجره وسط هذا الظلام ؟ متى تقدم طوابع سعده وسط
هذه التحوس ؟ متى ؟ . . .

بيد أن الله عز وجل يقطع هذا التساؤل ويرد المسامين إلى الصبر المُرَّ على يومهم
ويجعل تعلقهم بالحق الذي يدفعون عنهم أشد من تعلقهم بالمستقبل الذي يتنفسون فيه .
ومن ثمَّ فهو يعسكر عليهم الأمل في فوز قريب ونصر سريع . ويربيهم على

أخلاق المجاهدين الذين يعملون حُبًّا في العمل وحده . وإن بعدت الثمرة أو طاحت بها الريح .

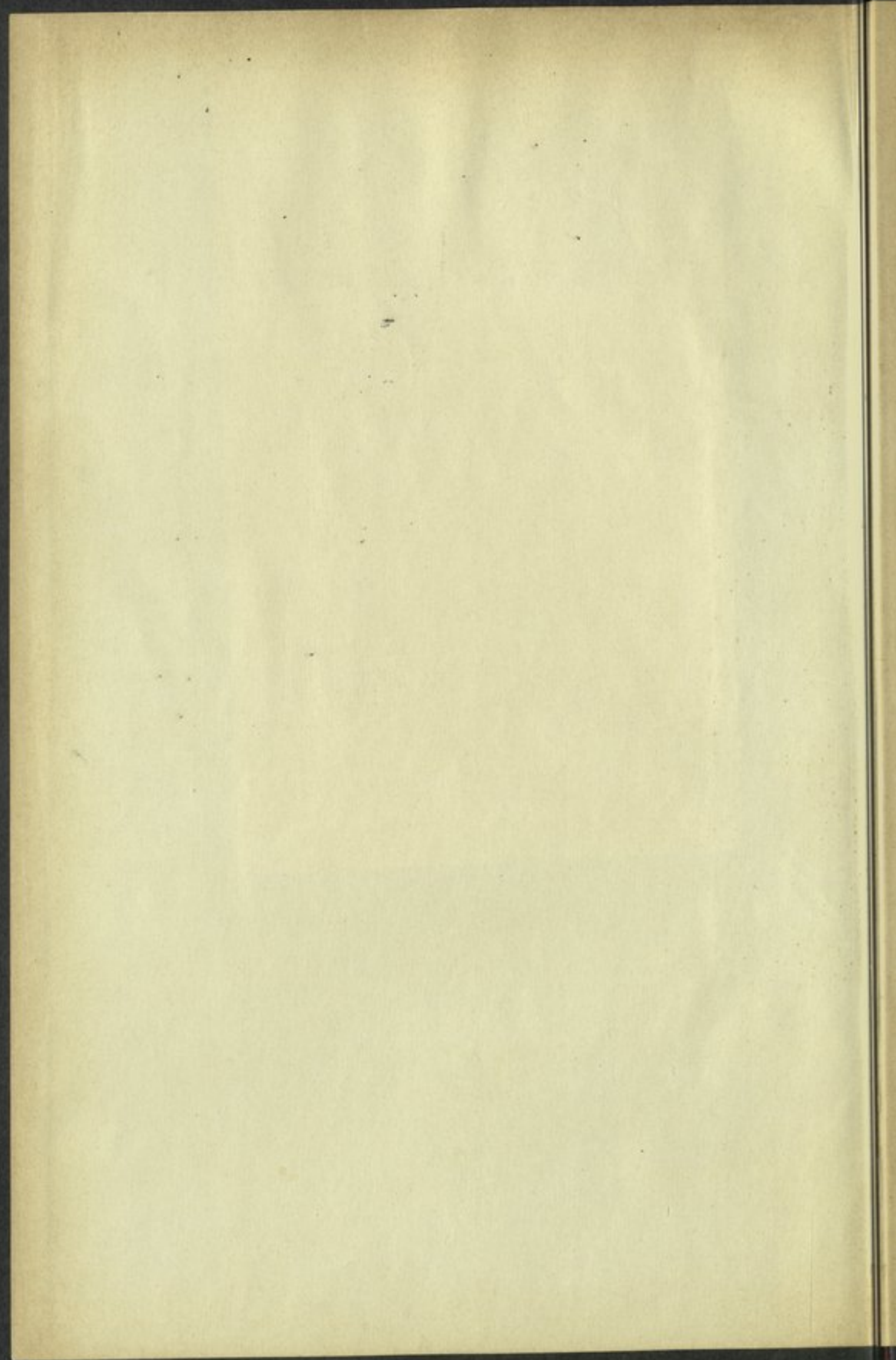
روى عن خباب بن الارت قال : شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالنشار فيوضع على رأسه فيشق نصفين ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمة وعظمه ! ما يصده ذلك عن دينه . . . والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

في ميدان الكفاح لنصرة دين الله كان القلب الساقط للمؤمنين حقا لا ريب فيه . ولكن أفواما من المؤمنين ماتوا قبل أن تفر عيونهم برؤيته .

من هؤلاء سيد الشهداء حمزة الذي مزق جسمه في الهزيمة الهائلة التي نزلت بالمسلمين على جبل أحد ومثله مئات الأبطال هلكوا قبل أن ترفع للحق راية ولم تكن هزيمة الأشخاص — ولن تكون — علامة على هزيمة المبادئ ولا سقوطها دون الغاية المأمولة لها . .

ومن ثمَّ عالج القرآن بعنف ركوز أصحاب الدعوات إلى حلٍّ عاجل لما ينزل بهم أو لما يفعله أعداؤهم . وعلم الله نبيه أن يتعهد نفسه وصحابته بالأعمال الإيجابية البحتة وألا يشغلهم تربص السوء بأعداء الله عن ذلك الواجب « وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ . ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ » .

الذي ندرية تمام الدراية أن الإسلام حق وأن العمل له — أيًا كانت النتائج — حق . فإما عزة في الدنيا ، وإما فرحة يوم لقاء الله . .



SAFETY DATE DUE

8 NOV 2012

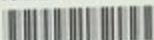
Circulation Dept.

297.04:G41mA:c.1

الغزالي، محمد

من معالم الحق

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01005790

American University of Beirut



297.04
G41mA

General Library

297.04
G41mA
c.1